إلى أقصى الجنوب الإفريقي

جولة وحديث حول الإسلام

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

إلى أقصى الجنوب الإفريقي .- الرياض.

٢٤٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٢ - ٩٢٨ - ٤١ - ٩٩٦٠

١- إفريقيا - وصف ورحلات

٢- المسلمون في إفريقيا أ- العنوان

ديوي ٩١٦,٠٤ ٢٣/٣٧٣١

رقم الايداع ٢٣/٣٧٣١

ردمك : ٢ - ٩٢٨ - ٤١ - ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد؛ فإن هذه قصة سفر إلى أقطار ثلاثة تخللتها وقفات وجولات في قطر رابع وهو (جمهورية جنوب إفريقية) العنصرية.

والأقطار الثلاثة هي ناميبيا التي كانت تسمى (جنوب غرب أفريقية) و(ليسوتو) و(سوازيلاند). وكلها واقع في أقصى القارة الإفريقية من جهة الجنوب لذلك أسميت هذا الكتاب: إلى أقصى الجنوب الإفريقي.

وتجمع بينها جوامع كثيرة لعل أهمها موقعها القصي في قارة إفريقية، وكون الغالب على سكانها هو الجنس الإفريقي الأسود، عدا تلك القلة القليلة المتعصبة من ذوي الأصول الأوروبية في (جمهورية جنوب إفريقية).

وشيء آخر يجمع بينها ألا وهو ضعف الحركة الإسلامية فيها وحاجتها إلى التنشيط، بل الجد والتجديد حاشا (جمهورية جنوب إفريقية) فإن إخوتنا المسلمين فيها هم من أكثر الأقليات العددية المسلمة في العالم قياماً بأمور دينهم، وحرصاً على انتشار الدعوة الإسلامية.

لذلك رأينا في رابطة العالم الإسلامي أنه لا بد من زيارة الأقطار المذكورة، لتقدير حجم الدعم المطلوب للدعوة إلى الله فيها، ومعرفة استعداد الإخوة المسلمين هناك لذلك. مما ستجده موضحاً في ثنايا الكتاب.

وقد اخترت لمرافقتي من جنوب إفريقية أخانا الدكتور محمد مومنيات وهو طبيب من أهل جنوب إفريقية، مولود هناك من أصل هندي، ويعمل مديراً لمكتب رابطة العالم الإسلامي في مدينة (جوهانسبرج).

والله المستعان، وعليه التكلان.

مكة المكرمة

المؤلف

يوم الإثنين ٢٦/ ٣/ ١٤١١هـ ـ ١٥ اكتوبر ١٩٩٠م.

من جدة إلى نيروبي:

غادرنا جدة على طائرة الخطوط السعودية من طراز ترايستار التي تحمل ثلاثمائة راكب في الساعة الثانية والنصف ظهراً متأخرة عن موعدها المقرر ربع ساعة، وهذا لا يعد تأخيراً في عرف شركات الطيران العالمية، ولم يكن في الدرجة الأولى التي ركبت فيها إلا أُسرة عربية ربما كان ربها من أعضاء السلك السياسي ، وأسرة ذات مظهر أوروبي ربما كانت أمريكية. أما الدرجة السياحية فليس فيها إلا أقل من عُشر مقاعدها أي ١٠٪ مشغولاً بالركاب. وأعلنوا أن مدة الطيران إلى نيروبي ستكون ثلاث ساعات وربعاً، وكانت الخدمة جيدة والطعام ممتازاً وقلة الركاب ساعدت على الراحة.

وعرفت بذلك أن (السعودية) تسير هذه الرحلة وأمثالها لغرض المحافظة على الخط، وإلا فإنها لا تربح منها إلا في مواسم معينة من السنة.

لقد تذكرت في هذه الطائرة السعودية الكبيرة وأنا أسافر من جدة إلى نيروبي مباشرة دون توقف وأتمتع بالخدمة الجيدة والطعام الحلال أول مرة سافرت فيها إلى نيروبي قبل ٢٧ سنة، ولم يكن آنذاك يوجد طيران مباشر أو إليها حتى لرحلة واحدة. ولذلك اضطررنا إلى السفر من جدة إلى عدن على

طائرة مروحية إذ الطائرات النفاثة لم يكن الناس قد توسعوا في ركوبها بعد فلم أر إلا النفاثة البريطانية من طراز (كوميت) وكانت حديثة العهد بالاستعمال، لذلك كانت الشركة البريطانية (بريتش ايروايز) تعلن عنها وتكرر ذلك افتخاراً بها.

وقد استغرقت الرحلة من جدة إلى عدن آنذاك أكثر من ساعتين، ومن عدن توجهنا إلى مقديشو عاصمة الصومال مع خطوط عدن الجوية وهي شركة صغيرة متفرعة من شركة الخطوط البريطانية. ثم من الصومال توجهنا إلى نيروبي في رحلة طويلة مملة استغرقت ثلاث ساعات وربعاً.

وكنا مضطرين إلى السؤال في الطائرات عن الطعام أحلال هو أم حرام؟ لأن القائمين على الشركات المذكورة ليسوا من المسلمين، ومعظم الركاب الذين كانوا يركبون معها هم من الأوروبيين أو الأمريكيين.

وعندما كنت آنذاك مقبلاً على نيروبي كنت كمن يذهب إلى أقصى الأرض، لأنها كانت بعيدة عن بلادنا في أذهاننا حتى إنني لا أذكر أنني لقيت أحداً من السعوديين كان زارها من قبل أن نذهب إليها، ولذلك كنت أتخيلها عالماً مجهولاً لي سوف أكتشفه بنفسي، وأذوق متعة اكتشافه.

فهي من الناحية التاريخية جزء من بلاد الزنج التي أعرفها في كتب التاريخ والأدب ويكفي للدلالة على ذلك أن ساحلها كان يسمى (بر الزنج) ولحق التحريف هذه التسمية فصارت (زنج بار) أي بر الزنج بتقديم المضاف على المضاف إليه وانتقلت هذه التسمية من كامل ساحل إفريقية في كينيا وما كان عنه قليلاً جهة الشمال والجنوب إلى تلك الجزيرة الواقعة في بحر الزنج.

وذلك مثلما انتقلت تسمية (البحرين) من الساحل الغربي للخليج العربي وما كان بالقرب منه إلى جزيرة (أوال) الواقعة في الخليج، ونسيت التسمية الأولى التاريخية للبحرين.

ولم تكن توجد سفارات لبلادنا في ذلك الجزء من إفريقية عند رحلتي الأولى إلى نيروبي فكانت أبعد سفارة سعودية في إفريقية جهة الجنوب هي سفارتنا في الصومال.

وحتى معرفتنا بالجمعيات الإسلامية، بل بأحوال المسلمين في تلك البلدان الإفريقية كانت قليلة محدودة بالنسبة لما أصبحنا نعرفه عنها الآن، بحيث صار لنا الآن أصدقاء كثر، وجهات عديدة تتعاون معنا على البر والتقوى.

وكان لي في تلك الرحلة شرف أول شخص يرأس بعثة إسلامية تحمل معونات للجمعيات الإسلامية من بلادنا، وبناء على تقرير قدمته عند عودتي اقترحت فيه إرسال أول فوج من الدعاة من المملكة العربية السعودية إلى إفريقية يبلغ عددهم خمسين داعية وأن تخصص منح للطلبة الأفارقة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة التي كنت أتولى فيها وظيفة (الأمين العام).آنذاك فكان ذلك كله أول ما خصص من بلادنا للقارة الإفريقية من دعاة ومن منح دراسية تشغل بالاختيار المباشر.

وصدر الأمر الملكي من الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله بالموافقة على ذلك وأن أسافر بعد ذلك إلى إفريقية لاتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذه فسافرت بالفعل سفرة أطول من الأولى، إلى عدد من الدول الإفريقية. وكانت نيروبي مركز الإنطلاق لتلك السفرات، فكنت أنطلق منها إلى الدول الإفريقية الأخرى ثم أعود إليها.

وقد ذكرت ذلك في أول كتاب ألفته في الرحلات والحديث عن أحوال المسلمين، وعنوانه: «في إفريقية الخضراء، مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين».

إتساع العمل الإسلامي:

وكان ذلك العمل أول عمل إسلامي واسع المساحة في إفريقية تقوم به جهة رسمية من المملكة العربية السعودية عن طريق زيارة المسلمين في أماكنهم وإيصال المعونة لهم، وكان لي بحمد الله تعالى شرف أن أكون أول من رأس ذلك الوفد الأول، وبعده الوفد والثاني.

والآن والطائرة السعودية الحديثة الضخمة تمعن في سماء القارة الإفريقية فإنني أقارن في ذهني بين ما كان عليه العمل الإسلامي في ذلك الحين قبل أكثر من ربع قرن وما هو عليه الآن سواء أكان ذلك فيما يختص الإخوة المسلمين المقيمين في المهاجر أو بالنسبة لنا نحن في المملكة العربية السعودية فأجد المقارنة ولله الحمد في صالح الإسلام والمسلمين، بل إنها تسجل نصراً شاملاً يجب علينا أن نشكر الله عليه. فعلى سبيل المثال، هذه الرحلة التي أبدأ التوجه إليها الآن تستهدف الإطلاع على العمل الإسلامي في أقطار إفريقية قصية وهي ناميبيا وليسوتو و(سوازي لاند). وذلك من أجل تقدير الحاجة إلى مساعدة المسلمين هناك، والتخطيط للدعوة فيها في المستقبل.

وقبل هذه الرحلة كانت آخر رحلة عدت منها هي جولة في أنحاء الإتحاد السوفييتي في آسيا وأوروبا اطلعت فيها على الأوضاع الجديدة المشجعة في الإتحاد السوفييتي وأثرها على الإسلام والمسلمين هناك.

ولا أريد أن أتحدث عما شاهدته هناك وإنما يمكن للقارىء الكريم أن يقرأ إذا أراد كتابين كتبتهما في تلك الرحلة هما: «الرحلة الروسية» و«يوميات آسيا الوسطى» وهما مطبوعان.

وقد شمل العمل الإسلامي، بل الوجود الإسلامي أقطاراً لم يكن له فيها وجود في الماضي إطلاقاً مثل جزر في المحيط الهادىء كمملكة تونغا

وجزر ساموا، وتوسع في بلاد كان محرماً أن يدخلها من قبل مثل أنغولا وجزر الرأس الأخضر.

ناهيك بأوروبا وأمريكا حيث صار يوجد ـ على سبيل المثال ـ في هولندا أكثر من مائتي مسجد، وفي حي من أحياء مدينة بروكسل هو حي (سكاربيك) ثمانية عشر مسجداً، لم يكن يوجد منها مسجد واحد قبل عشرين سنة.

ولذلك اتسع نطاق العمل أمام الجهات التي تعمل في حقل الدعوة الإسلامية على مستوى العالم وعلى رأسها رابطة العالم الإسلامي، التي أتولى فيها الآن وظيفة الأمين العام المساعد. فكان من ذلك أن كثرت تنقلاتي فزرت كل أقطار العالم تقريباً بحيث لم يبق في قارة أمريكا الجنوبية قطر لم أزره، ولا في إفريقية إلا أقطاراً نائية، منها، هي التي تتجه إليها رحلتي الآن وهي ناميبيا وليسوتو وسوازيلاند، أما جمهورية جنوب إفريقية فقد زرتها في عام ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م وكتبت عن تلك الزيارة كتاب «مشاهدات في بلاد العنصريين» الذي نشره النادي الأدبي في بريدة.

في مطار نيروبي:

بعد ثلاث ساعات من الطيران بدأت الطائرة التدني إلى الأرض فتأملتها فوجدتها أقل خضرة، بل وأقل مياهاً مما عهدت عليه تلك المنطقة من قبل، فكنت اعرفها خضراء كثيفة الخضرة تنتشر فيها البحيرات أو منافع المياه، وقد قيل لي بعد ذلك إن هذا سببه قلة الأمطار في الأعوام الأخيرة بخاصة هذا العام.

وعندما اقتربت الطائرة من منطقة المطار كان المنظر حوله أشبه ما يكون بمنظر الصحراء لولا بعض الأشجار الكبيرة الخضراء.

وتبين بعد النزول أن جميع الأعشاب التي على الأرض هي يابسة

هامدة، وأنها أعشاب من أعشاب المراعي الجيدة لولا أنها يابسة، وأعلنوا أن الحرارة في نيروبي ٢٦ درجة في هذه الساعة المتأخرة من النهار، هذه درجة مرتفعة عما كنت أعرفه عنها من قبل أيضاً.

وهبطت الطائرة في السادسة تقريباً قبل المغرب بتوقيت نيروبي المماثل لتوقيت بلادنا.

ولم أكن حصلت على سمة دخول إلى كينيا، لأن سفارة كينيا في الرياض وأنا في مكة المكرمة وكان الوقت ضيقاً على إرسال جوازي إلى هناك، إلا أن المعتاد في أكثر المطارات التي يمر بها الناس أنه يمكن الحصول على سمة دخول للمرور لمدة ٢٤ ساعة بسهولة.

وهكذا كان، فقد منحوني في المطار سمة دخول بسرعة دون توقف منهم، لزيارة وليس لمرور وكنت طلبت من موظف في مكتبي في الرابطة أن يحصل لي على فندق في وسط مدينة نيروبي أقضي فيه الليلة لأنني مسافر عابر فأخبروني أن الخطوط السعودية أبرقت لممثلها هناك بذلك. وقد رحب بي ممثلها بالفعل وسار معي حتى خرجت من منطقة الجمرك ولم يفتشوا أمتعتي بسبب جوازي السياسي.

ثم تولت أمري موظفة إفريقية في مكتب الخطوط السعودية وذكرت أنها حاولت أن تجد لي غرفة في فنادق الدرجة الأولى فلم تستطع، لأنها كلها مليئة وإنما توجد في فندق إمبسادور وهو من ذوات النجوم الأربع لا الخمس وإنه لا يوجد غيره.

وظني أن الأمر ليس كذلك، وإنما هو لكونها تريدني أن أسكن في ذلك الفندق.

وأركبوني مع سيارة أجرة دفعوا أجرها إلى فندق امبسادور، قال لي السائق الإفريقي الشاب: أهذه أول مرة تزور فيها نيروبي؟

فقلت له: لا، إنها المرة العشرون. فتعجب من ذلك، وقال: متى زرتها أول مرة؟ قلت: كم عمرك الآن؟ قال: ٢٦ سنة، قلت: كانت زيارتي الأولى قبل أن تولد، إذ مضى عليها ٢٧ سنة!

في مدينة نيروبي:

كان أول ما واجهني في فندق امبسادور أن المصعد أغلق عليّ أنا والفراش الذي يحمل حقيبتي داخله فلم يرتفع، ولم يمكننا فتح بابه والخروج منه، وليس فيه هاتف، وإنما جعل الفراش يضرب بابه بيديه كلتيهما بكل قوة ويصيح، حتى جاء موظف مختص، وأخرجنا منه فتنفسنا الصعداء في الهواء المفتوح.

ثم حمل حقيبتي مع درج عال إلى الطابق الثاني وهو يلهث، حتى أدخلني في غرفة ذات أثاث يعادل أثاث الدرجة الثالثة.

وكان كل ما فيها يحتاج إلى ترميم حتى مقابض أبواب الحمام لا تعمل.

وجددت عهداً بنيروبي الجميلة أو التي كانت جميلة جداً بالنسبة لما كنت أعرفه من المدن قبل ربع قرن أو يزيد، فذهبت إلى مقهاة (نيوستانلي) التي كانت المقهاة النظيفة الجميلة التي كنت أذهب إليها أقضي فيها بعض الوقت حينذاك، وكان يرتادها البيض من الأوروبيين ونظمت فيها قصيدة، ذكرت بعضها في كتاب «في إفريقية الخضراء».

كما زرت قلب المدينة التجاري الحديث الذي كان الإنكليز يسمونه (هاف لندن) أي نصف لندن، وما يزال جيداً معتنى به.

كما خرجت من هذه المنطقة، التي كانت مخصصة للبيض، في زمن الإستعمار الإنكليزي لا يسكنها - عرفاً - وأحياناً قانوناً غيرهم إلى المنطقة

التي كان يسكنها الهنود والعرب وهي مجاورة لها من جهة الشرق، وتسمى منطقة «ريفررود» وكنت سكنت في فندق فيها اسمه (شان هوتيل) كان مديره أخاً عربياً ربما من حضرموت اسمه محمد سعيد، فكنت أسكن في فندقه، وأودع عنده مبالغ ضخمة من الأموال التي كنت أحملها لتوزيعها في أنحاء إفريقية وكان يسكن في الطابق الأعلى من الفندق، فكان يأخذ مني النقود، فيضعها عند زوجته العربية ثم يعيدها إليَّ سالمة ـ جزاه الله خيراً ـ وذلك لكون ذلك الفندق لا يؤمن على النقود فيه. فهو من فنادق الدرجة الثالثة، ولكن في أسفله مطعم عربي وأهله كلهم من العرب.

وأردت العشاء فخيرني الموظف بين مطعمين في فندق امبسادور أحدهما هندي ذكر أن الفلفل في طعامه كثير، والآخر فيه طعام إنكليزي كما أسماه، وقد اخترت الأخير وتعشيت فيه وكان رواده بالدرجة الأولى من الإفريقيين، وفيهم قلة من السياح الأوروبيين.

وأردت النوم استعداداً لسفر طويل غداً ولتحرك كثير بعده، فلم أستطع لأن تحت نافذتي موقفاً واسعاً لعدد ضخم من الحافلات كان أصحابها ينادون عليها يبينون للناس الأماكن التي تتجه إليها ليركبوا معهم.

وكان هناك موسيقى صاخبة راقصة لم تتوقف إلا قرب الفجر ربما كانت من حانة مجاورة، وكنت أحسست البارحة وأنا في مكة بزكام لم أشعر بمثله منذ مدة طويلة، فلم أنم لحظة واحدة.

يوم الثلاثاء ٢٧/ ٣/ ١٤١١هـ.

صباح نيروبي:

لم يكن هذا الصباح في نيروبي منعشاً، بل كان ثقيلاً أسفر بعد سهر وزكام، فنزلت في السادسة والنصف أبتغي الهروب من الغرفة المملة، وأبتغي فنجاناً من الشاي على محيا وجه أسود، ولكن حتى هذا لم يحصل، فقد رأيت المقهاة التي كانت مطعماً البارحة موصدة الأبواب، وذكروا أنها تفتح في السابعة.

فخرجت إلى الشارع حيث محطة وقوف الحافلات فرأيت جماهير من الشعب الكيني قد بكرت للذهاب إلى أعمالها، وكلهم عليه الطابع الإفرنجي في اللباس والتصرف وهم كما عهدتهم من قبل على حالة جيدة من حسن التصرف مع الناس، إلا أنني لاحظت أن مظاهر الحاجة والعوز وأمارات قلة التغذية قد زادت عما كانت عليه في الماضي إلاً إذا كان ذلك من تأثير ارتفاع مستوى المعيشة عندنا، وعند أقوام آخرين رأيتهم في أنحاء العالم، وقد راقبت كثيرين منهم طال وقوفهم قبل أن تصل الحافلات التي يريدونها. ولم أر بين الواقفين أحداً من البيض أو الملونين.

وحسن التصرف رأيته في إدارة الفندق منذ أن وصلته فليس فيه من أحد

غير الإفريقيين وهم يؤدون عملهم بشكل جيد، إلا أن الملاحظ أن الآلات الحاسبة مثلاً لم تكن متوفرة في مكتب صندوق الفندق.

ثم عدت إلى المقهاة التي فتحت بعد لأي.

وأسرعت بعد ذلك الخروج إلى المطار لأن الطائرة التي سأسافر عليها إلى جوهانسبرج ستقوم في العاشرة والربع ضحى.

إلى جمهورية جنوب إفريقية

من نيروبي إلى جوهانسبرج:

عندما وقفت أمام مكتب شركة الخطوط الهولندية المعروفة اختصاراً باسم (ك ل م) كان فيه فتاة آسيوية غير مجربة أخذت تبحث في جوازي عن سمة دخول إلى جنوب إفريقية وتقول: أين سمة الدخول؟

فقلت لها: إن كل الناس يعلمون أن مناطقنا وأكثر مناطق إفريقية والعالم لا توجد فيها سفارات أو ممثليات لجنوب إفريقية، لأن الناس يقاطعونها بسبب سياستها في التفريق العنصري. فلم تقتنع وجاءت بموظفة أكبر منها فقلت لها: إن سمة الدخول موجودة لي في مطار جوهانسبرج وإذا رفضت جنوب إفريقية دخولي فإن معي تذكرة عودة إلى بلادي فلا تتكلف شركتكم شيئاً، فاقتنعوا بذلك.

وقالت لي الموظفة: إنه يجب أن تصرف جميع ما بقي معك من نقود كينية وكنت صرفت البارحة عشرين دولاراً فدفعت منها رسم المطار وبقي منها شيء، فذهبت إلى مصرف في المطار أنفقت فيه وقتاً طويلاً. وملأت استمارات عدة، وتعب الموظفون في إجراءات كثيرة حتى أعطوني بها دولارات.

ثم ذهبت إلى غرفة الدرجة الأولى بعد بحث طويل، فوجدتها موصدة الباب، وداخلها أناس لم يفتحوا لي ولم أهتد إلى فتحها حتى مرت موظفة من المطار ففتحت الباب بالضغط على أرقام في لوحة صغيرة بجانب الباب،

لا يعرف تلك الأرقام إلا من أخبر بها، وذلك كله من أجل ألا يدخلها إلا ركاب الدرجة الأولى، فوجدت فيها موظفتين ووجدتها مليئة بالأشربة والمأكولات الخفيفة مثل غيرها من غرف الدرجة الأولى للشركات العالمية.

وذلك ينسجم مع حالة المطار نفسه فأبواب الخروج إلى الطائرات متعددة وهي مرتبة وفق نظام جيد جداً. .

ولم أثق بأن يخبرني الموظفون هنا فشربت شيئاً ثم خرجت إلى حيث الركاب مجتمعين عند بوابة الدخول إلى الطائرة.

وقد نادى المضيفون على بعض الركاب حسب بطاقات مقاعدهم، وركبنا معشر ركاب الأولى آخر الراكبين.

استقبلتنا في الدرجة الأولى من طائرة الشركة الهولندية مضيفة كبيرة السن، ورجل في منتصف العمر، غير وجيه المنظر، وهذه عادة عرفتها عن ركاب الدرجة الأولى في الشركات العالمية، حيث يختارون لهم من المضيفين من لهم خبرة في معاملة الركاب ومجاملتهم ولا يكونون كذلك إلا إذا كانوا من كبار السن أو من المتوسطين فيه.

وذلك أن الركاب في الأولى أنفسهم لا يكونون - في العادة - من الشبان، وقد لاحظت ذلك في رحلتنا هذه التي لم تمتلء مقاعدها ولكن فيها نحو خمسة عشر راكباً.

ومن الأشياء التي لم تسرني وسمعت بها لأول مرة منهم ولم أسمعها من غيرهم أنهم سألوني عما إذا كنت أحتاج إلى أوكسيجين.

فظننت أنهم فعلوا ذلك من أجل اعتقادهم أنني كبير السن ثم تبين أنهم سألوا كل ركاب الأولى.

قامت الطائرة من مطار نيروبي في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والثلاثين متأخرة (٢٠) دقيقة عن موعدها المحدد، وهي من طراز بوينج ٧٤٧.

وأعلنوا أن الطيران سيستمر ثلاث ساعات و٣٥ دقيقة أي أكثر بقليل من الطيران بين جدة ونيروبي ثم قدموا هدية لركاب الدرجة الأولى وهي حقيبة جلدية صغيرة مليئة بهدايا صغيرة قيمة وكانت خطوطنا السعودية تعطي ركاب الأولى هدايا مثل الشركات الكبيرة، وذلك في رحلاتها الخارجية، إلا أنها تركت هذا الأمر أخيراً.

وقدموا مع هذه الحقيبة الصغيرة هدايا أخرى مثل كيس من المشمع لحمل الأشياء في اليد، ووسائد مطوية تتمدد بالنفخ فيها.

وعندما تأملت هذه الدرجة الأولى من حيث الأثاث، وأبواب الحمامات ونحوها وجدت أن الدرجة الأولى في طائراتنا المماثلة أرقى من هذه وأفخر مع أنهم سموا هذه الدرجة بالدرجة الملكية.

ثم قدموا الضيافة وجبة خفيفة لكون الوقت ليس وقت غداء.

وقد نام أكثر الركاب لعدم وجود ما يستدعي النظر من الطائرة، لأنها مرتفعة والجو غائم.

وقبل الوصول إلى جوهانسبرج بنحو ثلاثة أرباع الساعة صرت أرى مزارع وسط أرض غير خضراء وقد ألفت دائرة لكونها تسقى بطريق الرش من الري المحوري مثلما نفعل نحن في زراعة القمح.

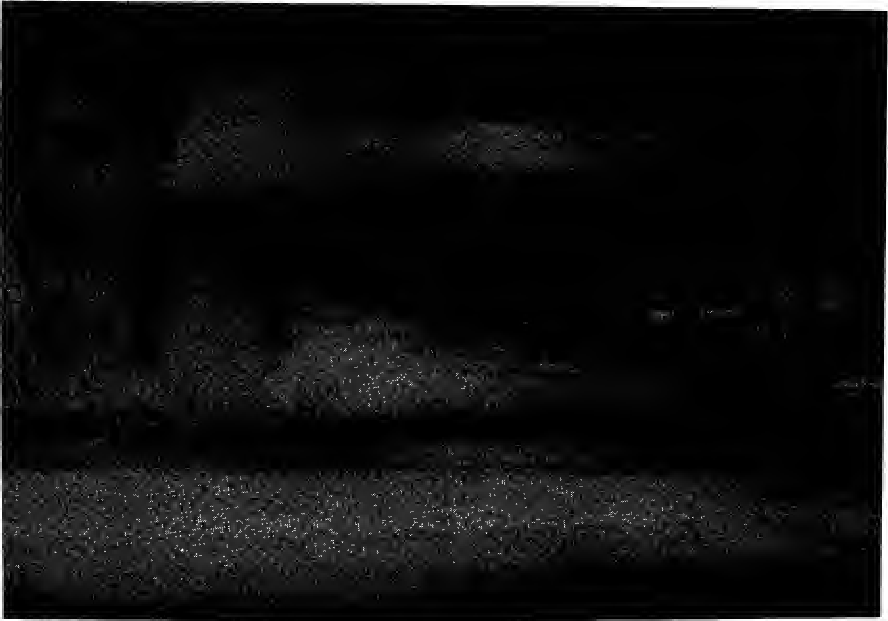
ثم وصلنا إلى منطقة معمورة بالزراعة الحقلية المعتادة، وبعد أن تدنت الطائرة قليلاً اتضح منظر الأرض الإفريقية من هذه المنطقة ربى حمر التربة معمور ما حولها بالزراعة.

وقد صار مكبر الصوت في الطائرة يكثر من الإعلانات بالهولندية ثم بالإنكليزية حتى ذكر أنظمة جنوب إفريقية في الجوازات والجمارك ونحوهما.

وللغة الهولندية في هذه البلاد موقع مهم، لأن اللغة الوطنية فيها هي

الأفريكانية وأصلها من اللغة الهولندية، وإن كانت تخالفها في بعض الأشياء وهذا بالإضافة إلى اللغة الإنكليزية التي هي لغة رسمية أيضاً، ومنتشرة في أنحاء البلاد أكثر من الأفريكانية.

وعلى مشارف مدينة جوهانسبرج صارت التربة حمراء جميلة المنظر، وانتشرت أكوام التراب الأصفر على هيئة تلال ضخمة يراها الإنسان من الطائرة في كل اتجاه وقد تكونت من إخراج التراب الذي فيه الذهب من مناجم في الأرض، إلا أن منطقة مدينة جوهانسبرج الآن قد انتهى الذهب منها، وبقيت آثاره متمثلة في هذه التلال الضخمة الكثيرة الصفراء اللون صفرة باهتة.



التلال الصفر في جوهانسبرج

البيوت والألوان:

لا أراني بحاجة إلى الإفاضة في الحديث عن سخف التمييز العنصري في جنوب إفريقية ولا أن أسوق أمثلة جديدة على ذلك فقد ذكرت ما شاهدته وما استنتجته في كتاب «مشاهدات في بلاد العنصريين» وبخاصة أن سياسة جنوب إفريقية العنصرية بدأت تتراخى نحو المساواة بين المواطنين، وإن لم يصل ذلك إلى درجة ما ينبغي أن يكون عليه الأمر، أو على الأقل مثلما عليه الأمر في الدول الغربية سواء الأوروبية منها والأمريكية.

ولكن الذي أثار هذه النقطة في نفسي ما رأيته من أحياء (جوهانسبرج) من الطائرة فبعض الأحياء ذات بيوت جيدة تلفها الحدائق، وتلمع في مسابحها الخاصة المياه، وحتى سقوفها فإنها حمر صقيلة وشوارعها مستقيمة كلها ومزفلتة.

وبعض الأحياء خلاف ذلك تجد سقوف البيوت من الصفيح، وشوارعها متعرجة لا يوجد الزفت إلا في بعضها، ولا توجد بها مسابح.

حتى الحدائق في الأحياء والتشجير في الأماكن العامة غير موجود فيها، إلا على قلة.

وذلك كله يتبع الألوان فالأحياء الفاخرة تكون للبيض تليها أحياء الملونين والآسيويين وفي أدنى الحالات تأتي بيوت السود.

ولا يمكن هنا أن نصفهم بالإفريقيين لتجنب ذكر اللون كما نفعل في إفريقيا لأنهم كلهم إفريقيون. وهم يسمون أنفسهم بالإفريقيين رغم تعدد أصولهم التي جاءت من القارة الأوروبية، أو من القارة الإفريقية خارج هذه المنطقة الجنوبية.

إضافة إلى ما هو معروف من سياسة حكومة هذه البلاد العنصرية التي

تقسم الناس حسب ألوانهم إلى أقسام أربعة: البيض وهم في القمة في كل شيء مادي وأهم ذلك التعليم، ثم الملونون وهم الذين وجدوا نتيجة لتزاوج الأوروبيين مع الماليزيين في القديم وقبل اتباع سياسة التمييز العنصري.

وفي المقام الثالث عندهم والمراد بذلك الانحدار بالمقام يأتي الآسيويون وهم الهنود الذين قدموا من القارة الإفريقية، والرابع: السود.

ولكل لون من هذه الألوان مناطق للسكن خاصة لا يجيز القانون أن يسكن فيها معه أهل لون آخر. وفي الزمن القديم أثناء استحكام السياسة العنصرية لا يجوز دخول منطقة لون إلى لون آخر إلا بإذن الشرطة، إلا ما كان من أمر السود والملونين إذا أرادوا الشراء من متاجر البيض أو الآسيويين.

في مطار جوهانسبرج:

أقبلت الطائرة إليه مسرعة وأقبلت التلال الصفر التي زرعوا أعاليها بالأشجار من أجل تثبيت التربة فيها وهي تسعى للطائرة في رأي العين، وكثر ندى الماء في جو المنطقة. مما يدل على الاستعمال الواسع للمياه فيها لري الحدائق والمزارع، واتضحت الطرق الجيدة المستقيمة الموجودة في المدينة التي تماثل أو تفوق الطرق في المدن الأوروبية، لكنها تقصر عن الطرق في المدن الأمريكية وفي المدن الكبيرة في بلادنا.

وهبطت في المطار في الثانية وخمس دقائق بتوقيت نيروبي المماثل لتوقيت المملكة وهو متقدم على توقيت جنوب إفريقية بساعة فالساعة الآن عندهم هي الواحدة و٥ دقائق.

كان أول ما فكرت فيه عند الهبوط هو الحصول على سمة الدخول التي هاتفني الدكتور محمد مومنيات مدير مكتب الرابطة في جنوب إفريقية ومقره جوهانسبرج بأنها موجودة في المطار. وكنت واثقاً من ذلك لأنني في المرة

الأولى التي زرت فيها جنوب إفريقية قبل عشر سنين وجدتها في المطار بعد أن سعى لي فيها إتحاد الطلبة المسلمين الذي كان يقيم مؤتمراً هناك وذهبت مدعواً إليه منه.

ومن جميل ما صنعوه أنهم خصصوا مكتبين من مكاتب الجوازات لركاب الدرجة الأولى وكتبوا عليها ذلك وهذا سهل الأمر، وأعفانا من الزحام، إذ ذهبت بقية الركاب إلى مكاتب أخرى عددها خمسة.

وقال لي ضابط الجوازات وهو فتى أبيض: أين (الفيزا)؟ فقلت له: إن صديقي الدكتور محمد مومنيات أخبرني أنها موجودة في المطار، فتشاور مع ضابط أكبر منه، فأخذ الكبير جوازي، وعاد به للضابط وهو يقول: لا بأس. فمنحوني سمة الدخول أو (الفيزا) في ورقة منفصلة عن الجواز من دون أن أطلب منهم ذلك.

وقد فعلوا من أجل أن يعفوني من الإحراج عند زيارة الدول الإفريقية التي لا تسمح بالدخول على جواز فيه ختم لحكومة جنوب إفريقية العنصرية.

وعند ضباط الجمرك كنت قد أعددت جوازي لأريهم إياه حتى لا يفتشوا أمتعتي. ولكنهم لم يطلبوه ولم ينظروا فيه، وإنما أشاروا إلي أن لا أقف عندهم.

فخرجت من مبنى الوصول إلى القاعة الخارجية العامة فوجدت فيها طوائف من مستقبلي المسافرين، وطوائف من الذين يعدون أنفسهم للسفر وأكثرهم من البيض وفيهم الآسيويون والسود على قلة مع أنهم هم الكثرة الكاثرة من الشعب، ولكن البيض أكثر استعمالاً للمطارات منهم.

ووجدت صديقي الدكتور محمد مومنيات مدير مكتب الرابطة هنا في استقبالي.

فانطلق بسيارته التي يقودها بنفسه مع الطريق الرئيسي القاصد من المطار إلى المدينة وهو جيد ذو قسمين منفصلين أحدهما للذاهب والثاني للآيب وكل واحد منهما يتسع لسير ثلاث سيارات في آن واحد.

ودفع رسماً للخروج من المطار كما في المدن الأمريكية، ثم سار مع زحام من السيارات التي أكثرها سيارات الركوب الصغيرة.

في حي لينيشيا:

سار الدكتور مومنيات بسيارته طويلاً حتى وصل إلى حي (لينيشيا) وهو حي للآسيويين لا يجوز أن يساكنهم فيه غيرهم، وهو أرقى من الأحياء الراقية في المدن الهندية.

وقد ألفيت الحي حياً جيداً بل راقياً مؤلفاً كله من دارات (فيلات) جميلة، وفيه الحدائق والأشجار الجيدة إلا أنها ليست بالغة الإرتفاع لأن الحي حديث نسبياً.

ويبلغ سكان هذا الحي ١٢٠ ألف نسمة نسبة المسلمين منهم ٦٠٪ فالمسلمون يؤلفون الأكثرية فيه، ولذلك بلغ عدد المساجد فيه أحد عشر مسجداً. أما الأربعون بالمائة الباقون فأكثرهم هنادكة ومعهم قليل من المسيحيين من جنوب الهند، وذكر لي الدكتور مومنيات من الفرق بين الهنادكة والمسيحيين أن الهنادكة هنا لا يسعون إلى معرفة الإسلام فلا يطلبون الحصول على المعرفة، بخلاف المسيحيين الذين كثيراً ما يطلبون كتباً أو نشرات تتحدث عن الإسلام.

قصدنا أول الأمر شركة سياحية أهلها مسلمون، في العادة التي يتبعها الدكتور مومنيات أنه لا يؤثر في تعامله أحداً على المسلمين.

وفي هذه الشركة ثلاث فتيات ورجل يعملون فيه قال: كلهم مسلمون.

وذلك واضح عليهم من الإشراق في وجوههم، وهم في سن الشباب يكونون الجيل الثالث من الهنود الذين هاجروا إلى إفريقية لذلك ذهبت عنهم قترة أهل الهند والتفاوت بين من يشبع منهم ومن يجوع في حجم الجسم، لأن الغني في الهند يأكل أكثر مما يحتاجه من الأكل الدسم الثقيل، فيثقل جسمه، والفقير يجوع، ولا يداوي ما يتعرض له من مرض فيهزل جسمه وينحف.

كما أن الجو في جنوب إفريقية أكثر اعتدالاً من أكثر أنحاء الهند فالحر خفيف والبرد ليس شديداً، والخيرات وافرة، والعمل ميسور للجميع.

وذكر الدكتور مومنيات من أعمال هذه الشركة السياحية أنها تنظم رحلات لأداء العمرة في مكة المكرمة. ثم دخلنا صيدلية لأحد الإخوة الصيادلة المسلمين وهي كبيرة حافلة بالأدوية قسم كبير منها مما يصنع في جنوب إفريقية.

وطلبت دواء لتأثر الأنف والحلق بسبب الزكام فأعطاني العلاج ولم يقبل أن يأخذ قيمته عندما أخبره الدكتور مومنيات بإسمي وأنني من مكة المكرمة، وبهذه المناسبة ذكر لي الدكتور مومنيات وهو طبيب أن عدد الأطباء المسلمين في حي لينيثيا هذا ثمانون وعدد الأطباء من غير المسلمين (٥٠).

ثم دخلنا المنطقة التجارية للحي وهي حافلة بالبضائع، والمتسوقون فيها كثير والدكتور مومنيات يحرص على أن يريني المحلات فيها ويقول: إنها لإخوتنا المسلمين.

ثم دخلنا مطعماً نظيفاً مكتوباً عليه كلمة (حلال) بحروف عربية بارزة، وقد اتخذت هذه الكلمة (حلال) مدلولاً خاصاً عند الإخوة المسلمين من أصل هندي للحم الذي ذبحه مسلمون وهم يتشددون في ذلك فيحرصون على (الحلال) ولو كانوا يعيشون في بلاد مسيحية، جرياً على عادتهم في التحرز في أمور دينهم.

ثم ذهبنا إلى (جامع نور الإسلام) الشهير بمناراته الشامخة وساحاته الواسعة. ومظهره المتميز الذي يوحي بأن هذا الحي هو حي إسلامي، وهو جزء من مدينة إسلامية وإن كان الأمر بخلاف ذلك وإنما هو حي أغلبيته مسلمون.



جامع نور الإسلام في جوهانسبرج

وكان المرور بجامع نور الإسلام من أجل أداء صلاة العصر، وإلا فإنني لم أكن أحمل (مصورة) ولا أقنع بالمرور العابر عليه وإن كنت رأيته في زيارتي السابقة.

فلم يرض أخي الدكتور مومنيات إلا بأن أمر على المدرسة الملحقة بالمسجد فرأيت أولاد المسلمين من بنين وبنات يدرسون فيها في جو مسلم محتشم وعليهم النضارة وصفاء اللون، وملابسهم في غاية النظافة والستر.

ثم نزلنا من المدرسة في الطابق الثاني لصلاة العصر وكان الناس يتوضؤون من محلات للوضوء نظيفة والذي سرني أن عدداً من أبناء المسلمين كانوا يتوضؤون لحضور صلاة العصر جماعة مع الكبار.

دار الضيافة:

من عادة الإخوة المسلمين في الهند إذا جاءهم ضيف مسلم أن يحرصوا على إسكانه في أحد بيوتهم إذا لم يكن عند مضيفه متسع له في بيته فإنه ينقل أهله إلى أحد بيوت المسلمين، ليسكن ضيفه عنده. وكنا عهدناهم في أول عهدنا بالمؤتمرات الإسلامية التي تقام في الهند يوزعون الحاضرين إلى المؤتمرات على بيوت المسلمين ويكون طعامهم جماعياً على هيئة دعوات إلا ما يتعلق بالشاي أو الفطور فيكون في البيوت.

وأشهر ما علق في ذهني من هذا الأمر المؤتمر الذي عقدته (جامعة دار السلام) في عمرآباد في جنوب الهند وكانت البلدة صغيرة وليس فيها فنادق فوزعونا على بيوت المسلمين نسكن فيها وخرج منها أهلها وكان نصيبي أن كنت مع صديقي الشيخ عبد الله بن سليمان المنيع الذي يشغل الآن عضو محكمة التمييز في المنطقة الغربية من بلادنا. والشيخ محمد بن إبراهيم القعود أن كنا في بيت واحد.

ثم إن الإخوة المسلمين من أهل الهند قد صاروا يلحقون في المساجد إذا بنوها غرفة أو غرفتين يسمونها (مسافر خانه) أي خان المسافر والمراد بذلك منزل المسافرين المسلمين، وفعلوا كذلك في مهاجرهم إلا أنهم يحددون الضيافة فيها بمدة معينة مثل أن تكون يوماً واحداً مع الطعام وثلاثة أيام بالمجان لكن لا يقدم فيها الطعام، وما زاد عن ذلك يجب على الضيف أن يدفع عنه أجرة أو يغادر المكان يخليه لضيف مسلم آخر.

ولذلك عندما قلت للأخ الدكتور مومنيات: إنني أود الذهاب إلى الفندق قال: إن قلب المدينة بعيد، ونحن سنغادر المدينة في الرابعة والنصف فجراً إلى المطار، ولم يبق إلا سواد هذه الليلة لذلك سوف تسكن في غرفة في بيت نظيف لأختي وزوجها وهما الآن غائبان في إجازة في (سوازي لاند) وليس في البيت أحد إلا رجل يعمل ويحضر في وقت متأخر. ثم ذهبت إلى بيته حيث أحضر الطعام جزاه الله خيراً، ومن هناك إلى غرفة في الطابق الثاني من هذا البيت الخاص.

والغرفة على غاية من النظافة مثل سائر البيت الذي هو مفروش كله حتى الدرج بالبساط الموحد (الموكيت) ومؤثث أثاثاً عصرياً جميلاً لا يقل مستواه عن مستوى فنادق الدرجة الأولى.

ويقع في منطقة هادئة من حي (لينيشيا) هذا.

إلغاء العنصرية في المحلات العامة:

قبل أن يودعوني لأستريح وأنام أخبروني بخبر سار وهو أن حكومة جنوب إفريقية العنصرية قد ألغت اعتباراً من يوم أمس قانون العنصرية فيما يتعلق بالأماكن العامة فصار من حق أي لون - على حد تعبيرهم حيث يقسمون الناس على حسب ألوانهم، وليس على حسب أعمالهم - أن يسكن في أي مكان يعجبه من المساكن المخصصة للألوان الأخرى.

كما أن من حق السود وغيرهم أن يدخلوا المحلات العامة التي كانت مخصصة للبيض وحدهم، كالمطاعم والمدارس والجامعات.

وذلك كله اعتباراً من أمس، وقال لي الإخوة مجاملين إن هذا اليوم الذي وصلت فيه إلى جنوب إفريقية هو اليوم الأول الحقيقي لتطبيق هذا القرار الذي نرجو أن تتبعه قرارات أخرى نحو إلغاء العنصرية القانونية التي كانت هي سبب البلاء والمتاعب في جنوب إفريقية، إضافة إلى مخالفتها الصريحة لما أمر الله به ورسوله.

ناميبيا

حصلت (ناميبيا) على استقلالها في شهر مارس عام ١٩٩٠م، وبعد استعمار استمر ٧٥ عاماً من الألمان والإنكليز ثم سكان جنوب إفريقية البيض، وهي بلاد واسعة تزيد مساحتها على (١,١٤٠,٠٠٠) كيلومتر مربع وبهذا تكون أوسع من بريطانيا وألمانيا الغربية وإيطاليا مجتمعة.

وهي بلاد قليلة السكان إذْ يصل عدد سكانها إلى مليون وخمسمائة ألف نسمة، وبذلك تعتبر من أقل البلدان سكاناً في العالم حيث أن متوسط عدد السكان في كل كيلومتر مربع هو ١,٣ تحدها من الشمال أنغولا وزامبيا، ومن الجنوب جمهورية جنوب أفريقيا، ومن الشرق بتسوانا وزمبابواي، ومن الغرب المحيط الأطلسي.

ويتألف سكان ناميبيا من سبع جماعات عرقية رئيسية من السكان، تتحدث العديد من اللغات التي تؤلف مجموعة غريبة في بابها.

وبعض القبائل أو الجماعات البشرية في (ناميبيا) مثل (البوشمن) أصيلة السكن في ناميبيا يقال: إنها كانت موجودة منذ مدة لا تقل عن خمسة عشر ألف سنة.

وكما أن لسكان ناميبيا هذا التنوع فكذلك لأرضها، إذْ تمتد فيها صحراء جرداء غير مأهولة تسمى صحراء ناميبيا تمتد على امتداد ساحل المحيط الأطلسي وتتوغل في داخل البلاد.

أما هضبة ناميبيا في الوسط فإنه يتراوح ارتفاعها ما بين ١٠٠٠ إلى

١٥٠٠ متر وتلتقي في نهايتها بصحراء كلهاري التي تقع في شرقي البلاد وتشترك معها بتسوانا في تلك الصحراء.

وتحوي أرض ناميبيا مخزوناً كبيراً من الحمامات المعدنية، وتستوعب المدن الرئيسية نحو ٣٠٪ من السكان، وأما بقية السكان فإنهم مبعثرون في أنحاء البلاد ويتركز أغلب السكان الوطنيين في الشمال.

وأغلب الأراضي الصالحة للزراعة يستغلها ملاك من البيض، أما الوطنيون فيعيشون حياة قاسية من تكاليف المعيشة المرتفعة.

فعلى سبيل المثال يبلغ متوسط دخل الفرد الأبيض ١٢ ضعفاً بالنسبة إلى دخل الفرد الأسود، وفي المناطق الريفية يرتفع الرقم ليبلغ ٢٥ ضعفاً.

ومع ذلك تعتبر ناميبيا متقدمة اقتصادياً بالنسبة إلى المستوى العام لأقطار إفريقية الجنوبية، حيث أن دخل الفرد الناميبي أعلى منه في دخل الفرد في أي بلد آخر في تلك الأقطار باستثناء جمهورية جنوب إفريقية العنصرية.

ويرتكز اقتصاد ناميبيا على ثلاثة أشياء هي التعدين والزراعة وصيد الأسماك، والتعدين أهم قطاع اقتصادي من ناحية إسهامه في إجمالي الاقتصاد الوطني، ويعمل في الزراعة أكثر من ٥٠٪ من القوة العاملة المتوفرة.

وأما صيد الأسماك رغم استغلال مياه الشواطىء الطويلة لناميبيا من أساطيل الدول الأجنبية فإنه يتوقع أن يكون له دور رئيسي في اقتصاد البلاد بعد أن نالت استقلالها.

وعلى وجه العموم هناك فرص اقتصادية كبيرة متاحة أمام هذه البلاد إذا تيسر استغلالها وذلك يحتاج إلى المزيد من المال والمزيد من الأيدي الماهرة المدربة.

تاريخ ناميبيا:

أُغلنت (جنوب غرب إفريقية) محمية ألمانية في عام ١٨٨٤ ويلاحظ التأثير المتوارث من النفوذ الألماني بدرجة كبيرة في الفن المعماري القديم للعديد من المباني وفي العادات والتقاليد.

وأثناء الحرب العالمية الأولى طلبت الدول المتحالفة من اتحاد جنوب إفريقية احتلال جنوب غربي افريقيا الألمانية.

وفي السابع والعشرين من ديسمبر ١٩٢٠م أعلنت عصبة الأمم أن جنوب غرب إفريقية التي أصبحت ناميبيا بلد إنتداب من الدرجة «ج» وعهدت إلى جمهورية جنوب إفريقية أمر إدارة جنوب غربي إفريقيا وفق قانون جنوب إفريقية.

وعندما حلت الأمم المتحدة محل عصبة الأمم، رفضت جنوب إفريقية أن تعيد البلاد تحت وصاية الأمم المتحدة الأمر الذي شكل بداية صراع طويل مرير حول جنوب غربي إفريقية (ناميبيا الآن).

وقد استمرت المفاوضات بين الأمم المتحدة وحكومة جمهورية إفريقية العنصرية الطويلة ولم تصل إلى نتائج حاسمة وتدخلت أحياناً المنظمات الأخرى مثل محكمة العدل الدولية محاولة إيجاد حل ما. ثم تجمع في عام ١٩٧٥م ممثلون لكل الجماعات الإقليمية في مؤتمر دستوري في تيرتهل في وندهوك، وبعد عام تقريباً من ذلك التاريخ قرر المؤتمر وجوب تشكيل حكومة مؤقتة تضم مختلف الأعراق مع وجوب حصول البلاد على استقلالها في نهاية عام ١٩٧٨م.

لكن لم تُخظَ هذه الإقتراحات بموافقة مجلس الأمن الدولي مما استدعى إجراء المزيد من المفاوضات بين كل من الأمم المتحدة وجمهورية

جنوب إفريقية ومنظمة شعوب جنوب غربي إفريقية ودول جنوب إفريقيا الأخرى تسمى بدول المواجهة التي أخفقت جميعاً في أن تتوصل إلى حكم مقبول لمسألة الإستقلال.

وعُقدت سلسلة من الإنتخابات في البلاد لكنها لم تَلْقَ التأييد التام من كل الناس. وتمّ انتخاب جمعية تأسيسية في عام ١٩٧٨م لم تتمكن من الإستمرار في إعداد الدستور نظراً للضغط الدولي لكنها حولت في مايو ١٩٧٩م إلى برلمان وطني.

وبعد عام من ذلك تمَّ تكوين مجلس للوزراء من اثنى عشر وزيراً ومنح صلاحيات تنفيذية في كل المسائل باستثناء السلطات الدستورية والأمن والسياسة الخارجية، وفي يناير ١٩٨٣م حُلّ كل من البرلمان الوطني ومجلس الوزراء وانتقلت صلاحياتهما إلى مسؤول إداري عام.

لقد شهد هذا العام والعام الذي جاء بعده تكوين مؤتمر مختلف الأحزاب والمحادثات بين منظمة شعب جنوب غرب إفريقية بمختلف الأحزاب وبين المسؤول الإداري العام وثبت عدم جدواها.

رفع مؤتمر مختلف الأحزاب التماساً إلى جمهورية جنوب إفريقية، بمنح البلاد نوعاً من الحكم الذاتي وفي يونيو ١٩٨٥م كونت حكومة الوحدة الوطنية المؤقتة من ست من الجماعات السياسية الأعضاء في مؤتمر مختلف الأحزاب.

في مايو ١٩٨٨م اقترح إجراء مفاوضات دولية بين أنغولا وكوبا وجمهورية جنوب إفريقية على أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بدور الوسيط فيها.

ونتج عن ذلك أن وقعت في عام ١٩٨٨م (بروتوكول) جنيف و(بروتوكول) برازافيل والإتفاقية الثلاثية التي نصت على جدول زمني لسحب

القوات الكوبية من أنغولا وقوات جمهورية جنوب إفريقية من ناميبيا مع تنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ٦٣٢ الذي يشمل رسم خطة جديدة شاملة للتسوية في ناميبيا. ثم منحت البلاد استقلالها رسمياً في مارس ١٩٩٠م.

مدينة وندهوك:

مدينة وندهوك هي عاصمة ناميبيا وأكبر مدينة في البلاد حيث يبلغ تعداد سكانها (١١٢٠٠٠) نسمة ووصل هذا العدد أخيراً إلى ١٢٥٠٠٠ نظراً لاستقلال البلاد الذي أدى إلى هجرة كبيرة من الريف إلى العاصمة وتقع مدينة وندهوك على هضبة داخلية ارتفاعها ١٧٠٠ متر فوق سطح البحر ومحاطة بجبال أواز في الجنوب وإيروس في الشمال وخوماس هوكلاند في الغرب.

ومناخ المدينة صحراوي نهاره يميل للحرارة وليله يميل للبرودة ومتوسط درجات الحرارة في الصيف يتراوح ما بين ١٦ـ٣٤ درجة مئوية.

أما في الشتاء فإن الدرجة العظمى تبلغ ٢٢ درجة. والدنيا ٦ درجات، وهدا في المتوسط، وقد تنخفض في بعض الحالات إلى أقل من ذلك.

وفي الشتاء يكون شامساً في العادة وبارداً، وتكون السماء خالية من السحب، وأكثر الفترات التي يتمتع فيها الناس بإشراق الشمس تكون في شهر أغسطس، لأن فصل الشتاء يكون فيها هو فصل الصيف في الأقطار الواقعة شمال خط الإستواء مثل بلادنا، فشهر أغسطس هو أشد الشهور في ناميبيا برداً.

وكما يعرف شهر أغسطس بكونه تطيب فيه الشمس، فإن شهر نوفمبر هو أقل الأشهر مطراً فالأمطار تهطل في أغلب الأحيان في شهري يناير وأبريل. لكن معدل التبخر السنوي يزيد عشر مرات عن متوسط هطول الأمطار.

ومع أن عاصمة البلاد اسمها (وندهوك) ويدل اسمها (WIND) على الريح فإنها لا تشتد فيها العواصف، فسرعة الريح التي تقل عن سبع عقد في الساعة هي التي تسود في أكثر فصول العام.

ولذلك ينبغي التنبه إلى أن أصل اسم المدينة هو (VINT HUK) وليس WIND HOEK.

فقد أسست مدينة هوك في أول الأمر لوجود شيء مهم في هذه البلاد، هو الماء، ففي عام ١٨٤٩ استقر زعيم جماعة أورلام جوتكر أفريكانا على أقوى ينبوع من الماء في المنطقة التي تعرف حالياً باسم (لكيتي وندهوك).

وهنالك احتمالات لاشتقاق كلمة (فنت هوك) وكلاهما مرتبط باسم جونكر أفريكانا نفسه. فربما يكون الاسم قد اشتق من جبال فنت هوك في تولباغ حيث ولد أو من اسم المزرعة المسماة فنت هوك بالقرب من كلور المنطقة التي انحدر منها أسلافه.

وجاء المبشرون عقب ذلك بسرعة وبدأت فنت هوك أو (وندهوك) تتطور وتزدهر ببطء لكن الحروب القبلية التي وقعت في الفترة ما بين ١٨٧٠ـ١٨٧٩م دمرت كل أثر لازدهار المدينة.

وفي عام ١٨٩٠م أرسلت ألمانيا قوات حماية تحت قيادة الرائد كيرت فوت ڤرانسوا لحفظ القانون والنظام. فأسس كيرت فرانسوا حاميته في مدينة (وندهوك) حيث عملت الحامية كمنطقة محايدة بين الجماعات المنتمية إلى قبيلة هيريرو والتاماز المتحاربين.

وفي السنوات الخمس عشرة التي أعقبت ذلك بدأت (وندهوك) تزدهر مرة أخرى حيث وصلها المستوطنون وأسست فيها المباني والمزارع، وأصبحت المزارع المحدودة النطاق أحد المظاهر البارزة في المدينة رغم الجو القاري وموجات الأمراض المتكررة.

ثم انتهت فترة الإستعمار الألماني في الحرب العالمية الأولى عندما احتلت قوات جمهورية جنوب إفريقية (وندهوك) نيابة عن بريطانيا.

أما في السنوات الثلاثين التي جاءت بعد ذلك فإن المدينة نمت وازدهرت ولكن بمعدل بطيء نظراً لعدم توفر المال اللازم ولكن بعد الحرب العالمية الثانية زادت التنمية الإقتصادية بسرعة أكبر وازداد عدد السكان بنسبة مضطردة.

أما اليوم فإن (وندهوك) تعتبر مدينة مزدهرة ومزودة بالبنيات الأساسية ومرافق الحياة الحديثة.

اللغة:

هنالك لغتان رسميتان هما الإنجليزية والأفريكانية (وهي لغة مطورة من اللغة الهولندية ويتحدث بها الناس في جنوب إفريقيا) ولكن اللغة الألمانية لا تزال تستخدم في بعض أنحاء البلاد، وهنالك لغات إفريقية كثيرة أصيلة والناميبيون عادة يستطيعون التفاهم بواحدة من اللغات الرئيسية وسيأتي في اليوميات شيء من الكلام على (اللغات في ناميبيا). وأن هناك إحدى عشرة لغة معترفاً بها غير اللغات المحلية الأخرى.

ويساهم قطاع التعدين هناك بحوالى الثلث في إجمالي الناتج المحلي وأكثر من ٨٥٪ من إجمالي السلع التي يتم تصديرها من البلاد. لذلك فإن الحكومة الوطنية تركز بعد الاستقلال على استغلال الثروات المعدنية في البلاد حيث ستمثل الإيرادات من النقد الأجنبي التي يحققها هذا القطاع أكثر العناصر أهمية في إعادة بناء وتنمية الاقتصاد الوطني لناميبيا.

الإسلام والحركة الإسلامية في ناميبيا:

دخل الإسلام ناميبيا من جمهورية جنوب إفريقية منذ نحو ٤٠ عاماً بسبب وجود بعض مواطني جنوب إفريقية في أعداد قليلة جداً لكنه لم ينتشر لأسباب منها قصور الدعاة المسلمين وتبعثر السكان في مساحات شاسعة وتحكم الرجل الأبيض في مصير البلاد آنذاك ويبلغ عدد المسلمين في ناميبيا حوالى ٧٥٠ شخصاً من أصول عرقية متعددة ينتمي أكثرهم إلى القبائل الرئيسية الموجودة هناك.

ولا توجد جمعية إسلامية معترف بها في ناميبيا عند وصولنا إليها وقد حاولنا أن نحمل بعض الإخوة المسلمين الذين لهم وزن في الدولة على سرعة البت في تأليف جمعية إسلامية رسمية تكون لها صفة قانونية في البلاد حتى تجمع الأموال وترسل إليها المساعدات وسيأتي ذكر ذلك في اليوميات إن شاء الله.

ويوجد مركز إسلامي صغير في حي ناءٍ كان مخصصاً لسكنى السود فيه مسجد ومكتبة صغيرة زرناهم وصلينا معهم صلاتي العصر والمغرب ويشرف عليه إخوة من المسلمين الجدد الذين ليس لهم نفوذ كبير يستطيعون به أن يستحصلوا الأموال، ويبنوا المساجد ولكن ذلك لا يمنع من تقدير عملهم العظيم. نسأل الله أن يثيبهم، ولا شك أنهم وأمثالهم هم الذين ينتظر أن ينتشر

الإسلام على أيديهم، لا سيما أنهم من الذين يمثلون غالبية السكان في البلاد ولكنهم يحتاجون إلى مؤازرة ومساندة.

إن المسلمين في ناميبيا يتوقعون أن يشهد الإسلام هناك نمواً وتطوراً من حيث انتشاره في هذه الدولة الوليدة لكونه دين الفطرة، ولكون الفرصة قد أتيحت الآن لنشره بين الناس.

وكان الأخوة المسلمون في القوة التي أوفدتها الأمم المتحدة إلى هناك لتقديم المساعدة لناميبيا خلال الفترة الإنتقالية وقد ضمت جنوداً مسلمين من باكستان وبنجلاديش وكينيا ودول أخرى كان لهم دور في إفهام المواطنين هناك الذين اختلطوا بهم شيئاً من مبادىء الإسلام لأن الإلتزام الإسلامي من بعض أفراد هذه القوات قد ترك أثراً طيباً في نفوس الذين تعاملوا معهم حتى أن الكتيبة الكينية قررت أن تقوم ببناء مسجد هناك قبل أن تنسحب مع بقية قوات الأمم المتحدة. وعندما زار الملاكم العالمي المسلم محمد علي كلاي ناميبيا في عام ١٩٨٣م أسلم على يده ٢٢ من الشباب المسلم المتعلم في ناميبيا. يضاف إلى ذلك نظرة الوطنيين إلى المسيحية وربطها بالممارسات العنصرية وغيرها من الأعمال الشنيعة التي قام بها البيض المتعصبون هناك للرجل الأبيض.

وهناك اهتمام قوي من مسلمي جمهورية جنوب إفريقية بإخوانهم وأخواتهم مسلمي ومسلمات ناميبيا حيث تقوم وفود من هناك بصفة مستمرة بزيارة ناميبيا لإعلان التضامن مع المسلمين هناك وللحصول على معلومات جديدة عن احتياجات العمل الإسلامي في ناميبيا بعد الإستقلال.

ولا شك أن المبادرة بتعضيد العمل الإسلامي هناك من الجهات والمؤسسات الإسلامية ذات الإمكانات كرابطة العالم الإسلامي أمر مهم جداً للمسلمين في هذه المرحلة.

وسوف نبذل جهدنا إن شاء الله في ذلك، وفي شرح أحوال الإخوة المسلمين والإمكانات الكبيرة للعمل الإسلامي في هذه البلاد بغية تعاون المؤسسات الإسلامية في هذا الأمر والتنسيق فيما بينها.

والحاجة ماسة الآن لشراء قطعة أرض لإقامة مسجد كبير في كل مدينة من المدن الثلاث الرئيسية هناك وهي (ويندهوك) العاصمة و(سواكوبمون) و(وولفزبي) لتكون في خدمة الأمة الإسلامية المتنامية هناك.

إن انطلاق الدعوة الإسلامية هناك يمكن أن يحقق الكثير إذ أنه بالإمكانات المحدودة الحالية يدخل في الإسلام أناس جدد ومنهم من يعتنق الإسلام من خلال الدعوة عن طريق الهاتف لمن لا يستطيع الوصول إلى مقر المركز الإسلامي الحالي.

كما أن من المهم جداً المبادرة بتقديم منح دراسية للمسلمين الجدد حتى يعودوا إلى بلادهم بعد تحصيلهم العلمي دعاة أصلاء وهذا من العلاج الذي يحتاج إلى وقت حتى يؤتي ثماره.

والعلاج العاجل هو إرسال عدد من الدعاة من الإخوة الأفارقة الذين يجيدون الإنكليزية أو الأفريكانية ويستحسن أن يكون بعضهم من مواطني جمهورية جنوب إفريقية المجاورة ومن الدول الإفريقية الجنوبية المجاورة.

ويوجد الآن ٤ تجمعات للمسلمين في ناميبيا وهي كالتالي:

- **التجمع الأول** في العاصمة ويندهوك.
- **التجمع الثاني** في مدينة اوشكاني وتقع على بعد ٧٢٥كم من العاصمة وفي هذه المدينة تاجر وطبيب مصري وبعض الدعاة من مصر والصومال حيث أسسوا فيها مسجداً يتسع ١٠٠ مصلّ. ويبلغ عدد المسلمين في هذه المدينة ٥٠ ـ ٧٠ مسلماً.

- **التجمع الثالث** للمسلمين في مدينة وولفزباي وهي الميناء الرئيسي للدولة وتبعد عن العاصمة ٤٢٥كم وقد بدأ الإسلام في هذه المدينة كسابقتها عن طريق تاجر مسلم من جنوب إفريقيا من أصل هندي حيث بدأ ببناء مسجد كبير يتسع لحوالى ٤٠٠ مصلّ وقد تم الإنتهاء منه عام ٩٤م ويقدر عدد المسلمين في هذه المدينة ٦٠ ـ ٨٠ مسلماً.

- **التجمع الرابع** للمسلمين في مدينة كاتيما وتقع في الشمال من الدولة وتبعد بنحو ٩٠٠ كيلو عن العاصمة.

وقد دخل الإسلام هذه المدينة عن طريق الشاب المسلم أبو بكر فرانسيس حيث دعا إلى الإسلام فأسلم عدد كبير وخاصة ابن رئيس إحدى القبائل الذي كان دافعاً للكثير من الشباب للدخول في الإسلام، والغريب أن هذه المدينة ليس بها مسجد للصلاة حتى الآن.

ـ أما الحركات والأديان الأخرى في ناميبيا فهي كالتالي:

١ ـ البهائية ولهم مركز في مدينة أوشكاتي ويعمل في هذا المركز ثلاثة أشخاص رئيسهم مهندس بلدية وشخصان من إيران وليس لهم نشاط يذكر.

٢ ـ اليهود ونشاطهم الاقتصادي كبير وهم أثرياء كالعادة، وأكبرهم في الثراء اسمه (بوب كاسيني) ويقيم في العاصمة (وندهوك).

٣ ـ المنصرون وهم منتشرون في جميع أنحاء البلاد ولديهم إمكانات ضخمة في الدعوة إلى التنصير.

هذا وحرية الأديان مكفولة في ناميبيا وحكومتها بقيادة رئيس البلاد (سام نجوما، أو نيوما) ترحب بالمسلمين، بل وتظهر المحبة لهم، في الواقع

أن الذين ساعدوه وأمثاله من الإستقلاليين أيام الإنتداب كانوا المسلمين، إلا أنها لا تستطيع التظاهر بمساعدة فعلية لدين دون آخر.

ويجب اغتنام هذه الفرصة، وتكثيف النشاط الإسلامي هناك.

كما أنه يجب الإسراع في عقد اجتماع أو ندوة إسلامية في ناميبيا يكون أكثر المشتركين فيها من الإخوة المسلمين الأفارقة من سكان المنطقة الجنوبية من إفريقية وأن ينتقل هذا الاجتماع إلى أكثر من مكان حتى يعرف به أكبر عدد ممكن من المواطنين وتشرح فيه مبادىء الإسلام السلفية مختصرة لغير المسلمين ويدعون للدخول في الإسلام.

إضافة إلى إقامة معسكرات لشباب المسلمين في البلاد وفي المنطقة تكون الدعوة فيها مفتوحة للجميع.

والله الموفق..

السفر إلى ناميبيا

يوم الأربعاء ٢٨/ ٤/ ١٤١١هـ.

في الساعة الرابعة والنصف من قبل الفجر كنت مستعداً للخروج إلى المطار ولم يكن وقت صلاة الفجر قد حان بعد.

كان علينا أن نكون مسرعين، لأننا سنغادر جوهانسبرج في السادسة والنصف إلى (ناميبيا) وتبلغ المسافة من حي لينيشيا الذي نحن فيه الآن إلى مطار جوهانسبرج ٦٢ كيلومتراً.

خرجنا في هذه الساعة المبكرة التي لم تستيقظ فيها الطيور بعد، وكان كل شيء كذلك حتى الشوارع الرئيسية التي كانت مفعمة بالإزعاج أمس قد ران عليها النعاس، فليس هناك ما يزعجها إلا بعض السيارات المتطفلة على هذا الفجر الساجي مثل سيارتنا.

واخترقنا منطقة ريفية غير مسكونة قد لفها الندى وغشيتها البسط السندسية التي لا يعدم الناظر إليها أن يرى زهرة. متفتحة بيضاء كبياض وجوه أهلها البيض أو صفراء كصفرة الآسيويين، أما الزهرات السود فإنها قليلة نادرة مع أن المواطنين السود يؤلفون الأغلبية العظمى من سواد هذا الشعب، بمعنى أكثريته العددية وهم كذلك النسبة العظمى من سواده في اللون.

وهذه الأيام هي أيام الربيع في جوهانسبرج وهو ربيع كربيع البحر الأبيض المتوسط أو لنقل بالتحديد كربيع سوريا ولبنان إذا صحت شمسه

وصفا أديم سمائه شعرت بشيء من الحر في الشمس، وإذا غام جوه شعرت بشيء من البرد، وأنت في الحالتين كلتيهما في وسط بين البرد والدفء.

كان قائد سيارتنا أخاً مسلماً سلمت عليه أمس في المسجد وأخذ يكرر ذلك من أجل أن يعرفني بأنه عرفني وهو يحتفي كعادة أهل الهند مع إخوانهم المسلمين الضيوف واسمه (إبراهيم قرة علي).

الصلاة على الأعشاب:

حان وقت صلاة الفجر وكنا قد توضأنا قبل الخروج من المنزل فأوقفنا السيارة على جانب الشارع المتجه من مدينة جوهانسبرج إلى المطار وتقع المدينة ما بين المطار وحي لينيشيا الذي كنا فيه فافترشنا بساطاً سندسياً أخضر ملتفاً من الأعشاب البرية، لأن المنطقة لم تعمر بعد، ولم نكن بحاجة إلى فراش، فربيع جوهانسبرج قد وفر لنا ذلك. وأدينا الصلاة في جو ندي بارد.

وصلنا المطار مبكرين، وكان الركاب يتقاطرون عليه إلا أن الموظفين لم يصلوا بعد فكانت طائرتنا هي أولى الطائرات المغادرة هذا الصباح، فما رأيناه منهم.

ثم حضر الموظفون بسرعة وجلسوا إلى أربعة مكاتب للدرجة السياحية ويسمونها الدرجة الفضية، ومكتب للدرجة الأولى ويسمونها الدرجة الماسية، ودرجة رجال الأعمال هي عندهم الدرجة الذهبية.

وقد اصطف الركاب أمام هذه المكاتب وكلهم أبيض، لم أر فيهم من السود أي راكب، إلا أنني رأيت رجلاً آسيوياً معنا نحن الاثنين من آسيا. أما الأخ الدكتور مومنيات فإنه آسيوي بحكم القانون في بلاده بجنوب إفريقية مثل غيره من أنواع الألوان فمثلاً لو كان الملون أبيض اللون حقيقة فإن ذلك لا ينقله من صنف الملونين إلى صنف البيض وإنما هو محكوم عليه قبل ولادته - بحكم قانونهم - أنه ملون فهم يحكمون على الإنسان بلونه قبل أن يولد،

لكونه مولوداً من أبوين ملونين وأما أنا فإنني آسيوي بالفعل، ولكنني رأيتهم في الزيارة السابقة إلى جنوب إفريقية وإبان استحكام السياسة العنصرية يعاملونني معاملة البيض فيعتبرونني منهم وإن لم يعرفوا أصلي ولا فصلي، وقد دخلت بالفعل مطاعمهم في ذلك الوقت وقدموا لي فيها من الخدمات ما يقدمونه لأبناء جلدتهم (البيضاء).

وهذا الذي ذكرته عن عدم وجود السود بين ركاب هذه الطائرة التي تبين أنها كبيرة من طراز الحافلة الجوية (إيرباص) التي تحمل (٣٠٠) راكب أمر له دلالته وإن كان في حد ذاته تافهاً فهو يدل على أن السود ليسوا رجال مال وأعمال يسافرون في هذه الساعات المبكرة من أجلها مثل البيض.

وهكذا فإن الدكتور مومنيات عندما أبديت له هذه الملاحظة قال: السود لا (بزنس) لهم، أي ليست لهم أعمال تجارية واسعة.

وقد أنهوا الأعمال بسرعة رغم الصفوف الطويلة، ثم ذهبنا إلى قاعة المغادرة مع الطرق المتعرجة التي سبق أن رأيتها ووصفتها في المرة السابقة، ولم يتغير في المطار شيء عما عهدته عليه قبل سنين.

ثم مررنا عند الخروج إلى الطائرة بموظفات من البيض، وكل الذين يعملون في المطار الآن هم من البيض ما عدا الحمالين ونحوهم فهم من السود.

ومهمة النساء هؤلاء أن يقارن بين البطاقة التي يحملها الراكب وبين ما هو مكتوب على الحاسب الآلي.

أما الطائرة فإنها من طراز الحافلة الجوية (ايرباص) تابعة لشركتهم الوطنية التي هي شركة الخطوط الجوية لجنوب إفريقية، ويسمونها اختصار (S.A.A) أي (سوث أفريكا ايرويز) وبهذا تماثل الحروف الأولى من اسمها الحروف الأولى من اسم خطوطنا السعودية وهي بالإنكليزية (سعودي ايرابيا

ايرلاين) إلا أنهم يكتبون عليها أيضاً اسمها باللغة الأفريكانية التي هي اللغة الوطنية عندهم فتصبح (S.A.L).

ازدحمت الطائرة بالراكبين، وكانت المضيفات البيضاوات يرشدن الركاب إلى مقاعدهم ولم أر فيها مضيفاً واحداً من الرجال، وليس فيها من السود أو الملونين أحد من العاملين.

والمضيفات يختارونهن من الجميلات اللائي يتقن فن المجاملة، وابتسامات المصلحة التي هي مصلحة العمل.

من جوهانسبرج إلى وندهوك:

قامت الطائرة في السابعة إلا ربعاً متأخرة عن موعدها الأصلي بربع ساعة، وأعلن مكبر الصوت فيها أن مدة الطيران ستكون ساعتين.

وكان أول المناظر الجميلة منظر مدينة جوهانسبرج بربيعها الأخضر وشوارعها المشجرة وطرقها الجميلة، ومنازلها التي توشحها الحدائق، وتتلألأ فيها برك السباحة. حين تنعكس عليها أشعة الشمس.

وفي جيوب المقاعد وجدناهم وضعوا مجلة شركة الطيران هذه بعنوان (الربيع) وهو عنوان صادق الدلالة على جوهانسبرج في الوقت الحاضر. ومما تجدر ملاحظته أن الربيع عندهم يقابله الخريف عندنا، لأنهم في النصف الجنوبي من الأرض الذي صيفه عكس صيفنا، وشتاؤه عكس شتائنا.

وكانت محطة توليد الطاقة في ضواحي (جوهانسبرج) تنفث الدخان الكثيف، وتوقد بالفحم الموجود في مناجم في هذه البلاد.

ثم تغيرت المناظر عندما بعدنا قليلاً لأننا صرنا نشاهد بيوتاً لغير البيض، ومناطق ريفية غير منسقة، وإن كانت لا تزال خضراء.

ثم دخلت الطائرة في سحاب ثقيل اضطرب له كيانها، واصطفقت

أواني الفطور في الطائرة حتى انتثر بعض ما بأيدي الركاب منه، وأعلن الطيار إعادة ربط الحزام إلا أن المضيفات لم يوقفن توزيع الطعام.

وكان الطبق الرئيسي لطعام الإفطار صحن فيه البيض والفطر وسجق الخنزير فعفناه كله، واكتفينا بما كان في الوجبة من خبز ومربى وزبدة وهو كاف.

وكان الطعام سخياً نظيفاً والمضيفات على غاية من الذوق وحسن المجاملة للركاب.

وإنني لأعجب من كون المرء يشعر عندما يركب طائرة من طائراتهم أنه كأنه في أوروبا فالناس من ركاب وعمال في الطائرة بيض، والعمل يتم كما هو عند البيض، مع أن البيض هنا، قلة قليلة بالنسبة إلى الكثرة الكاثرة من السود.

على أرض ناميبيا:

اسمها هذا من اسم قطعة فيها كانت تسمى (ناميبيا) ثم أطلق هذا الاسم مؤخراً على القطر كله، وإلا فإن الاسم القديم الذي كان يعرف به هو: «جنوب غرب إفريقية» ولا يزال اسمها الآن على الأوراق الرسمية (سوا: ناميبيا) فأسوا: هو الأحرف الأولى من الاسم، يقدم بالإنكليزية (سوق ويست أفريكا) وناميبا هو هذا الاسم الحديث المختصر لها.

عندما تدنت الطائرة، وكان السحاب قد انقشع عن الأرض ولا نقول عن السماء لأننا كنا نراه فيما بيننا وبين الأرض يحجب عنا رؤيتها. رأينا الأرض ذات مظهر شبيه بالصحراوي، بل هو منظر الصحراء تماماً عندما كانت الطائرة تحلق على ارتفاع عالٍ.

وعندما تدنت الطائرة إلى الأرض اتضح أنها بالفعل أرض شبيهة

بالصحراوية، إلا أنها مليئة بالأشجار الصحراوية الكبيرة التي تشبه أشجار الطلح.

والغريب أنه لا أثر للعمارة في هذه المنطقة من مزارع أو طرق، وإنما الطرق فيها على قلتها هي طرق ترابية غير مزفلتة.

وما شبهت هذه الأرض إلا بالأراضي التي تسمى الساحل الإفريقي ويراد بها ساحل الصحراء الإفريقية وليس ساحل البحر، فأكثر بلدان الساحل تلك ليس لها على ساحل البحر أراضٍ مثل مالي والنيجر وفولتا العليا، وقد سميت بالساحل لكونها على حافة الصحراء المجاورة لأرض المراعي، وبعدها من جهة الجنوب: الأرض الخضراء.

فأرض الساحل هي وسط بين الصحراء والأرض الخضراء في إفريقية، ولذلك تجد فيها الأشجار الصحراوية الكبيرة الخضراء والأعشاب التي ترعاها الماشية. وهي تنتج قطعاناً كبيرة من الماشية، وفي هذه الأرض الإفريقية الناميبية تزدحم الوديان بالأشجار الصحراوية الكبيرة مثل ما في أرض الساحل المذكور.

وعند الاقتراب من المطار الخصب في الأرض قلت الأشجار الصحراوية، وكثرت الأعشاب العامرة في الأرض التي تبدو لأول وهلة كأنها هي أرض صحراوية ليس فيها شيء من النبات مع أن الأعشاب فيها كثيفة، ولكنها يابسة لأن الوقت ليس وقت اخضرارها الذي يكون عقب الأمطار، وليس في فصل الربيع المعتاد.

ثم رأينا في المنطقة خطاً ازفلتياً يكاد يكون وحيداً فيها.

في مطار وندهوك:

هبطت الطائرة في مطار (وندهوك) في الثامنة والنصف أي بعد ساعتين إلا ربعاً من الطيران وليس ساعتين كاملتين كما أعلنوا من الطائرة.

وشاهدت الأرض التي تحيط بمدارج المطار ذات أشجار تشبه أرض مطار القصيم في آخر الربيع إذ كان المطر كثيراً والعشب فيه نامياً.

والمطار صغير المبنى طويل المدرج، لذلك تقلع منه الطائرات النفاثة الضخمة. قربوا سلماً للطائرة لأنها وقفت بعيدة عن المبنى لصغره ووجدنا الجو فيها منعشاً جافاً أشبه بالجو في أواخر الربيع عندنا، وكان أهل جوهانسبرج قد ذكروا لنا أن الجو فيها حار جداً وربما كانوا قد سمعوا بأنه كذلك في الصيف، ونحن الآن في فصل الربيع بالنسبة للنصف الجنوبي من الأرض.

وأول ما يراه المرء عند دخوله مبنى المطار منظر واسع مصور لكثيب رملي أحمر في أسفله عدة أشجار يابسة حتى إن أغصانها بيض من شدة الجفاف.

وهذا المنظر أبرزوه للدعاية السياحية للبلاد، لأنه المنظر غير المألوف في البلدان الأخرى.

أرض الصحراء والأرض الخضراء:

وإلا فإن (ناميبيا) ليست كلها أرضاً صحراوية بل هي في الجنوب أرض صحراء تكثر فيها الغابات وتجول فيها أنواع الحيوان البرية التي لا توجد إلا في الأراضي الخصبة من الأفيال والظباء وحمر الوحش، ويوجد بالفعل نهر في تلك المنطقة كما أن في آخر الشمال منها على حدود أنغولا أرض خضراء يخترقها نهران وفي وسط البلاد الشرقي توجد الصحراء التي هي جزء من صحراء (كالاهاري) الشهيرة وتتقاسمها ناميبيا مع بتسوانا.

وأما وسط البلاد وشرقها فإنه مثل أرض العاصمة أرض مراع كثيفة الأعشاب، ولكن ليس فيها أنهار، ولا خضرة شاملة.

ورأينا ضباط الجوازات في المطار كلهم من البيض ما عدا امرأة سوداء واحدة، وذلك استمرار لما كان عليه الحال في الماضي إذ كانت (جنوب إفريقية) تدير هذه البلاد بالنيابة عن الأمم المتحدة إلى عهد الاستقلال الذي حصل في شهر مارس عام ١٩٩٠.

ولم نمر بأية إجراءات جمركية أو طلب لسمة الدخول لأن الذي يقدم من جنوب إفريقية لا يطالب بذلك من أجل الروابط الاقتصادية التي كانت قائمة ولا تزال بين هذه البلاد قبل استقلالها وبين (جنوب إفريقية).



عند الخروج من المطار في وندهوك ما يلي المدينة والجبال الجرد في أقصى الصورة

لم نجد في المطار سيارة أجرة، وإنما رأينا حافلة للشركة لم يرد صاحبي الدكتور مومنيات أن نركب فيها. فاستأجرنا سيارة من مكتب لشركة (افيز) لإيجار السيارات، وكل الذين في مكتبها هم من البيض. كان منظر المنطقة مما يلي البلدة من المطار منظر الأرض الصحراوية الخصبة ـ إن صح التعبير ـ فالجبال والتلال التي تحيط بها جرداء، ولكن الأرض مكتظة بالأعشاب اليابسة.

وحتى الحشائش والأشجار المغروسة في ساحة صغيرة حول المبنى تسقى بالرش ولها زهور تشبه زهور البلدان الجافة إلا أنهم اختاروها ملونة.

ومن الطريف في الأمر أنني راقبت فراشات كثيرة تطير في هذه الأرض الصغيرة المزروعة للتجميل وهي في أعداد كثيرة إلا أنها ملونة بألوان مختلفة زاهية، فيها الحمر والبيض الخالصة البياض والمرقط أي الملونة باللون الأبيض والأسود. وما رأيت مثل اجتماع هذه الفراشات في مكان واحد من قبل، مما ذكرني بمعارض للفراشات كنت رأيتها في أماكن عديدة من العالم وكلها فراشات محنطة. أما هذه فإنها حية تطير وتقع على زهور مثلها ملونة في انسجام غريب بين ألوانها، لم يستطع البشر في هذه البلاد قبل استقلالها وفي بلاد جنوب إفريقية حتى الآن أن يحققوه بين ألوانهم.

واستأجرنا سيارة مرسيدس وساقها الدكتور محمد مومنيات الذي سيرافقني طيلة هذه الجولة في الأقطار الثلاثة (ناميبيا) (ليسوتو) و(سوازيلاند) ولم تنته إجراءات استئجارها إلا بعد أن مضى كل الركاب الذين كانوا معنا ومن كان في استقبالهم.

فسرنا في طريق جيد الزفلتة إلا أنه غير واسع، إذ لا يتسع إلا لسيارتين متقابلتين.

واتضح وجه الأرض عند ذاك فإذا به صحراوي لكنه مكسو بأعشاب

كثيفة جافة هو أفضل ما تكون لرعي الماشية، ولذلك اشتهرت ناميبيا بإنتاج اللحوم ومع ذلك لم أر أية ماشية ترعى قرب هذا الطريق.

بل إن الطريق نفسه كان خالياً إلا من سيارتنا فحتى السيارات لم تقابلنا سيارة واحدة في معظمه، ولم تتجاوزنا أية سيارة.

وحتى العمارة من زراعة أو مساكن لم يوجد على الطريق منها شيء، وبذلك صار المرء يشعر بأنه فعلاً في صحراء خالية، حتى لوحات الإرشاد التي تكون على الطرق عادة هي قليلة.

وخطوط الهاتف كما كان عليه الحال عندنا في القديم هي هوائية أي تمتد أسلاكها فوق أخشاب منصوبة وقد نسينا هذا الآن، بعد أن هجرناه في بلادنا إلى خطوط الهاتف الدفينة في الأرض. والطريق ما بين المدينة والمطار طويل وذلك لكون منطقة مدينة وندهوك وما حولها مؤلفة من تلال، وليس فيها أرض مستوية.

وقلت لصاحبي الدكتور مومنيات: إن هذه الأرض جيدة للصيد الصحراوي، فهي تكاد تكون خالية والأعشاب تكسو الأرض، والأشجار الصحراوية تكثر في الوديان.

هذا مع العلم أننا لا نزال بين المطار والمدينة.

ثم مر الطريق بوادٍ جاف، ليس فيه إلا أشجار صحراوية تشبه أشجار الطلح، إلا أنها خضراء كثيفة، وبقرب الوادي مروحة هوائية لاستخراج ماء الشرب ونحوه بقوة الريح وعندها منزل ريفي واحد.

مدينة وندهوك:

دخلنا مدينة وندهوك مع الشارع نفسه الذي يجيء من المطار، وقد اتسع وحسنت حاله عندما وصل إلى المدينة.

بدأت البيوت عليه وهو بشكل جيد والبيوت لها حدائق فيها أشجار من أشجار الظل جيدة لا تتناسب مع ما رأيناه من الطابع الصحراوي للمنطقة ولكن تبين بعد ذلك أن المدينة تشرب من عدة سدود أقاموها على وديان تفعم بالمياه عند حلول موسم الأمطار، وإلا فإنه لا نهر في المدينة، ولا فيما قرب منها.

ثم وصلنا فجأة إلى القلب التجاري للمدينة فالبيوت قبله من جهة المطار قليلة، وقصدنا الفندق الذي نسكن فيه ولم يكن الدكتور مومنيات قد زار ناميبيا من قبل، وإنما اهتدى إلى الفندق بخريطة أخذها من شركة تأجير السيارات.

وهذا القلب التجاري حديث الطابع كله جميل ومنظم حتى الزهور قد غرسوها في ميدانه الرئيسي في ألوان زاهية وأكثرها من زهور (الجهنمية) ونسقوها وهذبوها.

وفيه عماير (أبنية) عالية متعددة الطوابق وبعضها متراصة.

ثم نزلنا بفندق (كالاهاري ساندز هوتيل) أي فندق رمال كالاهاري.

وهذا الاسم أيضاً يحمل دعاية سياحية مأخوذة من طابع المنطقة الصحراوية في ناميبيا وهي صحراء كالاهاري، وهو كالصورة التي رأيناها مكبرة مضاءة في المطار تبرز طبيعة الصحراء التي تختلف عن الأرض الخضراء المعتادة لذلك يقصدها السياح بكثرة.

ورغم تسمية الفندق برمال الصحراء (كالاهاري) فإنه ليس فيه مما فيها شيء فهو حديث من فنادق الدرجة الأولى ذو خمس نجمات، وأجرته مائة وخمسة دولارات أمريكية وقد كتبوه بالراند الجنوب الإفريقي ٢٦٢ رانداً تضاف إليها الخدمة وهو ١٠٪ فيكون ذلك ١١٦ دولاراً ولا يزال (الراند) الإفريقي الجنوبي العملة المستعملة في هذه البلاد فليس لها عملة وطنية خاصة بها، وذلك لحداثة استقلالها، وارتباط اقتصادها ارتباطاً وثيقاً باقتصاد

(جنوب إفريقية) نتيجة لعشرات السنين التي كانت حكومة جنوب إفريقية تحكم فيها هذه البلاد النامیبية.

وما يجدر تسجيله أنه رغم كون الفندق من فنادق الدرجة الأولى وأن نزلاءه الذين رأيناهم كلهم من البيض، ومنهم بعض الذين قدموا معنا بالطائرة فإن العاملين فيه من موظفي الاستقبال والحاشية وغيرهم حتى العاملات ومقاهيه ومطاعمه كلهم من السود. وإن كان فيهم بعض المختلطين الذين ولدوا أو ولد آباؤهم نتيجة اختلاط البيض بالسود، ولكن سواد السود غير حالك. بل إن أشكالهم غريبة غير مألوفة لي أنا الذي رأيت السود في قارة إفريقية كلها قبل ذلك وفي جزائر جنوب المحيط الهادئ، وقد طبع لي عدة كتب عن إفريقية وطبع مؤخراً كتابي عن جزر جنوب المحيط الهادئ بعنوان: «جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ» يمكنك أن تقرأه إذا أردت.

أنزلوني في غرفة في الطابق الثاني واسعة فيها جميع ما يكون في غرفة فنادق الدرجة الممتازة حتى بدلة الحمام التي تسمى (روب الحمام) وتطل الغرفة على الميدان الرئيسي في المدينة التي هي ليست بالكبيرة هنا وكانت مخصصة لسكن البيض عندما كانت جنوب إفريقية تحكم هذه البلاد وتطبق عليها سياستها في التمييز العنصري التي تطبقها في بلادها، وأكثر ما في هذا القسم الفاخر ظهوراً كنيسة مشرفة قد جملوا ما حولها وبنوها في مكان مرتفع يرى من أنحاء متعددة منها.

في السفارة المصرية:

السفارة المصرية في هذه البلاد هي العربية الوحيدة فليس فيها أية سفارة عربية أخرى، ما عدا فرعاً لمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في زامبيا، ولكنه لم ينتظم العمل فيه، ومما يذكر أن العلاقة ما بين منظمة التحرير وحكومة ناميبيا جيدة جداً نتيجة لزمالة الكفاح ما بين منظمة التحرير ومنظمة

تحرير شعب جنوب غرب إفريقية المعروفة اختصاراً باسم (سوانو) وقد حضر الاحتفال باستقلال ناميبيا السيد ياسر عرفات رئيس إقليمي للمنظمة.

استرحنا في الفندق قليلاً ثم ذهبنا في الحادية عشرة والنصف إلى السفارة المصرية في مقر قريب من الفندق إلا أنه في منطقة سكنية غير تجارية.

استقبلنا فيها السفير (حسين الصدر) وهو مصري أصيل رغم هذا الاسم الذي يوحي بأن حامله من جنوب لبنان أو من مدينة بعلبك، ورحب بنا ترحيباً بالغاً.



في السفارة المصرية في وندهوك والسفير حسين الصدر على المكتب والدكتور مومنيات أمامي

والقصد من زيارة السفارة هو الحصول على المعلومات المستجدة من السفير عن الحركة الإسلامية في هذه البلاد، لأنه مهتم بها ومتابع لتطوراتها.

وذلك نابع من اهتمام السفير الشخصي بأمر دينه الإسلامي الحنيف، ومن كون السفارة المصرية هي السفارة الإسلامية الوحيدة الموجودة في البلاد إذْ لا توجد فيها سفارة لأية دولة إسلامية ما عدا ممثلية على مستوى القائم بالأعمال لبنغلادش.

وكان مما شكا منه السفير أنه لا يوجد مسجد في وندهوك، وقال: أنا مسلم ولا أجد مسجداً أصلي فيه صلاة الجمعة.

فقلت له: إن رابطة العالم الإسلامي تساعد المسلمين على بناء المساجد، وغير ذلك من المشروعات الإسلامية وإن المهم أن يقوم المسلمون بالخطوة الأولى. وتتمثل في تأليف جمعية إسلامية رسمية مسجلة لدى الحكومة، لأنه لا يمكن منح المساعدة لأشخاص منفردين قد يستغلونها، وأرجو أن تحث المسلمين على ذلك فوعد خيراً.

إلى المركز الإسلامي:

هناك مركز إسلامي صغير قائم منذ مدة في حي سويتو ويبعد عن قلب المدينة الذي نسكنه ثمانية كيلات، ويسمون قلب المدينة (السنتر بمعنى المركز). جاء إلينا الأخ عبد العليم فارسبت وهو مسلم جديد أسلم في عام ١٩٨٦م ومع ذلك لا يعتبرونه مسلماً جديداً لأن كثيرين من المسلمين أسلموا بعده وأغلب المسلمين إن لم يكونوا كلهم هم من المسلمين الجدد. فلا يوجد فيهم من أبوه مسلم، إلاّ من كان مهاجراً إلى هذه البلاد، وذكر الأخ عبد العليم أنه يعمل الآن داعية إلى الله. ركب معنا في سيارتنا التي يقودها الدكتور مومنيات فسرنا مع شوارع المدينة الجيدة التي غرست على جانبها الأشجار ومنها ما أسميته بأشجار الزهور، وهي الأشجار التي تكون أوراقها

بمثابة الأزهار وهذه كلها لا تزال جزءاً من المدينة التي كانت مخصصة للبيض.

ووصلنا إلى ضواحٍ جيدة من المدينة مع شارع ذي اتجاهين منفصلين، تسير عليه سيارات متوسطة في عددها ومنها سيارات نقل وتنقل الركاب على ظهرها وفيهم بعض النساء وهم من المواطنين الأصلاء. فسرنا مع شارع رئيسي اسمه (ديكابولس).

حي سويتو:



أحياء للملونين والسود في وندهوك

وحي (سويتو) الشهير يقع في جوهانسبرج في جنوب إفريقية ويستحق أن يسمى مدينة (سويتو) لأنه يضم مليوناً ونصف المليون من المواطنين السود في جنوب إفريقية.

وهنا حي السود هذا يسمى (سويتو) وليس كل أحيائهم تسمى بهذا الاسم، بل هناك أحياء لها أسماؤها الخاصة بها وسوف يمر بنا الحديث عنها فيما بعد إن شاء الله.

وقفنا عند باب المركز الإسلامي وهو بيت صغير من طابق واحد عليه لافتة أعلاها بالعربية من الخارج (بسم الله الرحمن الرحيم) وتحتها بالإنكليزية (إسلامك سنتر دبرايرز وريدنغ روم) أي المركز الإسلامي وغرفة الصلاة والمطالعة.

وجدناهم يستعدون لصلاة العصر في المصلى الذي أسموه غرفة الصلاة وهو غرفتان من غرف هذا البيت الصغير هدموا الحاجز الذي يفصل بينهما، وفي المصلى سبورة عليها كتابة بخط جيد بالعربية تقول: «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، الحمد لله الرؤوف الرحيم العادل الحكيم، الذي جعل رضاه ورحمته لمن أطاعه، وغضبه وعذابه لمن عصاه، وهو الغني القوي الكبير المتعال، له الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وله الحكم وإليه ترجعون».

وهذه الكتابة بعباراتها القوية لا يعرفها منهم أحد ولكن أخاً صومالياً سيأتي الحديث عنه هو الذي كتبها لهم.

وقد صلوا صلاة العصر وكلهم حدثاء عهد بالإسلام صلى بهم أحدهم وصلى خلفه منهم ستة، وحدثونا عن المركز أنه افتتح في عام ١٩٨٧م بجهود جمعية الشباب المسلم في جنوب إفريقية التي بعثت إليهم شخصاً اسمه (عيسى السيبي) فتح هذا المركز، وقد عاد الآن إلى جنوب إفريقية، ويقال: إنه حصل على نقود للمركز قبل سفره ولا ندري صحة ذلك.

ورغم صغر هذا المركز وضيق مساحته فإن فيه غرفة لا تزيد مساحتها على ٦ أمتار مربعة فيها آلة كاتبة وجهاز للتلفزة.



شارع من حي السود في سويتو (وندهوك)

جلسنا معهم جلسة طويلة امتدت حتى غابت الشمس، وأدينا معهم صلاة المغرب.

وكان الجلوس على طراحتين موضوعتين على الأرض بجانب المصلى تبين أنهم ينامون عليهما.

وقد حفروا أساس توسعة غرفة المصلى من خارج المنزل في فناء

خارجي ضيق ويبنونها بلبن الإسمنت، شأن أكثر المنازل في هذا الحي، أي ليست بالإسمنت المسلح، وذلك لكون المسجد يضيق بهم عند صلاة الجمعة إذ يصلي الجمعة ما بين ٢٥ إلى ٦٠ وهو لا يتسع لأكثر من ٢٠.

وكان الحديث كله يدور بالإنكليزية، والأخ الدكتور محمد مومنيات من أهل المنطقة، وعمله في إدارة مكتب الرابطة يتطلب منه أن يعرف ما يجري في هذا المركز وأمثاله.

وحدثونا عن إسلامهم وأسمائهم الإسلامية فمنهم (علي جانسون) أسلم في ديسمبر عام ١٩٨٨م ومن الجيد عندهم أنهم أرونا ملفاً يحتوي على أسماء



المسلمون يصلون العصر في المركز الإسلامي الصغير في (سويتو) في وندهوك

جميع المسلمين الجدد، لكل واحد منهم استمارة خاصة فيها صورته وكافة المعلومات المتعلقة به محفوظة في هذا المركز الصغير.

وذكروا أن عدد المسلمين من المواطنين يصل إلى حوالى ثلاثمائة شخص، وهناك عدد قليل من الأجانب المسلمين مثل أهل مالاوي الذين يعمل قسم منهم في هذه البلاد، وأناسٍ من جنوب إفريقية ليست لهم صلة بهم.

والقوم بسطاء التفكير، ضعيفو الوسائل المادية، إلا أنهم أقوياء في إيمانهم ومعرفتهم بالإسلام محدودة، وهذا أمر طبيعي لحداثة عهدهم بالإسلام، ولكن غير الطبيعي أن يكونوا في هذا المكان الضيق وعلى هذه الحالة ولا يعتني بهم إخوانهم المسلمون القادرون من الحواضر الإسلامية.

على أن الأمر فيه بعض العوائق، فأنا ـ على سبيل المثال ـ أحمل الآن مبلغاً من المال من رابطة العالم الإسلامي أستطيع تقديمه فوراً، ولكن المشكل هو كيفية دفع المبلغ إليهم على طريقة سليمة. فلا بد من تسجيل جمعية إسلامية رسمية، وهم لم يسجلوا جمعيتهم، ثم لا بد من أيد أمينة تحسن التصرف بهذا المال في إنفاقه للعمل الإسلامي.

وعلى ذكر الإخوة المسلمين من (ملاوي) أقول: إنه دخل إلى المركز مسلم من مالاوي عليه ملابس طلبة العلم من أهل الهند، وهو أسود اللون فسلم وصلى السنة ثم العصر وحده، لأنهم سبقوه بالصلاة وانضم إلى الحديث معهم.

السود والمختلطون:

هذا الحي معتبر من أحياء السود، وقد خرجت من المسجد بينما ظل الأخ الدكتور محمد مومنيات معهم فتجولت في حي (سويتو) المخصص للسود هذا وحدي، وكنت أحمل مصورتي أبحث عن صيد سمين لها.

فرأيت شوارعه كلها غير مزفلتة، وبيوته كلها من طابق واحد مبنية من لبن الإسمنت وأرض الشوارع والأزقة غير ممهدة ولا متساوية، فالحي نفسه يقع على مكان مرتفع من منطقة وندهوك التي تتألف كلها من روابٍ وأماكن مرتفعة بينها أماكن منخفضة تشبه الوديان المتسعة، وإذا مرت سيارة أثارت غبار الشارع وإن كانت أرضه فيها شيء من الصخور وذلك بسبب الجفاف في الجو الذي هو الغالب على المنطقة. ورغم صغر المنازل فإن لها مقدمات مكشوفة يفترض أن تكون فيها حدائق غير أن بعضها يقتصر على جدار للفناء للنبات الشبيه بالحاجز.



في داخل المركز الإسلامي في سويتو (وندهوك) مع المسلمين

والسكان كلهم يعتبرونهم من السود وهم كذلك سود بأغلبهم ولكن سوادهم غير حالك فألوانهم أشبه ما تكون باللون البني وليسوا في سواد السكان الذين يقطنون تحت خط الاستواء، ولا شك في أن ذلك راجع إلى إقامتهم في هذه المنطقة البعيدة عن خط الاستواء. ويوجد بينهم من سوادهم حالك ولكنهم قليل.

وهناك نسبة لا بأس بها عدداً من بينهم من المختلطين، ولكن يظهر أن اختلاطهم قديم أي قد ورثوه من آبائهم، وأجدادهم. والمراد بالمختلطين هنا من ولدوا من أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود، يتمثل ذلك واضحاً من اللون الذي يميل إلى لون النحاس، ومن التقاسيم في الوجه التي تخالف تقاسيم السود، ومن شيء مهم جداً وهو هيئة الشعر.

ومما يجدر ذكره في هذا المجال أن هذه البلاد ابتليت بالاستعمار الأوروبي منذ وقت مبكر فاستعمرها الألمان وأعلنوها محمية في عام ١٨٨٨م ثم وقعت تحت حكم جمهورية جنوب إفريقية العنصرية حتى نالت الاستقلال في عام ١٩٩٠م ولم يكن الأوروبيون في عهد الاكتشاف يصطحبون نساءهم، فكانوا يقاربون الإفريقيات ولم يكن هناك أعراف لدى هؤلاء الإفريقيين والإفريقيات تنهى نساء السود عن الاقتراب من الأوروبيين بهذه الطريقة فنشأ من ذلك جيل كثير العدد مختلط اللون، أو إن شئت التعبير الفصيح قلت «إنه خلاسي اللون» واللون الخلاسي هو الذي يكون بين الأبيض والأسود، وتغلب السماحة على طبيعة القوم هنا شأنهم في ذلك شأن أهل أنغولا التي زرتها في العام الماضي وكتبت ما رأيته فيها في كتاب: «من أنغولا إلى جزر الرأس الأخضر».

رأيت امرأتين في الشارع من أهل الحي فطلبت أن ألتقط صورة معهما فضحكتا وسمحتا بذلك.

كما التقطت صورة للشارع الذي يقع عليه المسجد، ويسمونه مسجد (ديكابولس) مع أنه لا يوجد مسجد معروف غيره في هذه العاصمة ولا في غيرها من المدن الأخرى في ناميبيا.

مغرب ناميبيا:

غابت الشمس في هذا الحي العجيب من هذه المنطقة النائية عن بلادنا ومن حواضر البلدان المسلمة عامة، فأذن الأخ (عبد العليم فارسبت) لصلاة المغرب أذاناً جيد المخارج، وإن كانت تشوبه لكنة طبيعية، لا سيما عدم وجود من ينطقون بالحروف العربية الحلقية نطقاً صحيحاً.

ثم تقدم الأخ الملاوي المسلم بدون أن يقدمه أحد، وبدون أن يعرض على أحد منا أن يتقدم لإمامتهم في الصلاة فصلى صلاة المغرب وهي جهرية كما هو معروف فلم يحسن أن يخرج البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) وذلك لصعوبة إخراج الحروف الحلقية عليه. ولكنه كان جهوري الصوت، قوي البنية، لا يتردد في النطق بالحروف العربية وإن كان لا يستطيع أن ينطق بها على الوجه الصحيح، ولا يتوقف عندما يصل إلى جملة من الآية وإن كان لا يحسنها مما يعطيه عند من يسمعه من هؤلاء الإخوة الذين لا يفهمون ما يقوله منزلة كافية.

فهو هنا كالمثل العامي الذي يقول في مثله (احك على اجناب) والأجناب، الأجانب: جمع أجنبي.

وقد عَنَّ لي شيء هنا وهو أن هؤلاء الإخوة المسلمين من أهل ناميبيا أحدث عهداً بالإسلام من هذا الأخ الملاوي، ومع ذلك يحسنون التلفظ بالحروف العربية أكثر منه، وإن كانت صعبة عليهم. والملاوي الذي هو من جمهورية (ملاوي) التي كانت تسمى قبل الاستقلال (نياسالاند) وتقع إلى الجنوب الغربي من تنزانيا قد دخلها الإسلام قبل ألف سنة أو تزيد، وكان

أسلافنا العرب يعدونها من إقليم (سفالة) الذي يشمل ساحل تنزانيا وساحل موزامبيق. فقلت في تعليل ذلك: إنه ربما كان سببه هو المعيشة تحت خط الاستواء، أو بالقرب منه، وتكون العجمة في النطق أو صعوبة التلفظ باللفظ العربي على الوجه الصحيح حيث القرب من خط الاستواء، وإذا بعد المرء من سكناه عن خط الاستواء خف ذلك الشيء عن لسانه. ثم قلت: الله أعلم.

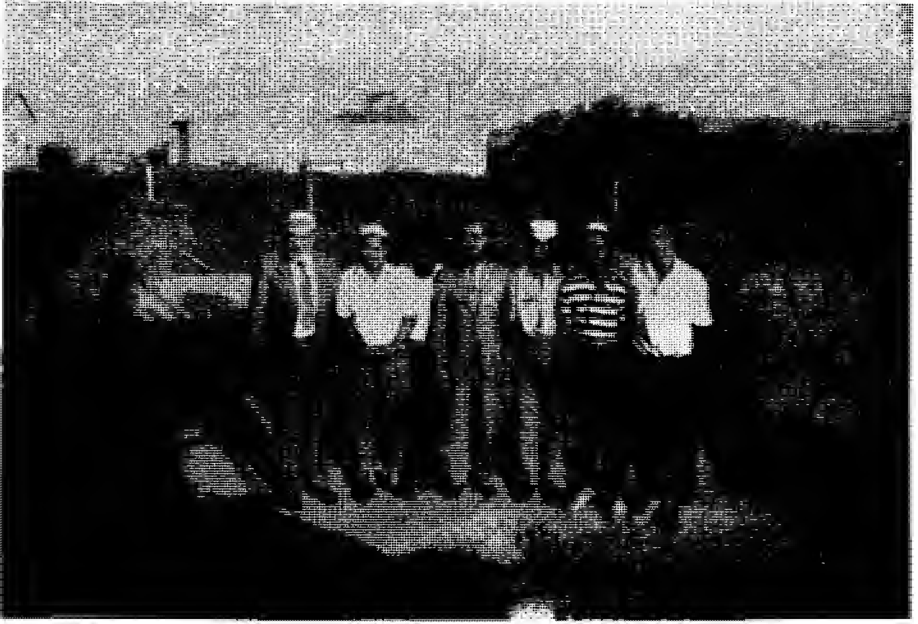
وإن كان الشيء الذي لا أشك فيه أن القوم الذين يعيشون في مدينة (وندهوك) هذه لو كان أسلافهم قد أقاموا فيها قروناً متطاولة لتغيرت ألوانهم إلى اللون الأسمر أو اللون القمحي، لأنها بعيدة عن خط الاستواء، تكاد تبعد عنه جنوباً بعد بلادنا عنه شمالاً، والظروف المناخية فيه لا تبعد عن الظروف المناخية في بلادنا. فلم يكن ما يمنع من ابيضاض بشراتهم أو على الأقل من أن تنفض عنها الغبار الأسود الذي يخلعه خط الاستواء على من يقيمون تحته، أو تحت ما يليه من الأقاليم.

ولكانوا في ذلك ـ على الأقل ـ مثل البوشمان سكان صحراء كالاهاري الذين كانوا أقدم السلالات البشرية القديمة التي عاشت فيها، ولا تزال لهم بقاياهم في بستوانا وألوانهم تقارب السمر من العرب مثل سكان جنوب الصحراء أو ما يسمى بساحل الصحراء في مالي وموريتانيا.

هذا وقبل أن نودع هؤلاء الإخوة الأعزاء أفهمتهم أن رابطة العالم الإسلامي تعمل على مساعدة المسلمين من كل أنحاء العالم، وأن من واجبها مساعدتهم بالذات، غير أنه يجب عليهم أولاً أن يؤلفوا جمعية إسلامية ويسجلوها رسمياً لدى الحكومة، ويكون لهم حساب رسمي في البنك تصرف منه لجنة مختصة موثوق بها، وإننا بعد ذلك سنساعدهم على بناء مركز إسلامي، وقد نقرر لهم مساعدة سنوية مستمرة.

فشكروا ذلك وأشاروا إلى أن شخصاً من السفارة الإيرانية في جنوب

إفريقية زارهم، ووعدهم بشراء مركز لهم جديد غير هذا المركز. ولكن لم يتحقق شيء من ذلك حتى الآن.



مع المسلمين بجانب المركز الإسلامي في حي سويتو في وندهوك

ووعناهم بعد صلاة المغرب شاكرين مختتمين ذلك بدعاء بالعربية والإنكليزية من أجل أن يفهموه بأن يقدر الله الاجتماع بهم بعد ذلك في هذه البلاد والمسلمون فيها بحالٍ أحسن من هذه الحال، وفي مكة المكرمة والمدينة المنورة عندما يقدر لهؤلاء الإخوة الكرام أن يؤدوا الحج والعمرة هناك.

وقد أمنوا على هذا الدعاء من كل قلوبهم.

ومما يجدر ذكره هنا أن حكومة ناميبيا لا تضع أية عراقيل على العمل الإسلامي، بل إنه كانت لها صلات وروابط ودية مع عدد من الهيئات والحكومات المسلمة في البلدان الإسلامية إبان عهد الكفاح الذي قاده الرئيس الحالي للبلاد (سام نجوما).

وإنما التقصير ناشئ منا نحن المسلمين، وأصله ناتج من أن حكومة جنوب إفريقية العنصرية لم تكن تسمح إبان حكمها لهذه البلاد قبل الاستقلال بدخول غير البيض إليها، فلم يكن من المستطاع للإخوة المسلمين الآسيويين أو السود من جنوب إفريقية الدخول للبلاد ونشر الدعوة الإسلامية فيها قبل الاستقلال.

ومع جماعة مسلمة أخرى:

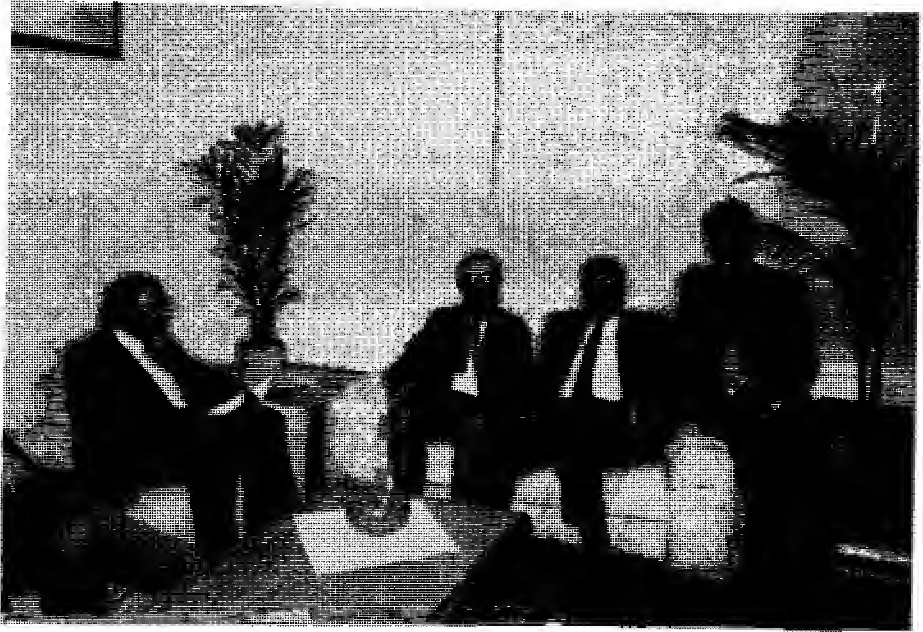
هؤلاء الإخوة المسلمون الذين ذكرتهم يمثلون سواد المسلمين هنا - على قلّتهم - وهم من ضعفاء الناس من حيث المال والمكانة الاجتماعية، وليس هذا عيباً فيهم بطبيعة الحال وإنما هو للتعريف.

وفي معرض الحديث عن شؤون المسلمين والبحث في مستقبلهم أخبرنا السفير المصري الأخ حسين الصدر أن هناك جماعة أخرى مسلمة مثقفة لها مكانتها ولكن عددها قليل على رأسهم أخ من قبيلة (هيرورو) القبيلة الثانية في البلاد وأخ صومالي وكلاهما يعرف العربية.

وفي الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم حضر الأخ الصومالي إبراهيم بن محمد محمود عرسه وهو الذي كتب النص العربي الموجود في المركز الإسلامي، وكان هاتفني بعد الظهر وحددنا هذا الموعد الليلة للقاء فاصطحبنا من فندقنا إلى مكتب تجاري لهم قريب مشياً على الأقدام.

وجدنا في المكتب الأخ محمد عيسى هيرورو ويتكلم العربية بطلاقة لأن أمه صومالية وولد هو في الصومال وعمل في اليمن وتزوج بامرأة يمانية.

وسبب كونه من أم صومالية أن والده حارب المستعمرين الألمان مع عدد من زعماء القبيلة فكسرت رجله، وحاولوا قتله ولكن استطاع الاختفاء ثم الهرب إلى بتسوانا ومن هناك ذهب إلى الصومال في مراحل عدة لاقى فيها الأمرين لكونه لا يستطيع العودة إلى بلاده فتزوج في مقديشو من امرأة مسلمة ورزق هذا الابن الذي نشأ مسلماً، وذكر أنه من بيت في زعامة قبيلة (هيرورو) وأن ابن عمه (كوايم ريواكو) هو رئيس قبيلة (هيرورو) وسوف يحضر بعد قليل لمقابلتنا.



مع زعيم قبيلة هيرورو (على يساري) وعلى يساره إبراهيم بن محمد الصومالي ويميني الدكتور مومنيات

بحثنا مع الأخوين الكريمين الصومالي والناميبي وهما مثقفان مطلعان ويعملان في مكتب تجاري لشركة تجارية، وكان البحث فيما يتعلق بالدعوة الإسلامية في هذه البلاد، وقالا: إننا مهتمون بهذا الأمر وقد كلمنا السفير المصري في الموضوع، ثم أسرعا يناديان رجلاً هولندياً أحضر معه خارطة كبيرة لمشروع كبير يتضمن إنشاء مسجد جامع ومدرسة ومستوصف وروضة أطفال وذلك كله موضح في رسم المشروع، وقالا: إن هذا الرجل الهولندي هو مهندس يتعامل معنا في إنشاء المباني، وقد ساعدنا في رسم هذا المشروع على الطريقة الإسلامية في البناء لأنه مختص بذلك.

وهما متحمسان لإنشاء مسجد على أرض ذلك المشروع التي قالا: إننا سنريكم إياها غير أننا لاحظنا أنهم ليست لهم جمعية إسلامية رسمية مسجلة وأنهما لم يجمعا أي شيء من المال للمشروع، والمسلمون هنا فقراء، ومن الصعب التعويل على ما قد يتبرعون به، فأفهمناهم أن هذا المشروع كبير وأنه لا مانع من البدء بالمسجد ومعه فصول دراسية لتعليم الأولاد، وأن رابطة العالم الإسلامي مستعدة لمساعدتهم على المشروع إذا تم تسجيل الجمعية وعزموا على إقامته.

واستثرت مشاعرهما في السعي لإقامة أول مسجد في ناميبيا على أيديهما لا سيما عندما ذكر لي الأخ إبراهيم الصومالي أن والده كان من المشايخ المعروفين بالعلم والدين وقلت للأخ محمد عيسى: إن كونك من أسرة كبيرة في هذه القبيلة الكبيرة (هيرورو) وقد نشأت مسلماً فإن ذلك يوجب عليك أن تبذل كل ما تستطيع لإنشاء المسجد. فذكرا أنهما يسعيان لإنشاء جمعية إسلامية باسم (إسلامك فونديشن) أي المؤسسة الإسلامية ولكن لم يتم تسجيلها حتى الآن.

مع زعيم قبيلة (هيرورو):

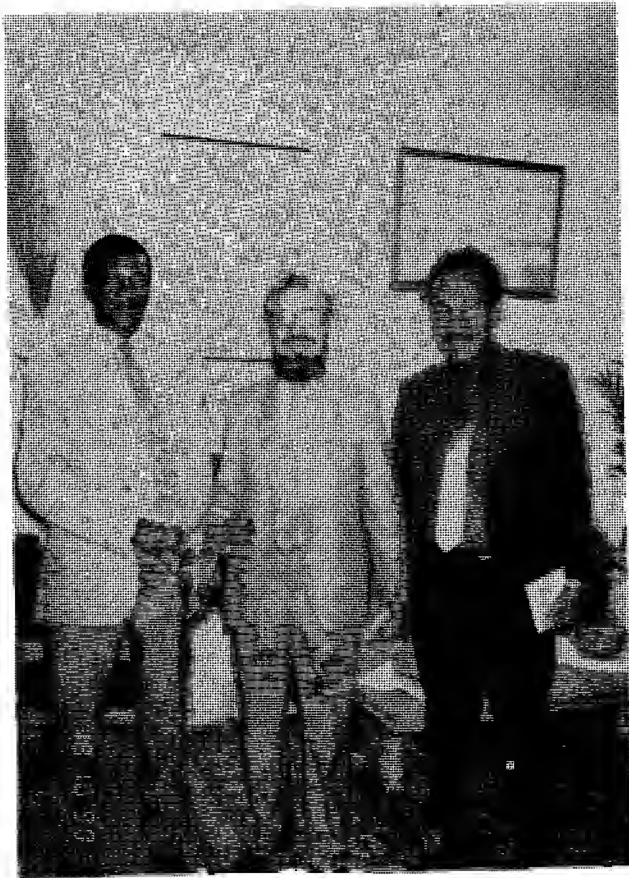
أقبل الزعيم وهم ينوهون بزعامته قبل أن يقبل فكان فارع القامة قوي الجسم، جهوري الصوت ذا شخصية قوية مما أهله لزعامة القبيلة الثانية في البلاد بعد قبيلة (أوفيمبو) التي ينتمي إليها رئيس البلاد الحالي (سام نجوما) وهو أيضاً زعيم المعارضة ويطمح إلى أن يتولى الحكم في المستقبل واسمه (كوايم ريواكو) كما سبق.

أما لونه فإنه حالك السواد، وهكذا أفراد قبيلته هم أكثر سواداً من القبيلة الرئيسية الأخرى قبيلة الرئيس وهي (أوفيمبو).

وكان محمد عيسى قد أخبرني باعتزاز بأنهم أصلهم في جهة شرق إفريقية وأن (هيرورو) مأخوذ من (هرر) المدينة المعروفة في شرق الحبشة، أو أن اسم (هرر) المدينة مأخوذ من اسمهم، فهم يكررون العلاقة ما بين اسم قبيلتهم (هيرورو) واسم مدينة هرر.

وعندما جلس الزعيم وتطرق الحديث إلى أصلهم المذكور قال وهو ينظر إلى خارطة للقارة الإفريقية معلقة في المكتب، ويشير إلى شرق إفريقية حيث تلتقي حدود الحبشة مع حدود السودان، لقد أحضرنا معنا طريقتنا في الكتابة التي تشبه الكتابة الهيروغليفية إذ كنا نكتب عن طريق رسم الصور للطيور ونحوها ولكن عندما جاء الأوروبيون إلى إفريقية ترك الناس هذه الكتابة واستعاضوا عنها بالحروف اللاتينية.

وقال: كان أجدادنا في تلك المنطقة التي أهلها من الصوماليين، ولذلك نعتبر أنفسنا صوماليين وقد أجلاهم النوبيون عن تلك المنطقة قبل ميلاد المسيح بوقت. وقد جاؤوا إلى هذه البلاد مارين بأوغندا حيث أقاموا فترة، ومعنى أوغندا بلغتنا لا يزال (البيت الجميل) ثم وصلنا إلى (رواندا وبورندي) ولبثنا فيها فترة تخلف فيها بعضنا هناك.



بين زعيم قبيلة هيرورو والأخ إبراهيم بن محمد الصومالي

وهنا قاطعته قائلاً: إذاً أنتم الأتوس الذي هم كانوا حكام رواندا وبورندي على قلتهم، ويقول الناس عنهم أنهم من الصوماليين، وأنهم حكموا على الأكثرية من السكان الذين يقال لهم (الهوهوت) لكونهم أي

الأتوس من الصوماليين الذين جاؤوا إلى هناك، فسر من هذه المعلومة التي سمع بها لأول مرة كما قال، وقال: هذا شاهد لما قلته. وكنت ذكرت الأتوس والهوهوت في كتاب: «في إفريقية الخضراء» عند الكلام على مملكة بورندي في ذلك الوقت.

قال: ومنا طائفة ذهبت إلى تنزانيا وأقامت مدينة (أمبيا) وذكر أن رئيس زنجبار السابق (عبيد كرومي) كان منهم.

ثم وصلوا إلى زامبيا ومنهم قبيلتان الآن في زامبيا وأخوال الرئيس كاوندا رئيس زامبيا منهم.

ثم قال وهو يتدفق في الكلام، ويفيض حماسة وفخراً بقبيلته ذات الماضي العريق التي تنتمي إلى تلك المنطقة المسلمة المجاورة للبلدان العربية: إنني أحب أن أرى بلادكم فأنا مهتم بأمور الدين، وإنني أحب الاطلاع على مبادئ الدين الإسلامي، إطلاعاً حقيقياً، خاصة وأن في بلادكم الأرض المقدسة أرض الإسلام، إنني أدرس الأديان من ناحية إنسانية.

فقلت له: إننا نرحب بك في بلادنا في جدة والرياض مثلاً، أما إذا أسلمت فإننا نرحب بك في المدينتين المقدستين مكة والمدينة.

فانطلق يتحدث عن مبادئ دينهم التقليدي التي تعتنقه القبيلة وأنه دين موروث عن الأجداد فقال: نحن نعتقد أن أرواح أجدادنا متصلة بنا، وأن المسيحية التي ينطق الغربيون أنهم قد جعلونا نعتنقها ما هي إلا قشرة لا تصل إلى أعماقنا ولا نؤمن إلا بديانتنا القديمة الأصيلة.

ولما كررت عليه العرض بأن يكون مسلماً فيكون له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين أجاب بأنني لست وحدي فأنا زعيم قبيلة كبيرة وكلهم على عاتقي.

فقلت له: يمكنك أن تسلم، وتبقى زعيماً للقبيلة وتعرض الإسلام على من أردت منهم فمن أسلم نفعه إسلامه، ومن لم يسلم لم تجبره على ذلك لأنه كان يشير إلى أنه قد يخشى من أن يؤثر ذلك على زعامته القبلية.

وقال: نحن أولاً (هريريون) لنا ثقافة ولا أعتقد أن هناك (هريرياً) أي من قبيلة (هيرورو) يقدم المسيحية على ثقافته الأصيلة.

وكان الحديث بالعربية يترجمه الأخ محمد عيسى للزعيم إلى الإنكليزية فيفهمه رفيقي الدكتور محمد مومنيات الذي لا يتكلم العربية.

وقال: إن من أهم الأشياء التي تميزنا عن القبائل الأخرى أننا نختن أبناءنا كما يفعل المسلمون، وهذه عادة قديمة لنا، كما أن هناك أسماء عندنا متوارثة قبل وصول الأوروبيين إلى إفريقية وهي تشبه الأسماء في تلك المنطقة من شرق الحبشة.

ثم ذكر بعض عقائدهم المتوارثة منها أن الذي يموت منهم يذهب إلى الله، فذكرت في ذهني شيئاً لم أقله لهم، وهو أن النساء والأطفال عندنا يقولون لمن يموت وبخاصة إذا كان صغيراً (راح لربه) فإذا سأل الطفل أهله عن ميت يعرفه لم يقولوا له: إنه مات، وإنما يقولون: راح لربه.

وإذا قال: وين فلان ـ وهو ميت ـ قالوا عند ربه.

وهذا له شاهد من القرآن قال الله تعالى: إليه ترجعون.

وكرر قوله: إنه يتمنى أن يزور أرض المقدسات وذلك ليحقق ما في قلبه، ولا أدري ماذا يقصد بذلك.

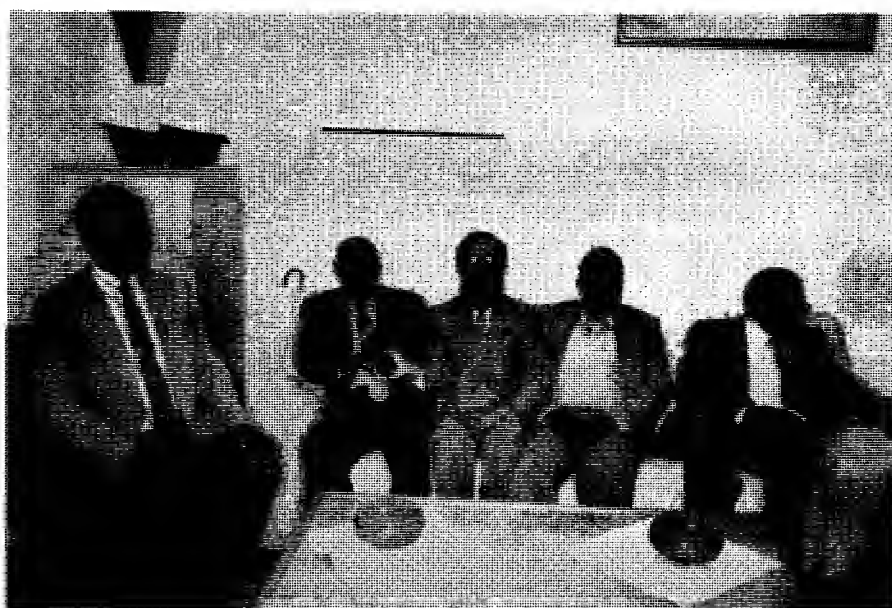
ثم أرانا كتاباً صغيراً ألّفه بالإنكليزية عن ديانة (الهيرورو) القديمة.

وقد أهديته نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنكليزية لبكتال فسر بذلك سروراً عظيماً، وذلك أنه لم يطّلع على ترجمة لمعاني القرآن الكريم من قبل.

ونوّه الأخ محمد عيسى بجهود رئيس القبيلة الذي يلقبه دائماً بالزعيم، وذكر في ذلك أن ابنة له صغيرة ماتت ولم يجد مقبرة خاصة بالمسلمين يدفنها

فيها فسعى الزعيم لدى الحكومة بنفوذه حتى حصل مقبرة صغيرة خصصوها للمسلمين منفصلة عن قبور المسيحيين وعندما أردنا توديع الزعيم بعد التقاط صور تذكارية معه أخبرنا أنه الآن إلى جانب زعامته لقبيلة (هيرورو) أكبر القبائل في ناميبيا بعد قبيلة (أوفيمبو) أخبرنا أنه الآن رئيس مجلس القبائل كلها في ناميبيا وأن القبائل لها مجلس تختار لرئاسته أحد رؤساء القبائل.

ويذكر أن قبيلة (هيرورو) يبلغ عدد أفرادها مائتي ألف نسمة وهذا عدد غير قليل إذا نظرنا إلى مجموع السكان من قبائل وغيرهم في ناميبيا الذي يقدّر بما لا يزيد الآن على مليون ونصف المليون.



بين زعماء من قبيلة الهيرورو (وندهوك)

وتمشية الليل:

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، والمدينة مضاءة الشوارع إضاءة جيدة، والأمن شامل فيما أخبرنا به أهل الفندق وقالوا: إن الإنسان يستطيع أن يسير حيث شاء هنا في أية ساعة من ليل أو نهار دون أن يخشى سارقاً أو منتهباً فالأمن شامل.

وكنت أعلّق مصورتي في كفي ومعي رفيقي الدكتور محمد مومنيات، فتمشينا في القلب التجاري للمدينة فرأينا المحلات التجارية حافلة بالبضائع، جميلة العرض، ثم دخلنا مطعماً فتعشينا فيه وهو للبيض حتى الخدم فيه من البيض.

ويذكر أنه لا توجد الآن تفرقة عنصرية فالبلاد قد استقلت، وأهلها ملكوا أمرهم، ولم يغير الرئيس (سام نجوما) شيئاً من سياسة البلاد الاقتصادية بصفة حادة، لأن ذلك قد تكون له عواقب وخيمة على اقتصادها وإنما رأى التدرج في الأمر مع السعي في أن يكتسب المواطنون السود الخبرة اللازمة لإدارة شؤون بلادهم الاقتصادية لأنهم كانوا مبعدين في السابق عن هذا الميدان.

يوم الخميس ٢٩/ ٣/ ١٤١١هـ.

كان الإفطار السخي في فندقنا فندق كالاهاري ساندز أي رمال كالاهاري ليس فيه من خصائص كالاهاري شيء، فليس فيه لحم الإبل التي تكون في الصحراء ولا التمر فاكهة الصحراء وغذاؤها، وإنما هو حافل بكل لذيذ من مأكل ومشرب، سواء منه ما كان نيئاً ومطبوخاً حتى السمك الفاخر وعلى رأسه شرائح السلمون المدخن موجود بوفرة. واللحوم الأخرى كثيرة تختار مما يحتاج إلى طبخ منها فتطلب من طباخين ثلاثة أن يطبخه أحدهم أو يشويه لك فيصدع بالأمر وينجزه لك عاجلاً.

ولا يكدر من ذلك إلا أنه يقلي لحم الخنزير وغيره على مقلاة كبيرة واحدة، فكرهت كل ما يقلى لهذا السبب وأمعنت أكلاً في شرائح السلمون المدخن وغيره من أطايب هذا المطعم.

وجودة الإفطار في مطاعم إفريقية الجنوبية الراقية أمر عرفته منذ الزيارة الأولى، وبخاصة ما يتعلق بالأسماك التي تجدها أنواعاً منوعة معروضة لديك، موضوعة بين يديك. وأنواع الفواكه مما لا يكون مثله في طعام الإفطار إلا في البرازيل.

أمنية لم تتحقق:

حرصت منذ لحظة وصولي إلى هذه البلاد على القيام برحلة إلى

صحراء كالاهاري، للاطلاع عليها ومقارنة ما أراه فيها بما رأيته في الصحارى الأخرى في العالم، فقد رأينا الصحراء الإفريقية الكبرى وزرت مدينة شهيرة من مدنها هي (أغاديس) في النيجر على الطريق الرئيسي ما بين النيجر والجزائر، ورأيت صحراء (غوبي) في شمال الصين الشعبية وفي إقليم (تركستان الشرقية) الذي أسماه الصينيون (سيكيانغ) ثم زرت جانباً من صحراء المغول في شمال الصين وبقيت هذه الصحراء الإفريقية الجنوبية نائية بجانبها عني، معتزة برمالها الحمر وأهاليها السمر مع أنني لامست أطرافها، دون أن ألج أكنافها في جانب من جوانبها وهو الواقع في (بتسوانا) المجاورة عندما زرتها وكتبت ذلك في كتاب «صلة الحديث عن إفريقية».

وقد طلبت من الأخ الكريم (إبراهيم محمد محمود عرسه) الصومالي أن يبحث لي في شركات السياحة عن رحلة إلى صحراء كالاهاري مناسبة لما خصصته من وقت لهذه الرحلة وحتى إذا لم تكن هناك رحلات سياحية فإنه يمكنني أن أسافر بالطائرة إلى هناك ومن ثم القيام بجولة خاصة هناك.

فجاء إليّ يسعى يقول: إنه وجد طائرة تسافر إلى الصحراء الساعة العاشرة والنصف من ضحى هذا اليوم وتعود غداً.

ولما كان هذا الموعد غير مناسب بسبب تعارضه مع موعد مقابلة الرئيس (سام نجوما) الذي سيكون في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر فقد طلبت منه البحث عن غير ذلك فأفاد أنه لا توجد رحلة أخرى إلا في يوم الثلاثاء القادم، إلا ما يكون من أمر استئجار طائرة خاصة وأدلاء ومرافقين وذلك يحتاج إلى أجرة كبيرة ولا يصل إلى حيث البلاد التي توجد فيها إبل من هذه الصحراء، فالإبل موجودة في (بتسوانا) كما قال.

وهنا غلبني الأسف، على أمنية لم تتحقق راجياً أن تتحقق في المستقبل بإذن الله.

مقابلة رئيس الجمهورية:

تم تنظيم موعد المقابلة مع رئيس الجمهورية من قبل الأخ السفير المصري الذي طلب ذلك من وزارة خارجية هذه البلاد، فرحبوا بذلك وحددوا له الساعة الحادية عشرة من ضحى هذا اليوم.

وكان السفير المصري قد أخبرني أن الزيارة مفيدة للعمل الإسلامي إذ تستطيع أن تشرح للرئيس ما تريد حول أوضاع المسلمين، وكنت قلت له: إنني ليس من طبيعتي الحرص على مقابلة المسؤولين والرؤساء في البلدان التي أزورها إلا إذا كانت في تلك المقابلة مصلحة إسلامية مرجوة، وأما المقابلة لمجرد اللقاء فإنني من أزهد الناس فيه لأنه لا يفيدني، ولا يهم أحداً غيري.

انطلقنا من السفارة المصرية ومعنا السفير الأخ (حسين الصدر) فركبنا في سيارته (الدبلوماسية) حتى وصلنا القصر الجمهوري في مكان غير بعيد من فندقنا ومن مقر السفارة المصرية.

وعند الباب الخارجي للقصر الذي وصلنا إليه قبل الحادية عشرة بخمس دقائق كان أحد الموظفين يستقبلنا مرحباً ثم يصحبنا إلى داخل القصر، ولم أر معه أحداً إلا جندياً عند الباب الخارجي وجندياً آخر عند الباب الداخلي وهؤلاء هم كل من رأيناهم من الأشخاص فيه.

اخترقنا بهو القصر المسقوف إلى قاعة غير واسعة فصعدنا درجة واحدة إلى حيث ممر متسع قد وضعوا فيه عدة كراسي غير فاخرة ولكنها نظيفة فأجلسنا الموظف وهو يرحب بي. وجلس معنا.

ثم دخل رجل إفريقي يحمل أباريق الشاي والقهوة وقد لبس لباس المراسم فيداه في قفازين نظيفين وعلى رأسه طاقية بيضاء، ولكنه نسي أن يدخل

جزءاً من قميصه داخل سرواله فبدا القميص خارج السروال، وترافقه امرأة إفريقية معها الحليب والسكر.

سكب لمن يريد منا القهوة والشاي في فنجانه ونحن ثلاثة السفير المصري وأنا والدكتور محمد مومنيات.

ودخل الرئيس:

دخل الرئيس إلينا قادماً من مكتب يفتح مباشرة على هذا المكان الذي نحن جالسون فيه وهو وحده لا يصحبه أحد، وهو يقول هاشاً باشاً - بالعربية - أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً. ثم سلم ورحَّب ترحيباً حاراً وانطلق مسرعاً في الكلام قائلاً، بعد الترحيب المعتاد: إنك أول شخصية سعودية تزور بلادنا بعد الإستقلال، ولذلك نرحب بك كثيراً.

لقد زرت المملكة العربية السعودية مرتين، وقابلت الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية وقد ساعدتنا بلادكم.

ثم قال: إنني أعرف البلدان العربية وزرت أكثرها وإننا نأسف ونحزن للوضع القائم بين العراق والكويت الآن، لأننا نعرف أن العراقيين والكويتيين إخوان، وإننا نؤيد قرارات الأمم المتحدة التي صدرت حول الموضوع، وإن أي حرب تنشب في الشرق الأوسط تؤثر على الناس في هذه البلاد وغيرها.

لذلك ينبغي أن نتعاون بل أن نتحد في تطبيق قرارات الأمم المتحدة المتمثلة في مجلس الأمن الدولي.

ثم عاد للكلام عن المملكة العربية السعودية فقال: إننا نريد إقامة علاقات دبلوماسية مع بلادكم، فنحن أولى بإقامة هذه العلاقات معكم من الأوروبيين.

وقال: إننا نستطيع أن نقيم علاقات اقتصادية أيضاً فلدينا اللحوم الجيدة

الكثيرة ونحن أقرب إليكم من أستراليا ونيوزيلندا، وعندنا كميات كبيرة من الأسماك يمكن تصديرها إليكم، وكذلك جلود الحيوان. ثم قال: إن بلادنا فيها ثروة غير الثروة الحيوانية ففيها معادن ولكنها تحتاج إلى عناية.

ثم أضاف في الحديث بطيبة ولطف معشر وهو لا يكف عن الإبتسام، وإذا لم يفعل فإن عضلات وجهه كلها تبتسم، فقال: نحن الآن مستقلون ولكن ذلك من الناحية السياسية فقط. أما الإقتصاد والإدارة فإنها لا تزال مع البيض.

وذلك أن البلاد كانت تعاني في السابق من التفرقة العنصرية، ولذلك بقي معظم أهل البلاد بدون تعليم، ولأن الناس كلهم سواء، ولا توجد تفرقة عنصرية ضد أحد، يقصد بذلك البيض يريد أن السود لا يتعصبون ضد البيض. وهذا هو الذي رأيناه منهم.

وكان يفيض في الود ويخرج من نقطة إلى نقطة في الموضوع الواحد، وذلك ناشىء بطبيعة الحال عن اعتياده على الخطابة والحديث المشروح المعلل أثناء كفاحه الطويل على رأس منظمة تحرير جنوب غرب إفريقية (سوابو).

وقد رددت على كلامه بالشكر على استقباله والسماح لنا بهذا القدر من وقته الثمين، ثم أبلغته تحيات الملك فهد والمسؤولين في المملكة وقلت له: إنني من رابطة العالم الإسلامي ولست موظفاً في وزارة الخارجية السعودية وإن كنت أحمل جواز سفر دبلوماسياً ومع ذلك سوف أبلغ حكومتي بصفتي مواطناً سعودياً كل ما سمعته من فخامتكم.

وشرحت له مهمة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة واهتمامها بالعلاقات الثقافية بين الشعوب، وحرصها على تقوية الروابط مع الإخوة

المسلمين في هذه البلاد وغيرها لأن ذلك يوطد العلاقات الثقافية بين الشعوب التي يعيش فيها المسلمون وبين الشعوب الإسلامية في العالم.

وقلت: إننا كنا نتابع كفاحكم الطويل من أجل الإستقلال، وتحملكم المتاعب الجسيمة في ذلك، وإنني عندما قابلتكم عرفت فيها خصلة أخرى كان الناس ظنوا أنها ذهبت مع حكماء إفريقية وزعماء الإستقلال فيها مثل (جوموكينياتا) و(ليوبولد سنقور) ولكنني وجدت الآن أن فخامتكم تمثلون ـ من غير شك ـ أحد هؤلاء الزعماء الإفريقيين الحكماء.

فرد على كلامي بقوله بالعربية: شكراً، وقال أرجو إبلاغي تحياتي للملك فهد والمسؤولين في رابطة العالم الإسلامي.

وهنا أردت الإنصراف ولكنه استبقاني وقال: ينبغي أن تشرب الشاي، ثم أخذ يفيض في الحديث عن الموضوعات السابقة وغيرها.

وكان يتحدث بالإنكليزية، ولا أحتاج إلى ترجمة ولكنني أرد عليه بالعربية فيترجم كلامي إلى الإنكليزية السفير المصري حسين الصدر.

وهنا استأذنت في القيام فاستبقاني مرة ثانية ثم ثالثة وأخذ يجامل في المعاملة، وكأنما هو يستقبل ضيفاً رسمياً جاء لمهمة رسمية مع أنني ليس لي شيء من هذه الصفة وإنما ظن من جوازي (الدبلوماسي) ومن موقعي في رابطة العالم الإسلامي أن لي صفة كبيرة في بلادي وفي المرة الثالثة استأذنته في الوداع وقدمت له نسخة من ترجمة معاني القرآن باللغة الإنكليزية وقلت له إن القرآن الكريم هو دستورنا وهو أغلى كتاب لدينا، وإنه يسرني أن أقدم لكم هذه النسخة منه.

فأجاب بالعربية: شكراً، شكراً.

ثم أخذ يتكلم أيضاً، ولاحظت أنه لم يحضر اللقاء أحد من المصورين

لا من الصحافة ولا من التلفزة كما أنه لم يزد عدد الحاضرين على ذلك الشخص الذي استقبلنا.

ثم نهض يودعنا وسار من المكان الذي كنا فيه إلى القاعة، وهو يسايرنا وأنا أقول له شكراً، بالعربية، لأنه يفهم معنى هذه الكلمة فيصافحني مودعاً وهو يقول: شكراً ـ مع السلامة ـ بالعربية أيضاً، ولكنه يسير بجانبي حتى خرجنا من القاعة إلى البهو، ثم أبى أن يتركنا حتى خرجنا من البهو إلى الباب الخارجي فخرج معنا إلى الحديقة لا يفصله عن باب القصر الذي يقع على الشارع إلا ثلاثة أمتار أو أربعة.

كل ذلك من باب المجاملة، والتقطنا صوراً تذكارية معه، ثم انصرفنا شاكرين وهو يلاحقنا بقوله بالعربية، مع السلامة، مع السلامة.

وأنا أعجب من تواضعه، وعدم تكلفه المراسم، لأن رئيس الدولة، لا يلزمه العرف بتوديع رجل في مثل رتبتي بهذه الطريقة، وإنما يلزمه ذلك بالنسبة لرؤساء الدول، لأنه حتى وزراء الخارجية ليس مطلوباً من الرئيس عرفاً أن يسير معهم من داخل القصر ويخرج إلى حديقته وقرب باب الخروج إلى الشارع.

إلى أوكا هانجا:

في الساعة الثانية بعد الظهر غادرنا فندقنا على سيارة المرسيدس التي استأجرناها يقودها هذه المرة شاب ناميبي من قبيلة (هيرورو) فارع القوام، فاحم السواد كما هو حال أكثرهم بخلاف الرئيس (سام نجوما) الذي هو يعتبر من السود ولكن لونه فيه شيء من لون النحاس الصديء.

ومعنا في السيارة الأخوان: العربي الصومالي إبراهيم عرسه، والمستعرب بلسانه وبأسرته الأخ محمد عيسى وهو الذي أحضر الشاب الذي

يقود السيارة، وذكر أنه شاب مثقف، أنهى تعليمه مؤخراً في ليبيريا وهو يعرف المنطقة، وأقدر على قيادة السيارة من الأخ الدكتور مومنيات الذي يبلغ الثانية والستين من العمر واسم ذلك الشاب ثيو انتوبالي ذكر لنا أنه يحب الإسلام لأنه قريب من تقاليد قبيلته (الهيرورو) والغرض من الذهاب هو رؤية ريف ناميبيا من جهة غير جهة المطار، ثم الجولة مع هؤلاء الأخوين الكريمين على أحياء مدينة وندهوك بعد ذلك.

وسيكون هدفنا رؤية بلدة اسمها (أوكاهانجا) وتبعد ٦٢ كيلومتراً من وندهوك ولكنه ليس الهدف الوحيد، فسنتجاوزها إلى حديقة للحيوانات الطليقة بعدها بعدة كيلومترات.

خرجنا مع ضاحية وندهوك الجيدة التي مررنا بها عند الذهاب للمركز الإسلامي عصر أمس. ثم تجاوزناها بقليل ومررنا بمستشفى للسود نوهوا بوجوده وأنه خاص بالمواطنين السود لا يدخله غيرهم من أهل الألوان الأخرى.

والألوان هنا ثلاثة هي البيض والملونون والسود. وليس ما عليه الأمر في جنوب إفريقية العنصرية حيث يوجد صنف رابع وهم الآسيويون. فهم هنا لا يوجدون، وكانت الحكومة العنصرية تمنع أن يسافر إحدى رعاياها الآسيويين والسود إلى ناميبيا، وتسهل سفر البيض، لأنها تريد أن يكون اقتصاد هذه البلاد التي كانت منتدبة لإدارتها خالصاً للبيض وحدهم.

هكذا كان الأمر قبل استقلال (ناميبيا) وأما الآن فإن المتوقع في مثل هذه الحال أن يكون هناك تمييز عنصري من السود ضد البيض انتقاماً مما عمله البيض بهم، ولكن الذين سمعناه من الرئيس ومن غيره ولمسناه بأنفسنا أنه لا يوجد تمييز ضد البيض، فكل شيء الآن على ما كان عليه قبل الإستقلال، ما عدا الأمور السياسية الرئيسية والسياسية العنصرية بطبيعة الحال.

والواقع أن الحكمة تقتضي ذلك فكل شيء في الإقتصاد والإدارة كان بأيدي البيض، وليست لدى السود أهلية لأن يحلوا محلهم في الوقت الحاضر، بل يحتاجون إلى وقت طويل حتى يصبحوا قادرين على ذلك. ولدينا شاهد على ما كانت عليه الحال في كينيا، فقد رأى الزعيم الراحل جومو كينياتا ما رآه زعيم ناميبيا الآن (سام نجوما) أن يبقى كل شيء على ما كان عليه من ناحية الإدارة والإقتصاد إلى أن يتأهل المواطنون الأفارقة بالتدريب وبمضي الوقت لأن يحلوا محلهم.

وهكذا كان، فالذين يتولون الأمور الإقتصادية والإدارية في كينيا في الوقت الحاضر هم المواطنون الأفارقة، إلا من ندر من الخبراء ومديري المؤسسات البيض الذي لا يكاد بلد نامٍ يستغني عن خبرتهم.

المنطقة الصناعية:

مررنا بها فرأيناها ضيقة قليلة المصانع، وقال المرافقون: إن هذا كان نتيجة لسياسة حكومة جنوب إفريقية التي كانت تدير هذه البلاد، فتقطف من خيراتها ما يسهل الحصول عليه من الذهب والماس والثروة الحيوانية والسمكية، أما التصنيع فإن مجاله في بلاد إفريقية العنصرية، وتستورد (ناميبيا) ما تحتاجه مما تنتجه مصانعها.

ثم ابتدأنا السير في الريف وأكثر ما ظهر فيه محطة لتوليد الكهرباء تدار بالفحم.

ووقعنا في الريف بسرعة، فليس هناك مزارع مثلاً ما بينه وبين المدينة ملاصقة لضواحيها أو بساتين.

فكان منظر الريف هو منظر الحشائش الكثيفة الجافة التي تنتظر الماشية التي ترعاها وهي بكثافة عجيبة لا شك في أنها ثروة عظيمة لو أمكن استغلالها

استغلالاً كاملاً بالتوسع في تربية الماشية لدرت على البلاد أموالاً طائلة، وليس هذا الكلام من وحي ما رأيناه من هذه الأعشاب في هذه البقعة الضيقة وإنما هو مما رأيناه أمس في طريق المطار ومما حدثنا به مرافقونا عن امتداد الأراضي التي تكسوها هذه الأعشاب الملتفة إلى مسافات شاسعة.



المراعي والأعشاب الكثيفة في ريف وندهوك

وكل هذه الأعشاب البرية وإن شئت قلت: الوحشية هي جافة الآن فالموسم ليس موسم الأمطار الآن، وإنما تأتي الأمطار إليهم في موسم معين مطير لا يكاد المطر يخلفهم، تليه فترة جفاف طويلة، ما يوفر أعشاباً جيدة للرعي.

وتكاثفت أشجار الطلح الصحراوية الخضر، وقد أسميتها الطَّلْح أخذاً من تسمية أمثالها بالطلح وإن شئت قلت: الدَّوْح، وإلا فإنني لا أحق أن تكون هي بعينها أشجار الطلح المعروفة في بلادنا.

قرية بروك ووتر:

مررنا بقرية صغيرة اسمها (بروك ووتر) وجدنا بعض الحشائش الكثيفة في ضواحيها محروقة، قال أصحابنا: إن ذلك يكون أخصب للأرض في موسم الأمطار القادمة، ولأنهم لا يحتاجون الآن لهذه الحشائش والأعشاب للرعي لوفرة المرعى عندهم. وذكروا أن النار إذا أحرقت الأرض تقتل ما قد يكون فيها من أعشاب ضارة أو نحوها فهي تنبت كثيفة بعد الأمطار.

وتجاوزناها إلى منطقة بعدها ذكروا أنها مهمة في تاريخهم وذلك أنها بدأت منها المناوشات بين المستعمرين الألمان الذين كانوا يستعمرون منطقة (جنوب غرب إفريقية) هذه التي صارت تسمى الآن ناميبيا، وبين قبيلة (هيرورو) التي تسكن هذه المنطقة.

ويذكر بهذه المناسبة أن مدينة (أوكاهانجا) التي نقصدها تعتبر الآن مركزاً لقبيلة (الهيرورو) ثانية القبائل من حيث عدد السكان في البلاد.

ولم نر هنا أي أثر لحيوان أو طير رغم هذه المراتع الخصبة، وما توفره من بيئة صالحة لذلك، غير أن الخصب وافر، والبلاد واسعة والسكان فيها قليل.

ثم ضاق الطريق مع أنه لا يزال جيد الزفلتة وظهرت إلى جهة اليمين جبال جرد رمادية اللون، ولا قرى أو مزارع. وحتى السيارات كانت قليلة وأكثرها من سيارات الركوب الصغيرة وفيها سيارات نقل قليلة.

ولمناسبة سيارات النقل نقول: إن (ناميبيا) هذه تعتبر في ركن، بل

زاوية منزوية من العالم فليس طريق بلد من بلد آخر، إذ ليس بعدها من جهة الجنوب والغرب إلا البحر ومن جهة الشمال هناك جارتها أنغولا التي تعاني من الحروب الداخلية والآفات الإقتصادية ما شغلها عن أن يكون فيها نفع لجارتها إلا نفع احتضان المقاومين أثناء السعي للإستقلال.

وأما جارتها من جهة الشرق فإنها جنوب إفريقية التي كانت تحكمها، بل تستعمرها قبل الإستقلال ولا تزال تسيطر عليها إقتصادياً وإدارياً، ولكن مواطنيها لا يمرون بها في ذهابهم إلى جهة أخرى من العالم.

والطريق متجه إلى (أوكاهانجا) جهة الشمال وما زالت التلال تماشينا لا تنقطع، والأعشاب اليابسة تملأ وجه الأرض، والأشجار الصحراوية الكبيرة النضرة ترصع هذه الأرض الصحراوية الناميبية البعيدة عن صحارى العالم المعروفة.

ثم مر الطريق فوق جسر يمر تحته القطار وبقربه لافتة تشير إلى جهة سد يتجمع فيه ماء المطر فيرسلونه إلى حيث يحتاجونه. ولا أنهار هنا مطلقاً، ولا نهيرات أو ينابيع جارية.

هذه أوكاهانجا:

في الثالثة والنصف وصلنا بلدة (أوكاهانجا) وفوجئت فيها بشيئين أولهما أن شارعها العام الواقع على الطريق العام مبني كله ببناء اسمنتي حديث وليس فيه من طراز الإفريق شيء، وتزينه أرصفة مبلطة على جانبيه جيدة المظهر أيضاً، وهو نظيف والمتاجر التي عليه نظيفة، بل هو أحسن من كثير من الشوارع التجارية في المدن الإفريقية المستقلة من حيث نظافة البناء وترتيب السوق، وكذلك البضائع التي في حوانيته معروضة عرضاً حديثاً جيداً، وأكثرها بل كلها حديثة مستوردة.

والثاني أن هذه المدينة وهي مركز قبيلة (الهيرورو) التي تتميز باللون

السائد في شرق إفريقية في أوغندا وشرق الحبشة يوجد في شوارعها عدد كبير من الملونين وهم الذين ولدوا نتيجة الإتصال بين البيض والسود.

وقد أخبرونا أن هؤلاء الملونين كانوا منفصلين في الماضي عن السود تطبيقاً للسياسة العنصرية المتبعة في هذه البلاد إبان حكم البيض من حكام جنوب إفريقية، ولكن الأمر اختلف الآن.

وقفت هنيهة في سوق البلدة أستجلي معالمه وأطل منه على بقية البلدة التي لا تؤلف بيوتاً متراصة متلاصقة، وإنما تتناثر فيها البيوت على البعد، وإن كانت بيوتها ليست كلها في جودة المباني الواقعة على السوق.



نساء الهيرورو

واسترعى انتباهي أكثر لباس نساء (الهيرورو) وهو لباس سابغ طويل منتفخ من الأسفل، حتى يخيل إليك إذا رأيت بعض النساء المتقدمات في السن يلبسنه أنهن فيه في خيمة واقفة ضيقة تمشي. . ونوه الإخوة بأن من عادة نساء الهيرورو التستر وعدم إبراز شيء من الجسم ما عدا الوجه والكفين وشيئاً من اليدين، وكان الجو شامساً منذ وصولنا والهواء ربيعياً جافاً ذكرنا بهواء آخر الربيع في بلادنا.

حديقة الحيوان الطليق:

لم نطل المكث في هذه البلدة (أوكاهانجا) وإنما غادرناها إلى جهة الشمال التي تبتعد عن جهة العاصمة نطلب حديقة للحيوان الطليق، مؤملاً أن أطلع فيها على حيوان نادر النوع، أو نادر الشكل. ولو كان من فصيلة معروفة، وكان حرصي منصباً على رؤية الإبل الصحراوية الناميبية، نسبة إلى هذه البلاد. . أو الكالاهارية نسبة إلى صحراء كالاهاري التي تعيش فيها، وكنت رأيت بعضها محنطة في متحف في مدينة كيب تاون في جنوب إفريقية فأعجبتني رشاقتها وجمال منظرها، وإن كانت لا تتحرك.

وقد زاد إعجابي بها عندما رأيت الإبل الصينية، والإبل المغولية والبخارية أو على الأعم التركستانية فرأيتها أقصر قامات، وأقل رشاقة من إبل صحراء كالاهاري هذه وهي أيضاً أقل رشاقة من إبلنا العربية.

أما هذه الإبل الإفريقية الجنوبية كما رأيتها محنطة في المتحف فإنها تشبه الإبل العمانية وبعض الإبل السودانية في ارتفاعها عن الأرض، ورشاقة أجسامها وضمور بطونها.

وبعد أن وصلنا إلى الحديقة المنشودة بعد سؤال واستخبار وجدنا بأنها مغلقة بسلاسل الحديد، ولا يوجد من يفتحه. ثم صادفنا رجلاً أخبرنا أن أكثر الحيوان الذي كان موجوداً فيها قد نقل إلى مكان آخر، ولذلك أغلقت.

غير أننا قبل أن نبتعد عنها رأينا من خلال سورها من شبك الحديد القوي زرافات طليقة ترعى فيها، وبعض الحمر الوحشية المخططة التي تسمى (حمار الزرد) وهي ترعى فيها كما ترعى في الأرض الفضاء.

وذلك أن هذه المنطقة غنية بالأعشاب، وقد غرست فيها أشجار من أشجار الظل قديمة، ونمت فيها.

ولم نر من خارج الحديقة غير هذين الحيوانين.

ثم ذهبنا مع الطريق حوالي عشرة كيلات، فلم يتغير المنظر من الطريق إلا في المزيد من أعشاب الراي الكثيفة الجافة، ومن مظاهر الجو الصحراوي الجاف لولا هذه الأعشاب الكثيفة. والأشجار الصحراوية الخضر الكبيرة.

إحدى عشرة لغة رسمية:

بدأنا العودة إلى (وندهوك) مع الطريق الذي جئنا منه إلى (أوكاهانجا) وإن كنا سنتركه قبل أن نصل العاصمة لأننا سنجول في بعض الأحياء والضواحي فيها.

وتطرق الحديث إلى اللغة الرسمية في البلاد، فذكروا أنه كانت هناك إحدى عشرة لغة رسمية بمعنى أن الحكومة تعترف بأهميتها، وتذيع إذاعاتها بها.

أما اللغة الرسمية الأولى فكانت الأفريكانية قبل الإستقلال لأنها لغة البيض والثانية هي الإنكليزية طبقاً لما هو سائد في جنوب إفريقية العنصرية نفسها، وبعد الإستقلال صارت الرسمية الأولى هي الإنكليزية، والأفريكانية هي الثانية، وبقية اللغات هي لغات القبائل الرئيسية الموجودة في البلاد.

ومما ينبغي ذكره هنا أن أصل التسمية بناميبيا كان لمنطقة صحراوية في غرب البلاد أطلق بعد ذلك على هذه البلاد كلها بديلاً من اسمها الطويل (جنوب غرب إفريقية)، وذلك منذ عام ١٩٦٦م.

أبعدهم بالقوة:

قبل الوصول إلى العاصمة عدلنا عن الطريق الإزفلتي الذي كنا نسير معه إلى طريق آخر تيامن منه من أجل الجولة على عدد من أحياء العاصمة.

فكان أول حي فيه حياً للسود يسمى (حي كاتاتورا) وقال لنا الإخوان العربيان والحديث أكثره كان بالعربية ما عدا ما هو مهم منه فإنه يترجم للإنكليزية ليفهمه رفيقي الدكتور محمد مومنيات: إن معنى (كاتاتورا) بلغة أهل المنطقة وهم من قبيلة (هيرورو) هو (أبعدهم بالقوة) أو أقذفهم بالقوة بعيداً.

ويراد بالبعيد هنا ما كان بعيداً من المدينة مدينة (وندهوك) إذْ كانوا في تلك المنطقة قبل الإستعمار ثم استمروا فيها قبل تطبيق السياسة العنصرية التي تحرم سكن الألوان بعضها مع بعض. فأبعدوا السود من المدينة إلى هذه المنطقة فسميت (كاتاتورا).

وقال الأخ الصومالي إبراهيم عرسه: إن معنى هذه الكلمة مثل كلمات كثيرة يؤكد لنا أن أصل (هيرورو) هو من الصومال هو نفسه في اللغة الصومالية مع اختلاف قليل طبيعي فهي في اللغة الصومالية (كوتاتورا) بمعنى احذفهم من هنا. والحقيقة أنهم حذفوا هؤلاء الأفارقة من هذا الحي الذي هو صحراوي كسائر المنطقة، وإن كان غير بعيد من العاصمة فهو يعتبر أحد أحيائها.

ولم ألاحظ على هؤلاء الأفارقة أي سوء أدب، أو حتى عدم نظافة، بل كلهم نظيف بالنسبة لأمثالهم من الإفريقيين الذين يعيشون تحت خط الإستواء الذين ألوانهم مثل ألوانهم.

هذا مع العلم بأننا لا نعني بذلك أننا نلقي اعتباراً للون، وأنه هو قد يكون سبباً للنظافة، وعدمها، وإنما المراد بذلك المقارنة في الحديث.

وقفنا في هذا الحي عند سوق صغير، ليس له طابع من حيث المعروضات وإنما كل من أراد أن يبيع فيه شيئاً عرضه وليس فيه حوانيت مبنية، وإنما هو سوق مفتوح، والبائعون جلسوا تحت ظلال مؤقتة من المشمع أو القماش.

ورأيت من بين ما فيه بائعة تبيع كرشة غنم مطبوخة وهي توقد عليها النار وتبيع للناس. فيأخذ المشتري قطعة صغيرة مثل نصف الكف أو أكبر من ذلك، ويأكلها وهو يمشي وباقي قطع الكرشة تسبح في مرق القدر ولها منظر حسن في عين من يحب أكل الكرشة هذه، ولولا الحياء من المرافقين لاشتريت منها وأكلته.

والتقطت صورة مباغتة، لبعض البائعات وبضائعهن، فلم يعرفن إلا بعد الفراغ من التصوير حيث أخبرتهن بعض رفيقاتهن بذلك فضحكن وإن كان لا يبدو عليهن الإرتياح للتصوير.

ويخالف هذا السوق الصغير كثيراً من الأسواق الإفريقية الصغيرة المشابهة له بأن فيه عدداً من الباعة من الرجال والغالب أن يكون الباعة في أمثاله من النساء.

وحي العزاب:

ويسمونه (سنقل كوارتر) بمعنى حي العزاب، أسموه بذلك لأنه كان في أول إنشائه مقتصراً على من لا أسر لهم.

وقفنا في مرتفع منه على أرض غير مزفلتة، بل تطير الريح فيه الغبار، وإذا مرت سيارة ذكرتني بما كانت عليه الطرق في بلادنا قبل ٤٠ عاماً عندما كانت تثير غباراً متصاعداً.

ويطل ذلك المرتفع من (سنقل كوارتر) على حي للملونين ويسمونهم

هنا المولدين على اعتبار أنه مولدون ما بين البيض والسود، وفراراً من كلمة الملونين. بينهما مكان منخفض من الأرض على هيئة واد متسع.

والطريق بين الحيين خالٍ من الإزفلت فكلتا الطائفتين ليستا من البيض، أو لنقل إن اللونين كليهما خارجان عن اللون الأبيض الذي يكسب صاحبه المنزلة الرفيعة، والسكن في الحي الراقي.

أرض المركز الإسلامي:

ثم وقفنا في فراغ من الأرض صحراوي تماماً، ليس فيه من أشجار الظل شيء إلا الأشجار الصحراوية، وليس من النبات إلا الأعشاب الوحشية، وليست فيه عمارة أصلاً من بناء أو زرع، وإنما هو أرض واسعة واقعة بين أحياء ثلاثة هي حي (كاتاتورا) للسود وسنقل كوارتر، وحي كوفرال للملونين.

ويقول الإخوان إبراهيم الصومالي ومحمد عيسى الهريرو: إن هذا المكان له مستقبل بين هذه الأحياء الثلاثة، وإن هذه الأرض هي أرض حكومية باعتها الحكومة علينا للمسجد، وقالوا مرة: ستبيعها الحكومة علينا، ويظهر أنهم لم يوثقوها بعد، بل إنهم لم ينتهوا من تسجيل الجمعية التي سيطلبونها باسمها، وهي (إسلامك فونديشن). وإنما هم يسعون في ذلك.

فالتقطنا صوراً تذكارية لهذه الأرض، وأخبرتهم أنني قد شهدت عشرات الأمثال لهذا الأمر وهي أن أرى أراضي المساجد بيضاً، ثم آتي بعد ذلك بمدة تقصر أو تطول فأراها مساجد مقامة ذات منائر شامخة أو قباب تشهد على أنها لبيت من بيوت الله.

وقلت لهم: أرجو أن تكون المدة التي تفصل بين رؤيتي أرض المسجد هذه، وبين رؤيتي إياه في الزيارة القادمة قصيرة أو حتى في الأخبار أو الصور

التي تبعثونها عن سير العمل في المشروع، وينبغي أن تسعوا في ذلك سعياً حثيثاً، وأن تتيقنوا أن العبء الأول في السعي في هذا العمل الجليل سيكون عليكم، وإنما على إخوانكم في رابطة العالم الإسلامي وغيرها أن يساعدوكم، ويعضدوكم في تنفيذ المشروع.

ولا شك في أنكم إذا قمتم بذلك فإن الفضل لله تعالى الذي وفقكم للقيام به، إذ لا يوفق لهذا العمل إلا من اختاره الله للعمل الصالح، ذلك بأن الإنسان إذا كان لا يزيد عمله في الدنيا على أن يأكل ويشرب ويعيش ثم يموت لن يكون فرق بينه وبين الحيوان. وإنما الذي يميز الإنسان الطيب عن غيره هو العمل الصالح.

فأمنوا على ذلك، ووعدوا خيراً.

حي كومسال:

مررنا دون أن نظل فيه طويلاً وهو مخصص للملونين الذين يسمون هنا بالمولدين وهو واسع فيه بيوت جيدة وبيوت متوسطة، ولكنه أخضر لا يخلو بيت فيه من الخضرة.

وذكروا أن عدد الملونين هؤلاء كثير، والواقع أنني لاحظت ذلك من أول وصولي إلى (ناميبيا) لأنهم موجودون في أكثر الأماكن، وبكثرة ظاهرة لم أجد لها مثيلاً إلا في بعض بلدان البرازيل وقالوا بهذه المناسبة على طريق المداعبة كانت حكومة البيض تنفعهم على اعتبار أن نصف كل واحد منهم هو من البيض. فذكرت بذلك قول المتنبي في ابن كروس وكان أعور:

أيا ابن كروس، يا نصف أعمى   وإن تفخر فيا نصف البصير

وذلك بأنه يصح أن يقال في كل واحد منهم، إنه نصف أسود، وهذا ذم عند البيض ولكنه مدح عند السود.

وعلى أية حال فإن هذا من التجوز في القول، وإلا فإن بعضهم يحتمل أنه ليس فيه إلا جزء صغير من أحد اللونين، أو جزء كبير منه، لأن ذلك حصل في أزمان متفاوتة، وربما كان المعاصرون منهم قد ورثوا التلوين من آبائهم أو حتى من أجدادهم، نظراً لعراقة الإستعمار الأبيض في المنطقة.

وأكثر ما في حي (كومسال) هذا ظهوراً عدا حدائق البيوت هي الكنائس المشرفة، ذلك بأن بيوته أكثرها من طابق واحد فتكون الكنيسة أعلى من غيرها من الأبنية سواء أكان ذلك بسبب ارتفاع في برجها أو قبتها، إن كانت لها قبة.

وقلت في نفسي: متى يكون في الحي مساجد مشرفة؟ ثم قلت: ألا إن نصر الله قريب..

ولكن تذكرت قول الله تعالى ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ ونصر الله يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

يعيشون في الفردوس:

ثم دخلنا مدينة (وندهوك) من جهة الجنوب مارين بحي للبيض غارق في الجنان التي تتمايل فيها أشجار الزهور، وترصعها المنازل الفاخرة بألوانها الزاهية، وحدائقها المنسقة، وشوارعها المتسعة، فأشار السائق المثقف ماتيو نيقويال إليها قائلاً: (إنهم يعيشون في الفردوس) يريد بذلك البيض.

فقلنا له: نعم إنها فردوس أرضي بالنسبة إلى منازل السود هنا ولكنهم الآن يسعون لحزم حقائبهم ومغادرتها عاجلاً أو آجلاً، لأنهم يعرفون أن المواطنين الأفارقة الذين يمثلون الأكثرية في البلاد قد ملكوا أمرهم، فلا بد من أن يخضعوا كل شيء في بلادهم لإرادتهم كما هي طبيعة الأشياء.

ثم جلسنا لشرب الشاي والمرطبات في مقصف كان للبيض في جلسة

ممتازة فكل شيء نظيف، وسيطرة البيض على هذا المقصف النظيف قد زالت، والذين يعملون فيه الآن هم من الأفارقة السود، ورواده كذلك مختلطون وإن كان عدد البيض فيهم أكثر من السود.

أول بيت في مدينة وندهوك:

وينبغي أن نذكر هنا اشتقاق اسمها وأنه اسم أوروبي بخلاف اسم البلاد الآن ناميبيا، فإنه اسم وطني إفريقي.

الشائع عند الناس أن (وندهوك) تعني خطافة الرياح أو الرياح الخطافة فـ(وند) ريح و(هوك) الخطافة بالإنكليزية، والخطافة هي الحديدة التي لها أسنان معكوفة تشتبك بالأشياء وتنزع بها.

ويقولون إنها أسميت (وندهوك) بهذا الاسم أخذاً من طبيعة موقعها شبه الصحراوي، وذلك لوجود ما نسميه في لغتنا العامية (المعاصير) وهي الأعاصير التي تكون على هيئة عمود قائم من الريح يلف ويدور حول نفسه ويلتقط الأشياء الخفيفة مثل الأوراق اليابسة والريش ونحوها.

ومثل هذه الرياح تكون في الأراضي الصحراوية والشبيهة بالصحراوية في وقت القائلة والظهر عندما ترتفع درجة الحرارة في وسط النهار ارتفاعاً كبيراً بالنسبة إلى ما كانت عليه في الليل.

وهذا هو ما يتبادر إلى الذهن عند رؤية الكلمة وهذا ما قرره كثير من الباحثين ولكن ينبغي أن نلاحظ أن أساس تهجئة الاسم باللاتينية (VINT) وليس (وندهوك) كما سبق في المقدمة.

وقد وقفنا اليوم عند أول مبنى بني فيها في التاريخ وهو منزل بناه المستعمرون الألمان هنا قبل قرن من الزمان.

وقد بنوه على التلة المرتفعة التي صارت تطل على حي سنتر الفاخر

المخصص للبيض والذي تغص متاجره بالبضائع، ويتردد في شوارعه البيض الذين ظن أوائلهم أنهم سيبقون هنا إلى أبد الآبدين، فزلزلوا من تحت أقدامهم وسلموا الأمر لأولي الأمر من أهل البلاد أهل الحق فيه. بل صار هذا الحي مشاعاً للجميع حتى قبل الإستقلال وذلك منذ عام ١٩٨٧م. وهو الذي يقع فيه فندقنا: فندق رمال كالاهاري.

ويقع البيت الألماني الذي هو أول مبنى حديث في مدينة (وندهوك) إلى الجنوب من حي سنتر، وغير بعيد منه على المرتفع كنيسة مشرفة تُرى من سائر أنحاء هذا الحي الراقي.

وهذا المبنى الألماني ربما كان مبنى الإدارة في أول الأمر هو من الحجارة ذو هيئة مسنمة السقف إلا أن تسنيمها غير واقف.

وكانت منطقة (وندهوك) قبل بناء هذا المبنى داخلة في منطقة نفوذ قبيلة (هوريرو) التي سبق ذكرها وكانوا يبنون بيوتهم من الطين والأعواد ويسقفونها بالقش، على هيئة الأكواخ الإفريقية المعروفة. ولا غرو في ذلك إذا عرفنا أن هذه القبيلة كانت قد جاءت إلى هذه المنطقة من شرق إفريقية حيث بلاد الصومال الغربي حول مدينة (هرر) التي تقع الآن في شرق الحبشة كما سبق.

أما القبيلة الأولى من حيث العدد في بلاد ناميبيا وهي قبيلة الرئيس الحالي (سام نجوما) واسمها (أوفيمبو) فإنها قديمة السكنى في هذه البلاد ولكن مواطنها الأصلية عندما جاء الإستعمار كانت تقع في شمال البلاد، ولا أدري مم كانوا يبنون بيوتهم قبل مجيء المستعمرين الأوروبيين.

ثم عدنا إلى فندقنا (كالاهاري ساند هوتيل) الذي يقع على شارع الإستقلال من حي (سنتر) الفاخر.

يوم الجمعة ١٩/ ١٠/ ١٩٩٠م.

كان من المقرر أن أسافر إلى «كيب تاون» وقد وضعت ذلك في تذكرتي من أجل زيارتها ولكن تبين لي أن الوقت لا يسمح بذلك فألغيت الذهاب إليها رغم أنني تلقيت البارحة مكالمات هاتفية من أصدقاء لي هناك منهم الشيخ نظيم محمد رئيس المجلس الإسلامي في جنوب إفريقية، يؤكدون دعوتي ويريدون أن يعرفوا موعد حضوري إليهم فجزاهم الله خيراً.

وهذا لا يعني ـ عندي ـ أن مدينة كيب تاون ليست لها أهمية إسلامية بل هي مدينة مهمة جداً وفيها أكبر عدد من الإخوة المسلمين المنحدرين من أصل ملايوي وغيرهم ممن صار البيض ذوو الأصل الأوروبي يسمونهم (الملونين) وفيها مساجد ومعاهد ومؤسسات إسلامية كثيرة زرت أكثرها عندما زرت جنوب إفريقية في عام ١٤٠٠هـ وذكرت ذلك في كتابي: مشاهدات في بلاد العنصريين، الذي نشره نادي القصيم الأدبي منذ سنين.

مغادرة ناميبيا:

بدأنا في الاستعداد لمغادرة هذه البلاد ولم أشف الغليل من رؤيتها لأنني كنت أريد أن أرى صحراء كالاهاري ولكن الوقت لم يكن يسمح لي بأكثر من ذلك الآن، ونسأل الله تعالى الذي إذا أراد شيئاً كان أن يقدر العودة ونحن نرى الإخوة المسلمين فيها أحسن حالاً ومسجداً فيها يقام أو مركزاً

يشاد يذكر فيه اسم الله تعالى ويسبح له فيه بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وما ذلك على الله بعزيز فقد قدر لي أن أزور بلاداً من بلاد الله زيارة أولى، ثم أعود إليها في زيارة أخرى فأجد أن كثيراً مما كنت تمنيته لها وهي أمنيات تتعلق بنصر الإسلام والمسلمين قد تحقق، أو تحققت بوادره، وبدت بشائره ولله الحمد والمنة.

ودفعنا لفندق رمال كالاهاري البعيد عن الرمال وما توحي به الرمال ما طلبه من مال، وهو مائة دولار أمريكي وتسعة دولارات لليلة الواحدة للشخص الواحد في الغرفة الواحدة.

وخرجنا على سيارتنا المستأجرة إلى المطار حيث تسلمناها من هناك فدفعنا أجرتها ليومين ٧٨٥ رانداً ويساوي ذلك ثلثمائة دولار تقريباً، وسلمناها فيه.

وهذه أجرة غالية بالنسبة إلى إيجار السيارات في بلادنا، ويلاحظ أنهم ملأوا خزان السيارة بالوقود قبل أن يسلمونا إياها فلم نحتج إلى شراء وقود لها، إلا أن الذي كلفنا أكثر مما ندفعه من النقود للوقود في بلادنا بعد ما دفعناه هنا أجرة لمواقف السيارة.

فالفندق لديه مواقف متعددة الطوابق لسيارات النزلاء، ولكنها غالية كنا ندفع عن المرة الواحدة للوقفة الطويلة ٨ راندات وعن المدة القصيرة ٣ أو ٤ راندات، وحتى أماكن الوقوف وفي شارع الإستقلال الذي يقع عليه فندقنا فيها عدادات تسجل مدة الوقوف وأجرته ولا تعمل إلا إذا وضعت فيها نقوداً وإلا كنت مخالفاً ملزماً بدفع غرامة أكبر كما هو معمول به في أوساط المدن الكبيرة المزدحمة في أوروبا وأمريكا.

وفي المطار كان كل شيء ميسراً انتهى بسرعة.

وغادرنا مطار وندهوك في الساعة العاشرة والنصف ضحى على طائرة عملاقة من طراز بوينج ٧٤٧ تابعة لخطوط ناميبيا كما كتبوا ذلك عليها.

وكان إقلاعها هذا متأخراً عن موعد إقلاعها الأصلي بخمسين دقيقة مما أثر على برنامجنا أثراً خفيفاً، وقدموا في الطائرة وجبة خفيفة كان الصحن الرئيسي فيها من لحم الخنزير قد وضعوا فوقه وتحته جبناً أصفر فتجنبناه كله. ولم نكن بحاجة إلى طعام لأننا كنا أكثرنا من طعام الفطور في الفندق الذي كان في طعامه من الأسماك أنواع منوعة منها سمك السلمون المدخن، وسمك أبيض فاخر يقلى أمامك فينضج بسرعة وتأكله حاراً.

العودة إلى جوهانسبرج:

كان مقرراً لنا أن نصلي الجمعة في جامع نور الإسلام وأن نتناول طعام الغداء في حي لينيشيا، في منزل الدكتور محمد مومنيات مع عدد من العاملين في الدعوة الإسلامية وقد هاتف أهله من وندهوك بذلك وأعدوا الطعام بالفعل، إلا أن الطائرة الناميبية تأخرت في الإقلاع وفوجئنا عندما وصلنا إلى مطار جوهانسبرج بمشكلة أخرى وهي أن ضابط الجوازات وهو شاب أبيض عندما رأى سمة الدخول التي أحملها في ورقة منفصلة عن جوازي وأنني قد استعملتها، قال: هذه لا تخوله الدخول وليست سمة كافية.

ثم دخل مكتباً في داخل المطار، وجميع من في مكاتب الجوازات في المطار وفي داخله هم من البيض، فأبطأوا علينا وكان الدكتور محمد مومنيات يحاول إقناعهم حتى ظهر من المكتب ضابط أكبر من الأول، وقال: هذا الجواز (دبلوماسي) ولا تستطيع أن تمنحه سمة الدخول عليه إلا وزارة الخارجية.

ثم أعطى الدكتور مومنيات رقماً هاتفياً لوزارة الخارجية في بريتوريا فهاتفه الدكتور مومنيات وأعطاهم المعلومات المتعلقة بالجواز، وذلك من هاتف عام في المطار يعمل بالعملة، فذكروا له أنهم يجيبونه على مكالمته من هذا الهاتف الذي يتكلم منه بعد ربع ساعة، وفي الموعد المحدد رن جرس الهاتف، وقالوا له: لقد انتهى كل شيء وأخبرنا المطار أننا قد منحناه سمة دخول غير محددة الرحلات (ملتبل) خلال المدة التي طلبها وهي تمتد إلى ٣١ اكتوبر.

فختموا على السمة (التأشيرة) التي معي ودخلنا، ولكن الوقت صار متأخراً عن صلاة الجمعة وعن حضور الغداء لأننا كنا قد حجزنا للسفر إلى (مسيرو) عاصمة دولة (ليسوتو) في الساعة الرابعة إلا ربعاً، والمسافة إلى حي (لينيشيا) هي ٦١ كيلومتراً للذهاب ومثلها للإياب.

ولم نكن قد انتهينا من مشكلة السمة إلا بعد الواحدة، فتغدينا في مطعم فاخر في مطار جوهانسبرج وأكلنا فيه سمكاً جيداً وحساءً من حساء الخضار أعد بطريقة جيدة وكان الشراب عصيراً من عصير البرتقال وبلغت قيمة الوجبتين لنا نحن الإثنين ٦٦ رانداً أي ٢٥ دولاراً أمريكياً.

مملكة ليسوتو

تعتبر مملكة (ليسوتو) دولة داخلية لأنها ليس لها منفذ بحري، وتحيط بها جمهورية جنوب إفريقية من جميع الجهات وتبلغ مساحتها ١١,٧١٦ ميلاً مربعاً.

وأغلب أرضها هضاب جبلية، وكذلك تسمى (مملكة الجبال)، وترتفع عن سطح البحر بين ٩٠٠ وألفي متر. ومناخها معتدل شتاءً، وحار صيفاً، والأمطار متوسطة صيفاً، وكثيفة الهطول شتاء.

أما نظامها السياسي فإن الملك هو أعلى سلطة في الدولة، ويتولى مجلس الوزراء في البلاد السلطة التنفيذية، وفيها مجلس للأعيان مكون من رؤساء القبائل.

و(ليسوتو) عضو في هيئة الأمم المتحدة، وفي (الكومومنولث) البريطاني. وعلاقاتها محدودة مع دول العالم ما عدا بريطانيا التي تربطها بها علاقات سياسية واقتصادية، ولكن العلاقة الكبرى المهمة هي مع (جمهورية جنوب إفريقية).

وذلك لكونها وقعت تحت الحماية البريطانية في عام ١٨٧٨م، ثم ضمها الإنكليز - إدارياً - إلى جمهورية جنوب إفريقية، ثم انفصلت عنها عام ١٨٨٤م وأصبحت تدار مباشرة من قبل حاكم عام بريطاني يعين بقرار من ملك بريطانيا، إلا أنه مرت به فترات كانت تضم فيها للحاكم العام في جنوب إفريقية.

وأخيراً استقلت عن بريطانيا في عام ١٩٦٦م.

من جوهانسبرج إلى مسيرو:

دخلنا الطائرة الصغيرة فوكر ٢٧ التي سنسافر معها إلى (مسيرو) عاصمة ليسوتو وهي تابعة لشركة (ليسوتو ايرويز) وهي مروحية ذات محركين مروحيين، فيها أربعون مقعداً في صفين، وقد امتلأت مقاعدها بالركاب وكلهم أسود اللون، ونرجو المعذرة من هذا التعريف الذي اضطررنا إليه في هذا الجزء من القارة الإفريقية اضطراراً، إذ لو قلنا كلهم إفريقي لما كان واضحاً عند الناس هنا ما إذا كانوا بيضاً أو خلاسيين أو من أصل هندي، لأن البيض هنا يسمون أنفسهم إفريقيين ويسمون لغتهم التي أصلها من الفلمنكية والهولندية (الأفريكانية).

ولم يكن في الطائرة من هم من غير السود إلا شخصان وأنا ورفيقي الدكتور محمد مومنيات.

ولم يرقموا أرقام المقاعد فكانت كما في الحديث، «منى مناخ من سبق».

ومع صغر الطائرة فإن فيها مضيفين اثنين هما فتى وفتاة من أهل ليسوتو الذين لونهم هو لون أكثرية الركاب.

ومن لطيف ما صنعوه أنهم أعطونا إستمارات القدوم إلى ليسوتو قبل أن تقلع الطائرة من مطار جوهانسبرج. وهذا أمر حسن لأن الطائرات الصغيرة كثيراً ما تضطرب عند النزول فيصعب على الراكب الكتابة فيها.

أقلعت هذه الطائرة الصغيرة في الثالثة والأربعين متأخرة عن موعد إقلاعها الأصلي بأربع دقائق، والحقيقة أنها تحركت من مجثمها في المطار في الموعد المحدد بالضبط وهو الرابعة إلا ربعاً. ثم أعلنوا البيان عن الرحلة بلغة (ليسوتو) المسماة (سيسيتو) وهي من اللغات الإفريقية التي لا يعرفها إلا أهلها غير أن أكثرية الركاب هم من أهل البلاد الذين يفهمون هذه اللغة، والطائرة طائرة وطنية لهم، ثم أعقبوا ذلك بالإنكليزية، فذكروا أن الطيران

سيستغرق ساعة واحدة. هذا مع العلم بأن المسافة لا تزيد على (٣٩٠) كيلومتراً من جوهانسبرج إلى مسيرو، إلا أن الطائرة مروحية صغيرة لا تسرع في طيرانها. كما أنها لا ترتفع كما ترتفع الطائرات النفاثة السريعة.

استمتعنا هذه المرة أكثر بمنظر مدينة جوهانسبرج وضواحيها. إذ حومت فوقها قليلاً ثم استوى اتجاهها جهة الجنوب الشرقي.

وظهرت في منطقة جوهانسبرج وخارجها آثار التعدين كثيرة ومتعددة وهي في أغلبها مناجم للذهب وقد صارت مدينة جوهانسبرج الآن خالية من هذه المناجم، لم يبق من آثار التعدين فيها إلا تلك التلال الرملية الصفر التي تقدم ذكرها.

وأما في منطقة الريف حولها فإن بعض المناجم لا تزال تعمل وهي أيضاً كثيرة متعددة تراها من الطائرة على هيئة ثقوب عديدة تكسو المنطقة.

وظهرت مزارع للخضروات وغيرها ثم دخلت الطائرة في سحاب غابت هي أو غابت الأرض عنا في لجته.

ومررنا بمستنقعات عديدة مما يدل على كثرة المياه في المنطقة، في هذا الفصل من السنة، وحولها مزارع لتربية الحيوان، وبعد ذلك رأينا نهراً يسمى نهر (فال) وتقع على يمينه ولاية البرتقال واسمها بالإنكليزية (فري أورانج ستيت) وذلك لا يعني بالترجمة الحرفية ولاية البرتقال لأن اسم (أورانج) هنا هو لواء اسمه أورانج. ويسار النهر ولاية ترانسفال التي عاصمتها مدينة جوهانسبرج.

وقد صفا الجو، وصفا معه طيران هذه الطائرة الصغيرة حتى صار صوت محركيها رتيباً كأنه صوت الرحا المستمرة بالطحن، يجلب النعاس، أكثر مما يطرده.

وقد استمرت المزارع ممتدة تحت الطائرة.

وكان الجو داخل الطائرة منعشاً يميل للبرودة بسبب ارتفاعها، إلا أنني لاحظت أن أكثر الركاب يحملون معهم معاطف أو ثياباً ثقيلة فاستنتجت من ذلك أن (ليسوتو) باردة.

وأمعنت الطائرة في طيرانها الوئيد، وامتدت المزارع تحتها.

وظهرت تلال امتدت ظلالها جهة الشرق فنحن الآن بعد العصر وذلك دليل على الإقتراب من (ليسوتو) ثم زاد ارتفاع التلال حتى صار بعضها تلالاً جبلية، إلا أن الغريب أن فيها عدداً كبيراً ذات ظهور مستوية، كأنها السهول الضيقة.



ليسوتو بلاد الجبال

وقبيل الوصول عندما بدأت الطائرة التدني ظهرت منازل صغيرة متفرقة، وكأنها منعزلة في هذه التلال التي خُيِّل إلي أنها وعرة، والقرى والتجمعات السكنية بينها قليلة مما يعطي انطباعاً بأن طائفة من الناس يسكنون في بيوت ريفية، ليست بيوت مزارعين، أو تابعة لمزارع واسعة.

وبين هذه التلال أماكن منخفضة ووديان بعضها ضيق، ولا توجد في المنطقة أرض مستوية بل كلها تلال ووديان. إلا أن الوديان فيها ليست مستقيمة ممتدة.

وزاد منظر التلال العالية الخشنة التي تبدو على شكل أكوام مكومة، وليست على شكل سلاسل جبلية منقادة، ورأينا في بعض الوديان التي تتخللها مياهاً قليلة ولكن لا أنهار فيها، فيما رأيته من الطائرة.

وظهرت المنازل المنفردة هذه أكواخاً كأكواخ الإفريقيين التقليدية، فما قرب من خط الإستواء، وإن كنا هنا بعيدين عن خط الإستواء وما قرب منه، وبعضها من الصفيح.

في مطار مسيرو:

هبطت الطائرة في الرابعة والدقيقة الخمسين أي بعد ساعة ودقيقة واحدة، في مطار صغير يليق بهذه الطائرة الصغيرة.

وعندما وقفت بادر عامل إفريقي بسُلَّم معه يدفعه بيده فنزلنا عليه، ثم ذهبنا مشياً إلى أن دخلنا مبنى المطار وهو صغير جداً بحيث أن قاعة تسلم الأمتعة وفي ركنها قاعة تفتيش الأمتعة للجمرك لا أظنها تزيد على ستة أمتار في ثمانية.

وبعد انتظار للأمتعة جاء بها ٤ من الحمالين على عربة كعربة الجرار

الزراعي وأخذوا يلقون بها من نافذة واسعة في هذه الغرفة وهم في خارجها فيتسلمها المسافرون وهم في داخل الغرفة في عملية متعبة للجميع، وليس فيها سير متحرك لنقل الأمتعة. ورأينا جيشاً من الموظفين عند الجمرك منهم ٤ ضباط و٣ ضابطات و٣ جنود، وقبل ذلك كان في استقبال المسافرين ضباط من الجوازات وهما ضابطان وضابطتان.

وكان الجميع ينهون أعمالهم بسرعة وبدقة، وبمعاملة مرنة حسنة مريحة للمسافر.

ورأيتهم يفتشون المسافرين فليس بينهم وبين جنوب إفريقية وحدة جمركية كالتي بين ناميبيا وجنوب إفريقية.

في مدينة مسيرو:

أول ما لاحظته على أهل هذه البلاد سواء منهم من كانوا في المطار والمسافرون الذين وصلوا معنا وهم من أهل البلاد بشكل مؤكد أنهم كانوا مرحين يضحكون بكثرة، ويستعملون لغتهم الإفريقية الخاصة بهم المسماة (سيسيتو) بخلاف ما رأيناه في جنوب إفريقية حيث يتكلم السكان السود باللغة الإنكليزية في الغالب وبالأفريكانية التي أصلها أوروبية في الأقل.

وقريب من ذلك الحال في مدينة وندهوك في ناميبيا وبخاصة في الحي الفاخر منها المسمى (السنتر). بحثنا عن سيارة أجرة فلم نجد مثلما كان عليه الحال في مطار وندهوك، ورأينا حافلة وحيدة واقفة مكتوباً عليها اسم شركة طيران ليسوتو التي قدمنا معها فسألنا أحد الأشخاص عما إذا كانت توصلنا إلى فندقنا الذي نقصده وهو فندق (ليسوتو صن) فأجاب السائق بالنفي، ولم يكن أمامنا إلا أن نستأجر سيارة غالية متعبة في البحث عن موقف لها كما كان عليه الحال في (وندهوك).

فبادرت إلى السائق الذي يظهر أنه لم يكن يحب أن يحملنا لكونه لا مصلحة له في ذلك وطلبت منه أن يحملنا إلى حيث موقف هذه الحافلة وسنتدبر أمرنا بعد ذلك.

وكان ذلك والسيارة تتحرك.

سارت هذه الحافلة وهي صغيرة لا يكاد محركها يدور بسرعة، ولكن القوم كانوا يتبادلون النكات بلغتهم، وكانت امرأتان منهم تشاركان رجالهم في الضحك المستمر حتى بادر جابي الحافلة فترك مقعده بجانب السائق وجلس بجانب امرأة في مؤخرة السيارة وهما يضحكان.

سارت الحافلة مع طريق إسفلتي ليس واسعاً تتقابل فيه السيارات الذاهبة للمطار والآيبة منه.

وحالما تركنا المطار رأينا على الطريق مزارع صغيرة للماشية من خيل وغنم وحمير، مع أن الحمير ليست كثيرة عند الإفريقيين السود، لأن الجو تحت خط الإستواء، لا يناسبها، ولكن هذه البلاد (الليسوتية) بعيدة عن خط الإستواء جنوباً، بل إنها تكاد تعادل في بعدها عنه جنوباً ما يعادله في الموقع بُعد بلادنا عنه شمالاً.

وفيه منازل متباعدة من لبن الإسمنت مسقفة بالصفيح.

ثم انحدر الطريق من مرتفع كان فيه المطار إلى أماكن أقل ارتفاعاً فيها مزارع ضيقة جداً رأيت بعض المنازل فيه مبنية من لبن الإسمنت وقد وضع فوقها الصفيح دون تثبيت إلا من قطع من الحجارة الثقيلة وضعت فوقه لئلا تطيره الريح، ولا أدري لِمَ لم يثبتوها بالمسامير، مع أنها ليست الغالبة على البيوت المسقفة في الصفيح وإنما هي موجودة على قلة.

وقد رأينا الأكواخ الإفريقية التقليدية الهرمية الشكل.

ومررنا بجمهور محتشد في محطات للحافلات فرأيتهم كما رأيت مواطني هذه البلاد في المطار شعباً إفريقياً استوائياً ـ نسبة إلى خط الإستواء ـ أصيلاً في ذلك، إلا أن ذوي اللون الفاحم فيهم ليسوا الأكثرية بينهم، وإن كانوا موجودين وإنما الأكثرية هم السود سواداً معتاداً وفيهم نسبة من الذين خفت حدة سوادهم حتى صارت في لون النحاس الصديء.

وربما كان ذلك من مقاربة أجداد لهم أو أقارب ممن يؤثرون فيهم بالوراثة من البيض يساعد على ذلك عيشهم في هذا الجو البعيد من خط الإستواء الذي لو كان فيه سكان قدماء أصلاء، لكان القياس أن يكونوا من السمر الذين يميل لونهم إلى البياض، مثلهم في ذلك مثل سكان الجزيرة ومن يعيشون على خط عرض مماثل لخط العرض الذي تقع عليه الجزيرة العربية.

ولكن الوضع بالنسبة لهؤلاء القوم مختلف، لأنهم ليسوا من السكان الأصلاء القدماء في هذه المنطقة وإنما قدموا إليها من خط الإستواء قبل مدة لم تكن لتنفض عنها غبار خط الإستواء وسواده.

ويسترعي الإنتباه هنا أن كثيراً منهم عليهم اللباس الثقيل، وبعضهم كأهل شمال الهند يلبسون (البطانيات) والأردية فوق لباسهم المعتاد يخرجون بذلك اللباس إلى الشوارع أو يذهبون لقضاء حوائجهم وهم كذلك.

وقد شعرنا بالبرد بالفعل، وإن كان الليل لم يحن بعد. وإن لم يكن البرد شديداً ولكنه أكثر من برد جوهانسبرج الأمر الذي لم نكن نتوقعه، وبخاصة مع سواد الناس أي ألوانهم السود السائدة في البلاد.

ومما يزيد الشعور بالبرد غير رؤية الأردية و(البطانيات) وربما أغطية الفراش الأخرى على الناس في الشوارع منظر بعض الأشجار الخضر التي تشبه السرو على البعد الذي ينبت غالباً في البلدان الباردة. والأرض مفروشة بأعشاب ملتفة يابسة، ولكنها دون الأعشاب التي رأيناها في ناميبيا.



ضاحية في مدينة مسيرو

ثم البيوت المتفرقة التي رأيناها من الطائرة وتكون في الغالب من حجرة أو من أكثر من حجرة تفتح بعضها على بعض تبدو من الخارج كأنها الغرفة الواحدة ولا يجعلون لها سوراً خارجياً يطيف بها كما يفعل السكان تحت خط الإستواء حيث يستعملون في أكثر الأحيان العيدان وأحياناً الحصر لإحاطة فناء خارجي مكشوف بالبيت المنفرد.

وليس في هذه الحافلة الصغيرة الممتلئة بالركاب أحد من غير السود إلا نحن. وأسلاك الهاتف ممتدة في الهواء فوق أعمدة من الخشب وهي تماشي طريق المطار.

ثم وصلنا أطراف المدينة وكل بيوتها في هذه الأطراف من طابق واحد، وفيها أشجار ظل مغروسة، وتكثر فيها هياكل السيارات الخربة، ورأينا فيها بيوتاً من الطين من طابق واحد أيضاً.

وجميع أراضي هذه الضواحي غير مستوية، بل فيها مرتفعات ومنخفضات من أصل طبيعة الأرض في المدينة، بل في المنطقة المحيطة بها كلها.

ثم وصلنا إلى أطراف المدينة الجيدة وهي مبنية في أغلبها من المسلح وفي بيوتها حدائق غير واسعة كثيراً ما تقتصر على أشجار الظل.

وسرعان ما وصلنا قلب المدينة التجاري فأوقف السائق حافلته في طرف منه وسط زحام مزعج من الأناسي والسيارات وهو لا يكاد يشق طريقه وسط زحام الناس وكلهم كالذين وصفتهم من الأفارقة الأصلاء، وأقل ما فيهم وجاهة ملابسهم، فهم في هذا الأمر أقل من أهل ناميبيا الذين يعتنون بمظهرهم.

ثم أنزل ركابهم فطلبت سيارة أجرة فنادى على سيارة ذات ثلاث مراتب، سيئة المظهر وهو يقول، تاكسي.

أركبنا السائق ولا بد من أن يركبنا بنفسه لأن الباب لم يكن يفتح من الخارج وكل ما فيها خرب ولا مقابض للأبواب من الداخل بل هي غير موجودة والمقاعد فيها قد خرج ما فيها من الحشو فصار الركوب عليها مؤلماً إضافة إلى سوء المنظر، وانطلق بسيارته وكل شيء فيها يشارك محركها صوته الخشن. وقد أركب معه فتى إفريقياً من ذوي الوجوه المغبرة أي الذين ليس سوادهم حالكاً ولكنهم لم يخرجوا عن دائرة السواد سواء في اللون أو التقاسيم، وفي أذن ذلك الفتى قرط كالذي يكون في أذن المرأة.

أسرع بسيارته يصعد تلة جبلية مرتفعة حتى أوقفنا عند باب الفندق الذي

نريده وكان الدكتور محمد مومنيات قد حجز فيه غرفتين لنا بالهاتف من جوهانسبرج وهو فندق ليسوتو صن أي فندق شمس ليسوتو. وطلب مقابل ذلك ١٥ (مالوتي) و(المالوتي) عملتهم الوطنية، ويبدو من تسميته أنه عملة مستقلة ولكن الواقع أن ذلك من باب المحافظة على المظهر فقط وإلا فإن (المالوتي) مساوٍ للراند عملة جنوب إفريقية وهو والراند في هذه البلاد سواء وذلك وفق إتفاق بين الحكومتين.

ومما ينبغي ذكره ـ بهذه المناسبة ـ أن أراضي جمهورية جنوب إفريقية تحيط بليسوتو من جميع الجهات أي بإحاطة السوار بالمعصم كما كان الأدباء الأولون يقولون.

واسترعى انتباهنا في الفندق أن الجو بارد مع أن الفصل في هذه البلاد هو فصل الربيع ومع ذلك اختاروا له هذا المكان المرتفع.

ولا يقال: إن ذلك من أجل الحر في الصيف، لأن حرهم خفيف وبردهم شديد كما علمنا بعد ذلك.

ومع ذلك، وبسبب ذلك أسموا هذا الفندق (شمس ليسوتو) من باب ولع الأوروبيين بالشمس في بلدانهم الأوروبية التي يقل إشراق الشمس فيها، وإنما تكثر فيها الغيوم، ويلفها الضباب في كثير من الأحيان. وذكر الدكتور مومنيات أنه اختار هذا الفندق عن خبرة، لأنه كان قد نزل فيه قبل هذه المرة، وقال: إن من أهم ما فيه عدا كونه من الدرجة الأولى الإحتياطات الكبيرة التي تتخذها إدارته من أجل الأمن.

قال ذلك لمناسبة ما رأيناه عند بوابته الخارجية، إذ فيها حاجز عنده حارسان مسلحان لا تجتاز سيارة البوابة داخلة من عندهما إلا بعد أن يسجلا رقمها، ويعطيا السائق حديدة عليها رقم يستعيدونها منه عند خروجه.

وجدنا في مكتب الإستقبال في الفندق امرأتين إفريقيتين أنجزتا ما نحتاجه وغيرنا بسرعة ومهارة.

ونزلت في غرفة في الطابق الرابع وهو فوق الإدارة مباشرة وتحت الإدارة طوابق أخرى ومرافق تابعة للفندق مع أن الإدارة والإستقبال أيضاً على مستوى سطح الأرض، وذلك لكون الفندق مبنياً على جانب جبل، بعضه في مستوى الجهة التي تليه من الأرض وبعضه نازل عن ذلك، فتركوا القسم النازل على حاله من النزول. وجعلوا فيه غرفاً وأشياء تابعة للفندق ومنها غرفة للقمار كبيرة فوقها غرفة أخرى أصغر منها ويسمونه (كازينو) ويأتي إليه لاعبو القمار ولهم ولع عجيب به رغم أن الكسب منه مظنون والخسارة أكثر احتمالاً من الخروج برأس المال.

وبناء هذا الفندق يشبه من بعض النواحي بناء فندق هيلتون في ترينيداد في البحر الكاريبي وقد نزلت فيه أكثر من مرة فقد بنوه على سطح جبل وجعلوا الإدارة في أعلاه وغرف النزلاء في المكان المنخفض تتدرج في انخفاضها مع الإنخفاض الطبيعي الذي كان موجوداً في مستوى الجبل من قبل.

فأصبح من الطريف فيه أن المصعد الذي فيه ينزل من الإدارة ويعد الطوابق معكوسة إن صح التعبير فالذي يلي الإدارة منها هو الأول والثاني ما كان أنزل منه وكنا نزلنا في أحد الطوابق التي هي أنزل منها.

وقد غربت الشمس وشعرنا بالبرد فأشعلنا مدفأة في الغرفة على درجة خفيفة ولم يكن بالإمكان الخروج في هذا الليل لأننا لا نبصر ما نريد رؤيته، وإنما اكتفينا باستجلاء منظر الجزء الحديث من المدينة وهو ذو أبنية متعددة الطوابق وإن لم تكن عالية جداً، وتلفه خضرة الأشجار الكبيرة التي ربما كان بعضها قديماً أقدم عهداً من هذه الأبنية فأبقوا عليه لغرض الخضرة والمنظر.

وتحيط بهذا الجزء من المدينة جبال عالية وإن كانت لا تأخذ بخناقه، ويمكن بسهولة النظر من الفندق وبخاصة من الغرفة إلى مسافات شاسعة من منطقة المدينة لولا أن هذه الجبال التي تكتنفها تمنع النظر إلى أبعد من ذلك.

والتقطت صوراً لهذه المناطق مع غروب الشمس.

وكنا نبتغي التمهيد للقاء بالإخوة المسلمين غداً، ولم تكن معنا عناوين واضحة إلا اثنان قديمان فأخذ الدكتور محمد مومنيات يقلب دليل الهاتف الموجود في الغرفة فعثر على شخص اسمه (نور الإسلام محمد) فاتصل به وكلمه فعرف أنه من بنغلادش، وأنه يعمل في الكمبيوتر ودلنا على بعض الأشياء التي أفادتنا وإن لم تكن كل ما نريده.

ثم اتصلنا من الهاتف بمسلم اسمه (صديقي محمد) فكلمنا وكان عنده كل ما نريد بل هو عضو عامل في المركز الإسلامي لليسوتو، وتبين أنه طبيب جراح مشهور في مستشفى حكومي وهو باكستاني الأصل يحمل جواز سفر بريطانياً، ولذلك لم يرد الحصول على جنسية ليسوتو التي قال: إنه كان يعمل فيها منذ ١٦ سنة.

وكان الدكتور محمد صديقي نافعاً لنا جداً، وعدنا أن يحضر إلينا غداً في الساعة العاشرة، وأن يخبر رئيس المركز الإسلامي في ليسوتو وهو الأخ عثمان صالح بن محمد موسى وأن يحضرا معاً إلينا في الفندق لبحث الموضوع، ولتنظيم زيارة لبلدة (بوتا بوتي) أقدم المدن التي نزلها المسلمون في ليسوتو وبنوا فيها مسجداً متميزاً، وكانوا كثرة فيها إلا أن بعضهم انتقل إلى العاصمة (مسيرو) وبعضهم عاد إلى جنوب إفريقية، إذ أكثرهم جاؤوا إلى هذه البلاد من جنوب إفريقية.

وكنا معولين على أن نجد رجلاً اسمه (عباس قبلي) من ملاوي وموجود في هذه البلاد للدعوة إلى الله، ويتقاضى مكافأة من الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض. غير أننا لم نجده على هاتفه، وأخبرنا الأخ الدكتور الصديقي أنه غير موجود في البلاد الآن وإنما هو ذاهب إلى ليبيا.

يوم السبت ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٠م.

كان الإفطار مبكراً هذا اليوم لأننا نمنا البارحة مبكرين وإفطار الفندق مثل فنادق جنوب إفريقية حافل بالخيرات، وهم يسألونك أتريد إفطاراً كاملاً أم دولياً فالدولي بالمجان لأنه داخل في أجرة الغرفة والكامل ندفع ما نتناوله منه.

وقد أحببت أن آكل بيضاً مقلياً، وهم يقلونه لك وأنت تنظر، غير أن المشكل أن المقلاة يقلى فيها لحم الخنزير، ولا يغسلونها بعده، وإنما يمسحونها مسحاً، فتركته.

جلسة مباحثات:

في الساعة العاشرة حضر إلينا الدكتور محمد عقيل صديقي الذي كلمناه البارحة ومعه الأخ عثمان صالح محمد موسى رئيس المركز الإسلامي في (مسيرو) وهو هندي الأصل، إلا أنه يقول إنه من (ليسوتو) لأن جده ترك الهند قبل مائة سنة، وهو مولود في ليسوتو بطبيعة الحال وقد نثرت عليه إفريقيا من غبارها الأسود وإن كانت تقاسيم وجهه لا تزال تقاسيم الهنود. وعقدنا جلسة مباحثات معهما مفيدة ومهمة لنا جميعاً أما أنا فذلك طبيعة عملي، وقدمت إلى هذه المنطقة من أجل ذلك. وأما رفيقي الدكتور محمد مومنيات فإنه يشغل وظيفة مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في جنوب إفريقية وهو مسؤول بحكم وظيفته هذه عن متابعة الحركة الإسلامية فيها.

مركز المعلومات الإسلامية:

ثم انتقلنا بسيارة الأخ الدكتور محمد صديقي وهي من طراز مرسيدس الألماني الغالي، ولكنني رأيت إخواننا من مسلمي أهل الهند المقيمين في هذه البلاد يختارونه على غيره.

وحدثنا الدكتور صديقي عن نفسه بأنه أول مسلم وصل إلى مدينة (مسيرو) حيث قال: إنني عندما وصلت إلى مسيرو قبل حوالى عشرين سنة لم يكن فيها مسلم واحد غيري. قال: وأما (ليسوتو) فإن المسلمين قد وجدوا فيها قبيل ذلك، إلا أن أكثرهم كانوا في بلدة (بوتا بوتي).

ولما أبديت له عجبي من البرد البارحة، قال: إن الثلج يسقط هنا في شهري يونيو ويوليو. وهما أشد أشهر الشتاء برداً لأنها واقعة في النصف الجنوبي الذي تخالف فصوله الفصول في النصف الشمالي ومنه بلادنا.

وذكر أن حالة الأمن جيدة في البلاد وأنه ليس فيها شعور عنصري من المواطنين السود الذين هم سكانها ضد الآسيويين أمثاله.

ومررنا ونحن ذاهبون إلى مركز المعلومات الإسلامية على قسم من وسط المدينة جيد الأبنية ولكننا لم نقف فيه، وإنما واصلنا سيرنا فرأينا الباعة من رجال ونساء قد نشروا بضائعهم على الأرصفة، وهي الطريقة المحببة لدى الإفريقيين.

وكذلك باعة الفاكهة والخضروات قد عرضوها وهم جلوس على الأرصفة أو جوانب الطرق.

ويقع المركز المذكور في حي اسمه (مين باص استيشن) أي محطة الحافلات الرئيسية.

أعلى ما رأيته منه كنيسة عالية ويؤمل الإخوة المسلمون أن يبنوا مسجداً يكون له منارة عالية فشجعتهم على ذلك ووعدتهم بالمساعدة من رابطة العالم الإسلامي، وكنت بحثت ذلك معهم في جلسة المباحثات.

ثم رأينا المركز بناء من طابق واحد أكثر ما فيه ظهوراً لافتة كبيرة نصها بالإنكليزية (إسلامك انفورميشن سنتر سيرفس) أي مركز خدمة المعلومات الإسلامية أو المركز الإسلامي للمعلومات.

والمراد بذلك المعلومات عن الدين الإسلامي، وليس المعلومات العامة. فهو يوزع معلومات مختصرة وكتباً صغيرة عن الإسلام بالمجان، كما يجيب على الإستفسارات الهاتفية وغيرها ولديه مكان مخصص لمطالعة الكتب الإسلامية التي لا يوزعها. ولوحته كبيرة ملفتة للنظر.

وانصرف الإخوان مع الدكتور مومنيات لرؤية مكان آخر فصرت أتأمل المارة في الشارع والجالسين حوله وهو ليس فيه بيوت متلاصقة وإنما هي متفرقة ربما لكونه خارج وسط المدينة فأجد الناس أكثرهم من السود، وفيهم نسبة لا بأس بها ممن لونهم أدهم أي سوادهم غير حالك.

هذا مع العلم بأنني كنت واقفاً في الشمس دون أن أحس لها بأية حرارة، وإنما هي كشمس الشتاء في بلادنا رغم كوننا الآن في آخر الربيع عندهم.

ثم جاؤوا بأخ مسلم وهو طبيب آخر اسمه (محمد كليم) من العاملين في هذا المركز جزاهم الله خيراً. وجاء رجل إفريقي يسألهم وأنا أسمع لأنهم جميعاً كانوا يتكلمون بالإنكليزية عن اللحم الحلال أين يوجد؟ فأخبروه بمكان وجوده فشكرهم وانصرف.

كلمة عن المسلمين في ليسوتو:

وصل المسلمون لأول مرة إلى ليسوتو في أواخر ١٨٠٠م وكانوا أفراداً قلائل ونظراً لتزايد عدد المسلمين تم بناء مسجد في مدينة (بوتا بوتي) من قبل حضرة صوفي صاحب في سنة ١٩١٠.

وبعد ذلك أنشئت جمعية في ١٩١٥ باسم الجمعية المحمدية في

باسوتو وهي ليسوتو الآن كانت تسمى قبل ذلك باسوتو. وكانت أهدافها توثيق المحبة والمودة بين أعضائها ومطالبة الحكومة بمساعدة المحتاجين في المجتمع. أنشئت بعد ذلك جماعة المسلمين في باسوتولاند التي سميت فيما بعد جماعة ليسوتو الإسلامية عقب الإستقلال في ١٩٦٦.

وفي سنة ١٩٧٧ أنشئت حركة الشباب الإسلامية في ليسوتو تحت مظلة جماعة ليسوتو الإسلامية.

أهداف حركة الشباب الإسلامية في ليسوتو هي النهوض بالإسلام والدعوة الإسلامية في ليسوتو.

وبسبب تزايد عدد المسلمين باستمرار تم إنشاء جماعة خناس في مناطق مختلفة من ليسوتو. وهناك خطة أيضاً لبناء مسجد في ماسيرو في المستقبل القريب إن شاء الله.

وسيأتي في اليوميات والمشاهدات كلام عن المسلمين وأحوالهم في ليسوتو بإذن الله.

الإسلام والمسلمون في مسيرو:

جرى بحث مطول مع هؤلاء الإخوة المعنيين بالعمل الإسلامي عن عدد المسلمين في مسيرو في الوقت الحاضر فأجابوا بأنهم أربعمائة نسمة وأن مجموع المسلمين في ليسوتو كلها يبلغ (٣٨٠٠) ثلاثة آلاف وثمانمائة مسلم.

وأول مسلم سكن في ليسوتو كان سكناه في بلدة بوتا بيتي، وكان دخوله حوالي عام ١٨٨٠م وأغلب المسلمين يقطنون في (بوتا بيتي).

المركز الإسلامي:

ثم انتقلنا بعد ذلك بصحبة الأخوين الدكتور صديقي وعثمان موسى

لمشاهدة المركز الإسلامي في مسيرو والمشروع الذي يعتزمون القيام به لإنشاء مسجد ومركز إسلامي كبير على أرض واسعة اشتروها لهذا الغرض.

ويقع على شارع مهم هو (ماتسين رود) يستعمل كثيراً. وإن لم تكن عليه حوانيت فالحي الذي هو فيه ويسمى حي (تايون) يعتبر من ضواحي المدينة. ولكن البناء متجه جهته، وله مستقبل كبير.

كما تقع أرض المسجد على شارع آخر.

وقفنا فيها فأعجبنا اتساعها إذ بلغ ٣٦ ألف متر مربع وتقدر الآن قيمتها بمبالغ كبيرة وقد منحتها الحكومة للمسلمين هبة دون ثمن.

فبنوا فيها مركزاً إسلامياً مؤقتاً يصلون فيه الجمعة، ويجتمعون فيه في المناسبات الإسلامية. كتبوا لافتة المركز عليه (ليسوتو إسلامك سنتر: مسجد، مكتبة، مدرسة، قاعة الإجتماع، رياضة) أي المركز الإسلامي الليسوتي: مسجد الخ.

والمصلى قاعة واحدة ذكروا أنه يصلي فيه الجمعة مائة مصل وأما في الصلوات الخمس الأخرى فإن عدد المصلين يكون في حدود العشرة. وفي جانب منه أماكن للوضوء في غاية النظافة فيها الصابون والفوط والكراسي التي يجلس عليها المتوضئون. وبنوا فصولاً دراسية بجانبه وهي المدرسة التي ذكروها ويدرس إمام المسجد وهو شيخ من الهند أحضروه من هناك بنفقتهم ويعطونه راتبه منهم.

وقد بنوا بيتاً فاخر البناء للإمام يسكن فيه الآن.

وخصصوا جانباً من هذه الأرض ليكون مقبرة للمسلمين.

والمصلى الذي هو المسجد الذي يصلون فيه الآن أشبه ما يكون بقاعة واسعة مستطيلة الشكل وليست له قبة ولا منارة لذلك يزمعون بناء مسجد على

جزء من هذه الأرض الواسعة المملوكة لهم يرفع شعار الإسلام في هذه البلاد وتكون له منارة وقبة متميزة. وقد أروني رسم المنارة وقد جعلوا ارتفاعها ١٥ متراً فاقترحت عليهم أن تكون أعلى من ذلك بكثير لتكون شعاراً ظاهراً ينادي من لا يعرف بوجود المسجد إليه، ويشير إلى وجود قوي للإسلام ممثلاً فيهم وفي جهودهم الخيرة وأخبرتهم أننا في رابطة العالم الإسلامي مستعدون لمساعدتهم.

وذكروا أن لديهم الآن ما يزيد قليلاً على مائة ألف راند جمعوه من التبرعات لبناء هذا المسجد الذي يرجون أن يكون شامخاً ويساوي ذلك أربعين ألف دولار أمريكي فأخبرتهم أنه يسرني الآن أن أدفع من رابطة العالم الإسلامي مبلغاً رمزياً هو اثنا عشر ألف دولار أمريكي يضمونها إلى ما لديهم، وينبغي أن يبدأوا بذلك بناء المسجد وإذا ما نفذ المبلغ يكتبون إلينا ولغيرنا بأننا قد بدأنا بناء المسجد ولكن قصرت النفقة ونحن سوف نجتهد لهم في إرسال المعونة المالية سواء من ميزانية رابطة العالم الإسلامي أو من أهل الخير الذين سنتوسط لديهم لدفع التبرعات وقد أطلعونا على الرسوم والخرائط المعدة لبناء المسجد.

ثم عدت إلى المصلى الموجود حالياً فوجدت فيه من الأشياء المميزة ستاً من الساعات على لوحة واحدة كل واحدة موضوعة عقاربها على وقت من أوقات الصلوات الخمسة والسادسة لبيان وقت صلاة الجمعة. وهم يحركون عقارب الساعات إذا اختلف الوقت إلى الوقت الجديد. وذلك نابع من كون موقع بلادهم (ليسوتو) ذاهباً جهة الجنوب بعيداً عن خط الإستواء فتختلف فيه أوقات الصلوات بين الصيف والشتاء اختلافاً كبيراً، بخلاف البلدان التي تقع تحت خط الإستواء أو قريباً منه، فإن أوقات الصلوات لا تكاد تختلف فيها على مدار السنة.

وللمسجد منبر صغير من الخشب فوقه لافتة فيها الآية الكريمة ﴿**لا إله**

إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، وبجانبها سورة القدر: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر﴾** إلى آخر السورة.

وفي المصلى هذا صندوق للتبرعات أشبه بالحصالة يفتح بحضور المسؤولين في الجمعية وكومة من القلانس وهي الطواقي: جمع طاقية من القش وهي معدة لاستعمال من يريد أن يغطي رأسه عند الصلاة يستعملها ثم يتركها فيستعملها غيره بعد ذلك.

وكثير من الإخوة المسلمين أهل الهند وغيرهم من الذين يتبعون المذهب الحنفي كالأتراك يحرصون على تغطية الرأس عند الصلاة لكن بعضهم يحضر معه طاقية لهذا الغرض ولئلا يستعمل قلنسوة (طاقية) استعملها غيره من قبل. ومن هؤلاء رفيقي الدكتور محمد مومنيات ومعه في حقيبته اليدوية (طاقية) حاضرة.

ومعلق في المسجد جباب ـ جمع جبة ـ وهي الثوب المفتوح من الأمام معلقة في المسجد حتى يلبسها من لا يريد أن يصلي وليس عليه إلا القميص، والصدري (الجاكيت). ثم جلنا في نواحي هذه الأرض الواسعة وهي مكسوة بأعشاب الربيع الخضر وذلك بأن فيها خط للسيارات كما يكون عندنا في البرية. كما تنتشر فيها أشجار الظل الكبيرة.

التقطنا صوراً تذكارية ذكرت أثناءها الأخوين الكبيرين القائمين على هذا المركز الإسلامي ومن كان معهما بما كان قد مر بي من أحوال مماثلة لحالهم في أماكن عديدة من العالم من كوني التقط صوراً لأرض المسجد بصحبة المسؤولين من الجماعة حتى إذا قدرت لي زيارة أخرى إلى المكان نفسه وجدت المسجد قائماً، أو قد قام بعضه ودعوت الله تعالى أن يحقق أمنيتهم وأمنيتنا بذلك.

كما دعوت الله تعالى أن يقدر اللقاء بهم ثانية هنا وهناك في مكة المكرمة.

ومشروع مسجد آخر:

عدنا إلى قلب مدينة (مسيرو) من ضاحية (تابون) وأوقفنا سيارتنا في سوق مزدحم بالباعة والسيارات والأناسي وعليه متاجر كبيرة أشاروا إلى أكثرها أنها للمسلمين وقالوا: هذا المحل الفلاني الكبير للتاجر فلان، وذاك لفلان، وذلك لفلان. فالمسلمون في ليسوتو أكثرهم من التجار الأثرياء، والمراد بذلك المسلمون الذين هم من أصل هندي ويسمون هنا بالآسيويين كما سبق.

وأما بقية المسلمين وليسوا بالكثر فإن حالتهم المالية معتادة.

وعند الوقفة أشاروا إلى قطعة أرض صغيرة في السوق المزدحم تظلها أشجار باسقة، وقالوا: هذه أرض لجماعة من المسلمين التجار في هذا الحي وهم الذين قدموا من جوهانسبرج يريدون أن يقيموا عليها مسجداً، وهم لا يتعاونون معنا في أن يكون المسجد في المركز الإسلامي الذي رأيتموه في حي (تابون) وحجتهم في ذلك أن هذه الأرض قريبة من متاجرهم، وقريبة من السوق وفي وسط المدينة والوصول إليها أسهل من الوصول إلى تلك الضاحية التي يحتاج الوصول إليها إلى سيارات. قالوا ونحن أخذنا الأرض في الضاحية لأننا نريد إنشاء مركز إسلامي كبير يكون أشبه ما يكون بالمدينة الإسلامية، وليس مجرد مسجد لأداء الصلوات.

فقلت له: لعلكم تحاولون عن طريق الأثرياء من المسلمين شراء قطع من الأراضي الخالية حول المسجد وأن تباع للمسلمين لكي يقيموا عليها بيوتاً تكون قريبة من المسجد مما يجعل إنشاء حي مسلم حوله أمراً ممكناً.

وذلك له فوائد جمة من أهمها أن يتعرف المسلمون بعضهم على بعض وبخاصة الشبان تحت رقابة الأهل فيجد المسلم مسلمة يتزوج منها، وتجد

المسلمة زوجاً مسلماً بسهولة أكثر مما إذا كان كل واحد منهما يسكن بعيداً عن الآخر.

وقد اشترى الإخوة أهل السوق هذه الأرض التي رأيناها ويعتزمون بناء المسجد عليها. وذلك أمر مفيد لا يتنافى مع وجود مركز إسلامي كبير في ضاحية المدينة.

ومن الطريف في الأمر أنك في هذا السوق التجاري ترى بيوتاً منفردة على الطراز الإفريقي القديم تشبه الأكواخ وهي من الخشب.

وقفة في قلب المدينة:

أوقفنا السيارة عند محل أخينا عثمان موسى رئيس المركز الإسلامي هنا وهو محل واسع يعمل فيه طائفة من الإفريقيين وفيه أنواع كثيرة من البضائع مثل الأواني والكراسي والأحذية وفي داخله جماعة كبيرة يشترون.

ثم خرجت منه وتركت الإخوة داخله ومعي مصورتي ألتمس لها ما أتحف به القارىء الكريم فالتقطت صورة لشارع هذا السوق ولرجل إفريقي في ملابس مهلهلة وهو يرقص رقصاً متواصلاً في وسط الشارع وهيئته تدل على أنه عامل متواضع، ولكنه كان يرقص على أنغام موسيقى مسجلة منبعثة من محل تجاري يريد أن يجتذب المارة والمشترين، وحتى يسترعي الإنتباه إلى محله بوجودها. فسألت عن ذلك فقيل لي: إن للقوم في هذه البلاد ولعاً كبيراً بالرقص.

وهذا يؤكد عندي ما سبق أن ذكرته من أنهم من الذين كانوا يعيشون تحت خط الإستواء، وإن هجرتهم إلى هذه المنطقة ليست قديمة.

وكان يرقص رقصاً إفريقياً عنيفاً يتميز بهز الأطراف الأربعة والتثني بل التطوي، والتطويح بالرجلين يميناً ويساراً.

وجميع الذين رأيتهم عند متجر صاحبنا عثمان موسى وفي الشارع المكتظ بهم هم من جنس سكان خط الإستواء الذين يسميهم الأوروبيون بالزنوج وبعضهم يسميهم بالبانتو.

والزنوج عند أسلافنا العرب غير هؤلاء وأولئك فهم أمة من الناس تسكن سواحل شرق إفريقية ولا يسمون كل من كان أسود الجلدة زنجياً، وإنما أخذ كتابنا المحدثون يفعلون ذلك تأثراً بالأوروبيين.

ومن ذلك عنوان كتبه أحد الإخوة ونشره عن كلام على نيجيريا هو (في أرض الزنوج) ونيجيريا ليست زنجية، وليست بلاداً من بلاد الزنوج عند أسلافنا المؤرخين العرب، فهم يسمون أهلها الشماليين بالسودانيين وهم كانوا جزءاً من السودان الغربي، بغين منقوطة، وفيها أماكن مشهورة بأسماء خاصة بها مثل (البرنو) و(الكانم) الخ.

وكل من زار إفريقية كلها ورأى أقطارها وأمصارها وما فيها من أناس عرف الفرق الكبير بين أهل نيجيريا وبين الأفارقة الذين يقطنون تحت خط الإستواء وما لاصقه.

ومن الشواهد القديمة على ما يراه قدماء المؤلفين العرب في هذا الموضوع أنهم يقولون في تحديد مملكة السودان التي أصبح بعضهم يسميها فيما بعد بمملكة التكرور أنها تحد شمالاً بجبال الصحراء الإفريقية وغرباً بالبحر المحيط الأعظم وشرقاً ببلاد الكانم والبرنو وجنوباً ببلاد الهمج الذين يأكلون لحوم بني آدم.

فأهل نيجيريا وما كان عنها جهة الشمال هم من السودانيين الذين كانت لهم حضارة إسلامية زاهية بلغت في الإدارة ما لم تكن تبلغه أوروبا في ذلك العهد أي منذ سبعة قرون وبلغت من الأمن للغريب والمسافر وحده ما لم تبلغه أوروبا وأمريكا حتى الآن.

كما ذكر ابن بطوطة أن الغريب يسافر من بلاد السودان الشهر والشهرين لا يخشى سارقاً ولا منتهباً.

إلى بلدة بوتابوتي:

تبعد هذه البلدة عن العاصمة (مسيرو) ١٥٧ كيلومتراً. ذهبنا إليها على سيارة للأخ عثمان موسى رئيس المركز الإسلامي في مسيرو وهي من طراز مرسيدس الألماني القوي يقودها سائق موظف عنده من أهل البلاد وهو يعرف المنطقة جيداً. ويتكلم الإنكليزية كذلك: واسمه (جوزيف مادي تشاميزا) وليس بمسلم.

وهذه السيارة هي من عدة سيارات يملكها زاده الله من الخير.

لم يكن معنا في السيارة أنا ورفيقي الدكتور محمد مومنيات أحد، إذ كان السائق هو المرافق والدليل أما في بلدة (بوتا بوتي) فإن الإخوة المسلمين هنا هاتفوا الإخوة المسلمين هناك وأخبروهم بوصولنا، وبما نريد الإطلاع عليه من أحوال تلك البلدة.

وبلدة (بوتا بوتي) صغيرة سكنها الآسيويون قبل الإستقلال، لأن الأوروبيين البيض استأثروا بسكن العاصمة (مسيرو) دونهم.

وعندما استقلت البلاد وولى عهد التمييز العنصري انتقل بعضهم إلى مسيرو وبعضهم عاد إلى جنوب إفريقية حيث كان يسكن هناك.

ولا تزال الصلات الاقتصادية قوية بين (ليسوتو) وجنوب إفريقية وأكثر ذلك وضوحاً في العملة التي تتساوى في البلدين، وكذلك في أن من يحمل سمة دخول إلى جنوب إفريقية يجوز له أن يدخل إلى ليسوتو من غير أن يحصل على سمة خاصة بها.

قبيلة واحدة:

معظم أهل بلاد (ليسوتو) يتألفون من قبيلة واحدة، بل قالوا إنهم كلهم قبيلة واحدة اسمها (باسيوتو) حرّف الإنكليز اسمها فجعلوه (ليسوتو) وعرفت في العالم بهذا الاسم المحرف.

ولذلك لما سألت السائق جوزيف عن قبيلته أجاب بقوله (باسيوتو) يريد قبيلة (ليسوتو) التي سميت هذه البلاد باسمها على اعتبار أنها القبيلة الرئيسية الوحيدة الموجودة فيها.

وحتى اللغة السائدة هنا التي هي لغة قبيلة (باسيوتو) تسمى (سيسيتو) كما سبق.

بيوت بلا أحواش:

مما يميز البيوت في هذه البلاد أنها تكون بدون أفنية مكشوفة (أحواش) وإنما تبنى على هيئة غرفة واحدة من الخارج يخيل إلى من يراها أنها كذلك، ومن الداخل تكون فيها أكثر من غرفة تفتح الواحدة منها على الأخرى.

ومن مزايا بيوتهم أنها تكون كبيوت الأعراب من الشعر عندنا متفرقة غير متلاصقة ربما كان ذلك لكي يفسحوا المجال لفراغ من الأرض ينتفع به أهل البيت لحاجاتهم.

وقد وصلنا إلى ضواحي المدينة أو لنقل خرجنا منها بسرعة لنجد بيوتاً متفرقة كالبيوت التي رأيناها من الطائرة.

وحتى البيوت التي تكون على الطريق الإسفلتي أكثرها كذلك، وإن كان يوجد فيها مبان حديثة قليلة غير مجتمعة أيضاً.

يرقص في السيارة:

قدمت القول في الشخص الذي رأيناه يرقص في سوق البيع والشراء

غير مبال بالناس ولا بحركتهم حوله، ولا بالوقت الذي ضيعه في سبيل الرقص.

والآن رأينا سيارة كبيرة تشبه القلاب على ظهرها رمل وفوقه ثلاثة من العمال جالسين وعامل رابع يرقص فوق الرمل والسيارة تسير.

وقد لبث مدة أمامنا ونحن نراه لا يفصل بين سيارته وبين سيارتنا فاصل، وذلك من أجل أن الطريق واجد للسيارات المقابلة والسيارة التي تحمل الرمل كبيرة لا يمكن تجاوزها إلا إذا خلا الطريق من السيارات القادمة.

والغريب أنه يتمايل في رقصه، ولا يسقط ولو سقط لكان سقوطه على رجل الذي في السيارة وإن كان حاجز السيارة ليس مرتفعاً.

ورأينا قطيعاً من الأبقار الجيدة الضخمة ترعى فذكروا أن الأبقار كثيرة وأن اللحم رخيص، وذلك لوفرة المراعي في البلاد.

وقد تكررت رؤية قطعان الأبقار الكثيرة ترعى ومعها رعاتها الذين يذكرني منظرهم بمنظر رعاة الأبقار في بلدان الساحل الإفريقي الذي يراد به ساحل الصحراء الكبرى من جهة الجنوب أي جانبها وذلك في بلاد مالي والنيجر ونيجيريا، لولا أن هؤلاء الرعاة (الليسوتيين) أقصر قامات من أولئك، وملابسهم لا بد أن تكون أثقل لبرودة الجو هنا، وحرارته واعتداله هناك.

وكثرت البيوت الريفية وبعضها أكواخ إفريقية تقليدية وذات شكل هرمي وبعضها بني من حجر رث أي غير مهذب وسقف بالصفيح، والبناء بالحجر لا يكلف كثيراً لأن بلادهم جبلية.

بلاد الحمير:

عندما رأيت الحمير لأول مرة في هذه البلاد ما بين المطار والمدينة

عرفت أنها بلاد معتدلة في موقعها لو كان الموضوع يحتاج إلى تفكير، لأن الحمير تعيش في البلدان المعتدلة البعيدة نوعاً ما عن خط الإستواء مثل بلادنا. ولا تعيش في البلدان الإستوائية بسبب وجود أمراض وحشرات تؤذيها، ولا يناسبها الجو فيه.

وقد تكررت رؤية الحمير في هذا الريف (الليسوتي) بعضها يركبونه وبعضها يحملون عليه أمتعتهم.

مع أن حميرهم شهباء اللون، وهو لون الحمار الذي يكون بين البياض والسواد وهي قصيرة من النوع غير الجيد.



حمار في ليسوتو عليه صبي

وبعد ذلك رأيتهم لكثرة الحمير وأهميتها في بلادهم قد طبعوا صورتها على بطاقة من بطاقات البريد لكونها مما يميز بلادهم. وهي هذه الصورة.

وأرض الجبال:

سمعت قولاً هنا بأن هذه البلاد يسميها الناس هنا (مملكة الجبال) ولم أستغرب هذا الإسم لأنه صادق عرفت ذلك منها عندما أقبلت الطائرة عليها، ثم حين رأيتها الآن كلها أرض جبلية تخللها وديان تكون أحياناً ضيقة وتكون متسعة أحياناً أخرى.

أما كونها مملكة فهذا كان السائد من أمرها غير أن قائد الجيش أبعد ملكها عن الملك ولم يسقط الملكية أو بعض البلاد جمهورية، بل كان الملك يعيش في لندن، واستمر يعيش فيها بسبب قرار قائد الجيش بمنعه من مزاولة عمله.

ولا تزال تسمى مملكة رغم عدم وجود ملك يمارس سلطانه للآن على أرضها وهو لا يمارس سلطاته من بريطانيا أيضاً.

وقد رأينا صورته في المطار لا تزال معلقة إلى جانب صورة القائد العام للجيش وأظن أن الأمر كذلك في الدوائر الحكومية الأخرى وهذا من عجائب هذه البلاد الإفريقية. ومن قوة تحكم أهلها بعواطفهم رغم ما يشاع عنهم وأمثالهم من الإفريقيين بأنهم عاطفيون يغلبون العاطفة على العقل.

هذا وقد صعد الطريق فوق مرتفع من الأرض وهو أحد هذه التلال التي تكتنفها الجبال وقد انبسط ذلك المرتفع لفترة من الوقت بمعنى أنه كالتلال التي رأيتها من الطائرة ظهورها مستوية وليست محدبة.

ثم هبط الطريق بعد ذلك وصار هذا دأبه في كل الطريق ونحن متجهون إلى الجنوب الشرقي من العاصمة (مسيرو).

ورأيت في بعض الأماكن المنبسطة زراعة بدائية ضيقة للذرة وهي تجود هنا، إلا أن الأهالي لا يميلون إلى ممارسة الزراعة بل يفضلون عليها رعي الأبقار فهي أسهل وأقل تعقيداً.

وهذه التلال عجيبة فبعضها الذي لا يكون مرتفعاً يبدو كأنه التلال الطينية مع أن طينها مخلوط بحجارة ولكن الجبال المرتفعة موجودة لا يخطئها النظر على البعد أو القرب.

والأرض خصبة يدل على ذلك وجود أعشاب كثيرة نامية خضراء تغطي الأرض كلها مما يدل على أن الزراعة تجود فيها إذا زرعت وفق حساب جيد، بحيث تزرع قبل نزول المطر، وتنمو عليه. ولكن الشعب لا يستثمر هذه الأرض الخصبة إلا فيما رأيناه من تربية الماشية من الأبقار وهي الأكثر ومن الغنم والخيل والحمير وهي الأقل.

• بلدة تي تي واي:

مر الطريق ببلدة ليست كبيرة اسمها (تي تي واي) أي بتكرار كلمة (تي) مرتين، أول ما وصلنا إليه منها مدرستها المبنية بناء جيداً حديثاً بخلاف بيوت البلدة فهي تتألف من بيوت مبنية من الطين ومسقفة بالصفيح، وأخرى من الطين أيضاً ولكنها مسقفة بالقش. وهي في مكان منبسط من أحد الأماكن المرتفعة. وهنا قال السائق هنا قولاً لا يحتاج إليه: بلادنا كلها جبال، والناس يسمونها (مملكة الجبال).

والغريب في أمر البيوت هنا أن بعضها يكون منفرداً مبنياً على ظهر تلة جبلية مرتفعة. وبعضها في واد منخفض، وكل البيتين يكون منفرداً ولا ترى حوله ما يتبعه من مزرعة أو مكان معين متميز.

ولعل هذه البيوت من بيوت الرعاة أي من بيوت الذين يعملون على تربية المواشي ويُسيمونها هذه الأرض المعشبة.

وهي أيضاً لا تخرج عن كونها من ذات سقوف من القش أو الصفيح. والصفيح هو الأكثر.

ريف ليسوتو:

أمعن الطريق في قلب البلاد وأصبح المنظر كله ريفياً خالصاً ليس فيه مدن أو حتى مزارع ذات بال.

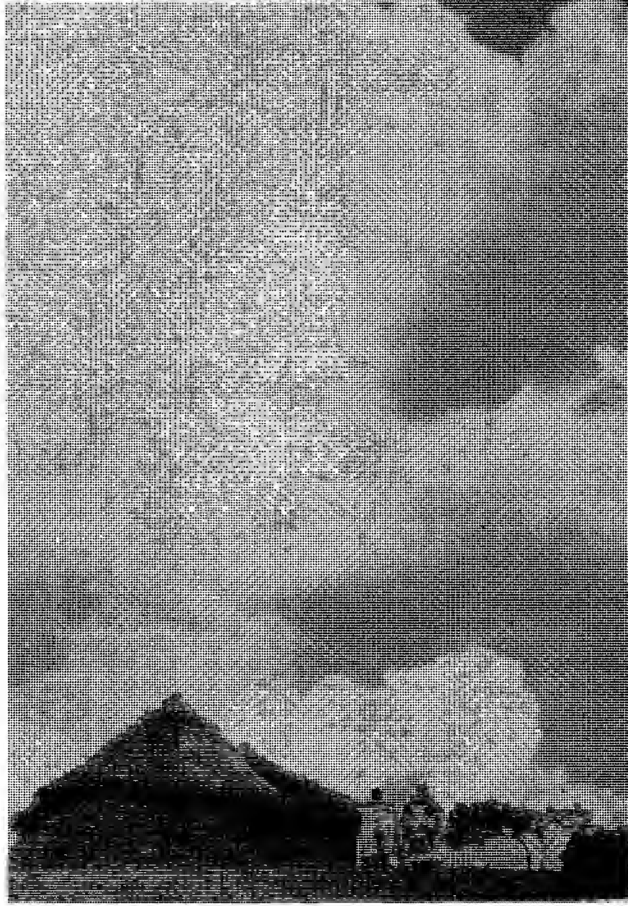
وكثرت قطعان الأبقار، فسألت السائق عن اسم اللحم بلغتهم فقال: (ناما) فقلت: هذا قريب من اسمه بالسواحلية (نيام) بإسكان النون في أوله.

وذلك يذكرني بما كنت أسمعه من خرافات العوام عن بلاد (نيام نيام) وبعضهم يسميها بلاد (النمنم) ويقولون: إنهم الذين يأكلون لحوم بني آدم، فإذا رأوا الرجل الأبيض قالوا (نام نام) وبعضهم يقول (نيام نيام) أي لحم لحم، ثم يتبعونه فيقتلونه ويأكلون لحمه.

ولا شك أن هذه خرافة ولكن كون اللحم عندهم اسمه (نام) ذكرني بها.

واعترض الطريق قطيع من البقر وهو يتبختر في مشيته والسيارة مسرعة، وقال السائق وهو يهدىء من سرعة سيارته: البقر ليست مشكلة إنما المشكلة في الحمير التي لا تبعد عن الطريق، إذا وصلتها السيارة، وفي الليل لا تمكن رؤيتها إذا كانت واقفة على الطريق، وهذا صحيح لأن لونها لا يبعد كثيراً من لون الطريق فيما يبدو للناظر إليها في الليل، لا سيما على البعد، أو إذا كانت قد أقبلت أمام السائق سيارة أخرى ذات نور يبهر بصره.

وقال: الحمير هنا كثيرة.



صورة دعائية للسياحة في ليسوتو

بلدة هاركوليو:

أخبرنا السائق باسمها باهتمام وهو يقول: إن منها فلاناً رئيس الوزراء السابق وتقع على يسار الطريق وبيوتها متفرقة كالعادة.

وهو موضع مهم لتربية الأبقار رأيناها هنا كثيرة كما رأينا معها قطيعاً من الأغنام التي تشبه الأغنام الأسترالية ذات صوف كث مما يدل على ما ذكرته من برودة الجو في هذه البلاد.

وعلى ذكر الجو أقول إنه كان شامساً صافياً.

ثم امتد الطريق وامتدت معه المراعي الجيدة التي هي ليست في خضرة المناطق الإستوائية ونحوها ولكنها من أعشاب خضراء وأعشاب ناشفة وهي صالحة لرعي المواشي وتربيتها.

ثم ظهرت قطع من أشجار الغابات التي غرسوها فوق التلال فصارت خضراء خضرة كاملة، مما يعطي الإنطباع بأنه يمكن لبلادهم أن تغرس فيها أشجار الغابات فتدر عليهم أرباحاً كثيرة وبخاصة أنها تنمو في الأماكن الجبلية الوعرة التي يصعب على المواشي أن ترعى فيها. وهي أيضاً تسهم في تحسين الجو وعدم انجراف التربة.

قرية بيكان:

أقبلنا على قرية تسمى (بيكان) وهي على رأس تلة عجبت من موقعها إذ رأس التلة في منطقة باردة ليس مطلوباً ولعل لهم في ذلك تعليلاً آخر.

وتجمع بيوتها كافة أنواع البيوت الموجودة هنا من الطينية إلى القشية والمبنية بلبن الإسمنت وأكثر السقوف فيها من الصفيح.

ومن أجمل ما صنعه أهلها أنهم غرسوا على ما يحاذيها من الطريق أشجاراً من أشجار الظل الكبيرة فصار لها منظر أنيق مما جعلني أتساءل عن كونهم لم يغرسوا الطريق كله بهذه الأشجار الخضر، إذا كانت تزدهر هكذا.

هذا وسائقنا ممتاز فإذا كان في الطريق ما يستحق التنويه به أو كانت هناك سيارات قادمة أو مواش في الطريق تمهل، وإذا خلا من ذلك أسرع سرعة فائقة.

ولمناسبة رؤية زراعة بسيطة ضيقة للذرة، سألت عن الغذاء الرئيسي للمواطنين فأجابوا بأنه الذرة، وأنهم لا ينتجون منها ما يحتاجونه، وإنما يستوردون ذلك من الخارج، فعجبت من ذلك مع وجود الأراضي الصالحة وإمكانية الزراعة بالآلات التي توفر الأيدي العاملة، ولكنهم شكوا من أن المواطنين ليست لديهم قدرة على جلب الآلات الزراعية الحديثة، والحكومة لا توفرها لهم لعجزها عن ذلك.

حدود جنوب إفريقية:

قلنا: إن حدود جنوب إفريقية العنصرية تحيط بهذه البلاد (الليسوتية) إحاطة السوار بالمعصم، وأينما توجهت إلى الحدود فإن كل الطرق تؤدي إلى جنوب إفريقية.

وقد حاذى الطريق منطقة من جنوب إفريقية جيدة فيها الحقول الواسعة وأشجار الغابات الملتفة في الأماكن التي لا تصلح للزراعة الحقلية.

وعلى الجانب الآخر، كان مظهر الأرض هو ما ذكرته من عدم استغلال الأرض الإستغلال المطلوب. وعندما أبديت عجبي من ذلك قال الدكتور محمد مومنيات: إن ظروف الأرض هناك ربما كانت أفضل كأن تكون المياه فيها أكثر. فقلت: ربما كان ذلك ولكننا الآن نشاهد الأرض عن قرب ولا نرى فيها ما يميزها عن جارتها الليسوتية.

ومن المعلوم الواضح أن المال والخبرة يتوفران في جنوب إفريقية ولا يتوافران في هذه البلاد، ثم مر الطريق فوق جسر تحته نهير يسمونه (حوى موحدانا) وهو نزر الماء كأكثر أنهارهم التي رأيناها الآن، وعلق السائق على ذلك بأن الأمطار قليلة في هذا العام.



أشجار الزهور في ليسوتو

وعندما رأينا عربة محملة بالحطب تجرها بقرتان وخلفها رجل وابنه. ثم مررنا بمستنقع ماء أشبه بالبحيرة ذكروا أنه إذا كثر المطر صار بحيرة واسعة ويسمون الموضع (مابوتي) وهو لفظ قريب من اسم عاصمة جارتهم سوزمبيق الذي هو (مابوتو) واسم رئيس جمهورية زايير (موبوتو) ورئيس جمهورية أوغندا السابق اسمه (موبوتي) وكلها ألفاظ متقاربة وهي تعطي بلا شك انطباعاً عن الحقيقة الواضحة وهي أن هؤلاء الأقوام الذين يسكنون هذه المنطقة في الوقت الحاضر كانوا في السابق من سكنة خط الإستواء، أو ما قرب منه.

وقد شاهدنا هنا أعداداً كبيرة من الأبقار، وعلى الطريق نساء يبعن فاكهة من تفاح وبرتقال ذكروا لنا أنها مجلوبة من جنوب إفريقية.

سانت مونيكا:

وصلنا إلى بلدة صغيرة اسمها (سانت مونيكا) أي القديسة مونيكا واسم مونيكا أصبح سائراً في الدول اللاتينية من أجل التسمية على إسم هذه التي زعموها قديسة مع أنها كانت ولا تزال بشراً من البشر. مثلما أصبح اسم (فاطمة) شائعاً عند البرتغاليين وفي المستعمرات البرتغالية مثل البرازيل على اسم قديسة عندهم اسمها (فاطمة).

وقد ذكرت في كتابي «المقامات البلدانية» اسم واحدة من الفواطم هؤلاء.

وفي هذه البلدة ذات الإسم الديني المسيحي رأينا الدعاية للمسيحية بالفعل إضافة إلى القول وذلك في مستشفى تابع للكنيسة ومدرسة تابعة لها أيضاً.

ولاحظنا العناية الكبيرة بالبلدة فقد غرسوا حولها أشجاراً من أشجار الغابات أحالتها إلى غابة ملتفة.

تجاوزنا (سانت مونيكا) دون أن نقف فيها، فوقعنا في سهل بعدها واسع نسبياً فيه زراعة غير واسعة، أي هي من مجموعات ضيقة صغيرة.

ووقفنا عند رجل أقبل راكباً حصاناً له مطهماً وهو أسود اللون وحصانه أسود كذلك، والحصان جيد المنظر وإن لم يكن لي علم بمنظر الخيول الجيدة.

فطلب السائق من راكب الحصان أن يتمهل وأن يجعل حصانه يتمايل من أجل أن يلتقط لي صورة معه، وقد فعل.

ولم أكتف بالتقاط هذه الصورة وإنما رأيت امرأتين مقبلتين على صنبور ماء عام فطلبت منهما التقاط صورة لهما فتمنعتا أول الأمر ثم استجابتا للصورة.

وأردت أن أمنحهما شيئاً ولكن السائق اعترض، وقال: القوم لا يريدون شيئاً ولم أعط راكب الحصان شيئاً أيضاً.

وتجاوزنا نهراً صغيراً يشق هذا المنخفض المزروع. رأينا بعده أرضاً منقاة من الأشجار قال السائق: إنه مطار صغير لهذه المنطقة. فقلت له: لا بد أن يكون صغيراً لأن مطار العاصمة صغير لا يتسع لنزول الطائرات النفاثة ولذلك يستعملون الطائرات الصغيرة غير النفاثة.

ومن أجمل ما في هذا الطريق كثرة اللافتات التي تبين أسماء القرى والأماكن التي يمر بها الطريق، وتشير إلى أسماء الأماكن البعيدة بالأسهم والمنطقة على وجه العموم جميلة والهواء معتدل، والأهالي سود، وقلما تجد أحداً منهم ليس على ظهره رداء أو بطانية من أجل برودة الجو، وإن لم تكن بالغة الآن فقد أحسسنا بها الليلة البارحة.

وزاد المنطقة جمالاً أن معظم التربة أحمر اللون وفيها تربة صفراء.

ثم كثرت الجبال، وصارت السهول بينها أكثر خصباً، حتى وصلنا.

بلدة ماتوهولا:

وتقع على مكان مرتفع، ومع ذلك يرى المرء جبالاً مرتفعة أكثر منها على البعد.

وقفنا في هذه البلدة ورأينا كثرة الحمير فيها فالتقطت صورة مع رجل وحماره تذكاراً لحمير (ليسوتو) أو على الأدق لحمير (ماتوهولا) وإلى جانب هذا الحمار الذي يدل على التأخر لا سيما مع ملابس صاحبه المتسخة

والحمل الضئيل الذي على ظهره وهو كيس صغير من الخيش. كانت تقف حافلة مليئة بالركاب الحسني الثياب، النظيفي المظهر من المواطنين وهي كذلك حسنة المظهر لا تقل في مظهرها عن مثيلاتها من الحافلات في البلدان المتقدمة، فالقوم تغلب عليهم النظافة إلا من كان منهم ريفياً أو راعياً ففيهم من يلبس ملابس غير نظيفة وأما أهل المدن وغير الذين ذكرتهم فإن ملابسهم نظيفة وأبدانهم تبدو كذلك.

ورأيت الركاب ينزلون من هذه الحافلة فيتفرقون في الأماكن التي حول البلدة وإن تكن البلدة نفسها ذات منازل متفرقة كسائر أرض هذه البلاد وآخرون يركبون فيها بنظام وهدوء.

ومن هذه الوقفة في بلدة (ماتوهولا) رأيت التلال الصخرية من التي تكون في الصحراء وتسمى (موائد الصحراء) أي على شكل مكتب منحوت دقيق في أسفله وأعلاه عريض، مع أن المنطقة ليست صحراوية، ولا علاقة لها بالصحراء.

مشينا قليلاً ورأينا مشاة على الطريق بثياب نظيفة مع أن القياس أن يكونوا ممن غلبت عليهم الحاجة فلا يعنون بنظافة ملابسهم. ولكن النظافة في الملابس هي الغالبة هنا كما قدمت.

هذه بوتابوتي:

وكان أول ما رأينا من (بوتابوتي) بيوتاً حمراء جميلة، على مكان مرتفع، لأن طبيعة البلاد مثل طبيعة هذه البلاد كلها هي أماكن مرتفعة بينها وديان أو متسعات منخفضة، وتطل عليها قمم من الجبال العالية كما تقدم.

ثم استقبلتنا (بوتابوتي) بطائفة من الحمير خلفها أصحابها، ونهير صغير، ومحطة لبيع وقود السيارات لا أذكر أنني رأيت محطات كبيرة قبلها،

وحوانيت واجهاتها مطلية بطلاء نظيف جميل. وعدنا من الطريق العام، فصعدنا تلة قريبة منها عليها بيوت فيها حدائق ذات بهجة، فوقفنا عند بيت منها خرج منه رجال ثلاثة من المسلمين تعرف ذلك من وجوههم ومن قلنسوة (طاقية) على رأس أحدهم. وبيته مبني بالحجارة على طراز حديث.

وأشرفت من هذا المكان على وسط البلدة الذي يقع في مكان منخفض وإن كانت البلدة كلها بمرتفعاتها، ومنخفضاتها منخفضة عن غيرها بالنسبة إلى قمم الجبال العالية التي تطالعك من كل مكان اتجه إليه بصرك، والمنطقة خضراء، ما عدا قمم الجبال العالية.

ورأيت عند باب الأخ المسلم في الزقاق امرأتين إفريقيتين جالستين سألتهما عما يفعلانه فقالا: نحن نغسل الملابس، فتذكرت ما كان موجوداً في مكة المكرمة والمدينة المنورة عندما كانت بعض النسوة الإفريقيات يأتين لبعض البيوت للمساعدة في غسل الملابس.

في قصر أحد المسلمين:

هاتف أحد الإخوة الذين كنا عندهم الأخ (انوري اسماعيل عمر) أحد وجهاء المسلمين هنا فذهبنا إلى قصر له فخم لم أر في هذه البلدة مثيلاً له، ولا حتى قصر الحاكم وقد أحاطه بسور عالٍ ويشغل مساحات واسعة وله عدة أبواب.

أدخلنا السيارة مع أحد البوابات الواسعة ثم استقبلنا في بيته قادماً من حانوت كبير وهو المحل التجاري الضخم.

رحب بنا في بيته، ولاحظنا أن باب المدخل مكتوب فيه بالحفر لأنه من الخشب الجيد بالعربية (بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ويحفل البيت بلوحات عربية جميلة بعضها آيات قرآنية بخطوط جيدة ربما كانت من مصر أو تركيا، كما أن أثاثه فخم كله.

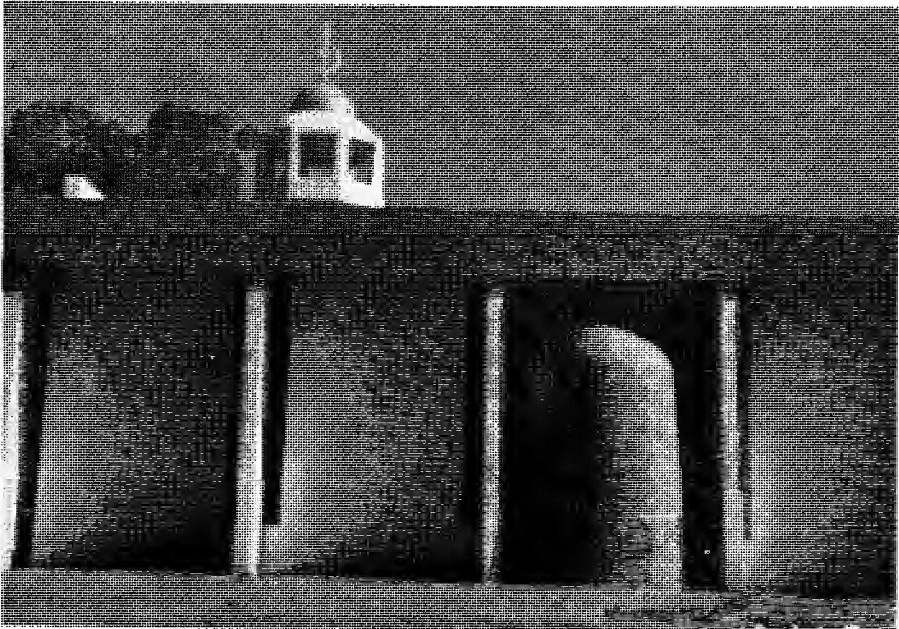
حدثنا عن نفسه، قال: أتيت إلى بلدة بوتابوتي هذه في عام ١٩٤١م وصرت أعمل في التجارة منذ ذلك الوقت حتى الآن.

وقد جاء إلى هذه البلاد من جنوب إفريقية، وأصله من جهة بومبي في الهند التي هي عاصمة ولاية مهارسترا.

المسلمون في بوتابوتي:

حضر بعض المسلمين إلى بيت الأخ انوري اسماعيل عمر، وشاركونا الجلوس والحديث وكان دعاهم على الغداء.

فسألتهم جميعاً عن المسلمين في هذه البلدة فأجابوا بما ملخصه:



مسجد الصوفية في بوتابوتي

كانت هذه البلدة مركزاً للمسلمين خاصة، لأن مدينة (مسيرو) العاصمة كانت مركزاً للأوروبيين البيض فكثر المسلمون فيها وصارت مركزاً لهم.

وعند الإستقلال وبعد سقوط السياسة العنصرية انتقل فريق منهم إلى العاصمة (مسيرو) واشتغلوا بالتجارة فيها حتى قل عددهم هنا. وبعضهم عادوا إلى جنوب إفريقية، حيث كانوا جاؤوا منها وكلهم يحمل جنسية جنوب إفريقية. وبلغ عدد المسلمين الآن في (بوتابوتي) ٦٠ أسرة وقال بعضهم ستين رجلاً وكل رجل له أسرة بطبيعة الحال.

وهذا العدد القليل من سكان المدينة التي تعد عشرين ألف نسمة له تأثيره في البلدة أكثر من تأثير بقية السكان مجتمعين في ميدان المال والتجارة.

واسم البلدة (بوتابوتي) مأخوذ من اسم جبل عالٍ يطل عليها. كما أن هذا العدد القليل من المسلمين منظم إلى درجة كبيرة فلديه المسجد والتعليم الإسلامي المحدود ولديهم شيخ أحضروه من الهند بنفقتهم، ويقوم بإمامتهم في الصلاة وتعليم أولادهم مبادىء الدين الإسلامي الحنيف.

ومع صغر هذه المدينة فإنها تعتبر رابعة المدن من ناحية عدد السكان في (ليسوتو) فهم يقولون: إن العاصمة (مسيرو) هي البلدة الكبيرة الوحيدة وأن هناك ٩ مدن صغيرة متقاربة في عدد السكان منها (بوتابوتي) هذه.

وتبعد (بوتابوتي) مسافة تسعة كيلومترات عن حدود جنوب إفريقية.

وذكروا أن الأمن مستتب فيها وأن المواطنين الإفريقيين هنا وديون ليسوا من أهل الشر، ولا ينال المسلمين منهم أية مضايقات.

ثم انتقلنا لتناول الطعام في غرفة فاخرة الأثاث نظيفة فيها كل ما يكون في البيوت المترفة من أجهزة التلفزة والإذاعة والمسجلات والمائدة نظيفة في وسطها الأقراص الكبيرة من الخشب التي تدار عن طريق لمسها بالإصبع فتدور بما عليها من طعام. فيغترف منه الآكل على المائدة ثم يدور إلى غيره.

وهذه رأيتها منتشرة في الصين وفي تركستان الشرقية في المآدب الرسمية، وذلك يعفي الآكل إذا أراد أن يأخذ شيئاً من السلطة مثلاً من أن ينهض من مكانه إذا كان بعيداً عنه، أو يكلف غيره أن يفعل ذلك.

وكان الطعام هندياً خالصاً رغم بعد أهله بالهند وأهلها فكان فيه الأرز البرياني اللذيذ الذي أُفعم بالفلفل والبهارات حتى غدا يلسع الفم لسعتين إحداها حرارة النار، والأخرى من حرارة البهار. وفيها أنواع أخرى من الطعام.

وقد تناول الغداء معنا حوالى العشرة من الإخوة منهم أبناؤه وأقاربه وكبار من المسلمين العاملين في الجمعية الإسلامية ثم عدنا إلى غرفة الجلوس حيث واصلنا الحديث معهم عن أحوالهم وأحوال هذه البلاد وكونها ذات طابع خاص لأن لها لغة وطنية شاملة واحدة وهي (سيسيتو) على وزن اسم القبيلة الواحدة التي تضمهم وهي (ليسوتو) كما تعرف الآن في العالم، أو «باسيوتو» كما هو الاسم الصحيح لها الذي لا يزال أهلها يلفظون به.

سكان ليسوتو:

قلنا فيما سبق: إن سكان ليسوتو من الأقوام الذين هاجروا من منطقة خط الإستواء، وأكثرهم لم يتغيروا عما كانوا عليه من خَلْق ـ بفتح الخاء ـ أو خُلُق ـ بضمها ـ.

ويبلغ مجموع سكان الدولة مليوناً ونصفاً.

وعلاقاتها السياسية والإقتصادية وثيقة بحكومة جنوب إفريقية العنصرية، ولذلك قلت عندها السفارات الأجنبية لأن معظم علاقاتها مع تلك الدولة المتقدمة في الإدارة والإقتصاد: فمثلاً تقتصر السفارات الأجنبية فيها على سفارة للولايات المتحدة الأمريكية وأخرى لبريطانيا. ومندوب سامٍ

لجنوب إفريقية، أما بقية الدول الأجنبية التي لها رعايا أو مصالح في ليسوتو فإن ممثلياتهم في موزامبيق المجاورة ترعى مصالحهم في ليسوتو.

وهنا ممثليات للأمم المتحدة.

مسجد بوتابوتي:

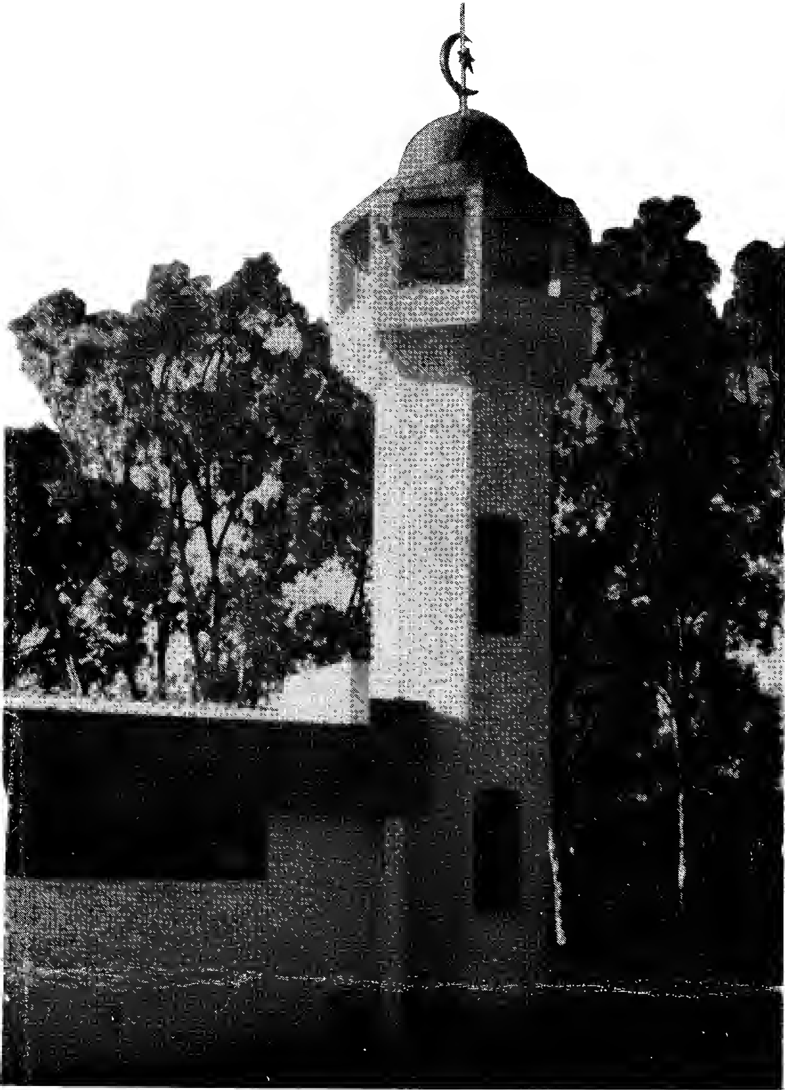
خرجنا بعد ذلك نريد الذهاب إلى مسجد (بوتابوتي) فمررنا بالسوق التجاري فرأينا اللافتات على المتاجر الكبيرة تحمل أسماء إسلامية واضحة وبحروف بارزة مثل (محمد أسلم) و(أبو بكر) وأنوري.

وقد أخبرونا أن كل التجارة هنا هي الآن بأيدي المسلمين.

أقبلنا على المسجد فوجدناه يلوح على البعد بلونه الأبيض النقي والأخضر المميز للمباني الإسلامية، ومنارته الشامخة، وقبته المميزة وهو أعظم منظر تسر له نفس المسلم الذي يصل إلى بلد غريب. فهو يشعر بالأنس والطمأنينة به.

وعندما دخلته تبين لي أن المنظر الخارجي المشرق له يزينه منظر داخلي زاهٍ أيضاً فأول ما يدخل المرء إليه يرى محلات الوضوء في غاية النظافة والترتيب وكأنها جزء من قصر قشيب. وفيها الصابون، والمناشف العديدة التي وضعوا لها وعاءً خاصاً، تجدها فيه مغسولة مكوية فإذا استعملتها مرة واحدة رميتها في سلة معدة لذلك فجاء خادم المسجد وأخذها لكي يغسلها ويكويها ويعيدها مرة أخرى. ثم دخلنا المصلى فإذا به غاية في النظافة مفروش بالسجاد الذي رسمت عليه المحاريب وشعار المسلمين الهلال والنجمة.

ومحرابه محاط بأفاريز من الزجاج الملون المثلج الذي يدخل البهجة إلى النفس، والنور إلى المسجد. والمسجد مزين بلوحات إسلامية بالعربية ذات مظهر جميل.



منارة مسجد بوتابوتي

والقوم كلهم من كجرات في الهند إلا الأخ (أنوري) فهو من ولاية مهارسترا المجاورة لولاية كجرات وإذا كنت أيها القارىء الكريم ترغب في قراءة ما ذكرته عن هاتين الولايتين الهنديتين فإنك تستطيع أن تجد ذلك في كتاب: «في غرب الهند» الذي يتحدث عنهما، وفي كتاب لي آخر يتحدث عن ولاية ثالثة مجاورة لكجرات من جهة الشمال هي ولاية (راجستان) التي معنى اسمها بلاد الملوك.

وكنت عرفت أهل كجرات في مهاجرهم، من أنشط الإخوة المسلمين في الهند في أمور دينهم ودنياهم، رأيتهم في جنوب إفريقية وفي زامبيا و(زمبابوي) و(بتسوانا) وجزر البحر الزنجي المسمى بالمحيط الهندي وهي جزيرة رينيون وموريشيوس إضافة إلى جزيرة مدغشقر الكبيرة.

أدينا معهم صلاة الظهر متأخرين عن أول الوقت وإن كان لا يزال فيه بقية، وأخبرتهم في المسجد بالغرض من زيارتنا لهذه المنطقة من جنوب إفريقية. وبينت أهداف رابطة العالم الإسلامي في التعاون مع المسلمين على البر والتقوى عملاً بقوله تعالى: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾**.

ثم حدثونا عن هذا المسجد بأنه حديث بني بالإسمنت المسلح في عام ١٩٧٢م وأنه كان يوجد مسجد صغير مبني قبله بالطين، ومسقف بالقش على شكل هرمي. وقد بني في عام ١٩١٠م ليكون سكناً للمؤذن وهو أول بناء في منطقة المسجد أما أول بناء للمسجد نفسه فكان قبل ذلك بخمس سنين أي في عام ١٩٠٥م.

ومن أجمل ما رأيته فيه أن النوافذ التي في حيطانه كلها من زجاج عالٍ مستطيل لذلك كان النور غامراً في داخله دون أن يدخل إليه الهواء وما يحمله من شوائب.

أما الجو فإنه كان معتدلاً فلا حر ولا قر في هذه الساعة التي نحن فيها داخله.

ومن الأشياء التي استرعت انتباهي فيه أنهم وضعوا بجانب المحراب على مائدة صغيرة مجسماً صغيراً للكعبة المشرفة ذكروا لي أنه بمثابة القطعة الفنية الجميلة، وأنه ليس له معنى عندهم إلا ذلك.

وللمسجد جمعية رسمية تشرف على إدارته، وتعمل في ضبط موارده ومنصرفاته رئيسها الآن أحد المرافقين لنا هنا وهو الأخ (محمد دامبا) من كجرات.

والقول بأنه من كجرات يعني أن أصله البعيد من كجرات. وإلا فإن كل المسلمين هنا جاؤوا إلى هذه البلاد من جنوب إفريقية المجاورة ويحمل جنسية جنوب إفريقية، وبعضهم لم يزر الهند في حياته ولم ير كجرات فعلاً ولم يسمع عنها إلا في أفواه الناس كما يسمع عن البلدان الأجنبية الأخرى.

مرافق المسجد:

يتبع المسجد مرافق عديدة في أرض واسعة تحيط به، تظلل أكثرها الأشجار الباسقة منها مقبرة خاصة بالمسلمين، ومدرسة وبيت للإمام، وبيوت للعاملين في المسجد من مؤذن وخدم و(مسافر خانه) وهو بيت صغير للضيافة ينزل فيه من يحتاج إلى ذلك من المسلمين ولا يريد أن ينزل في الفنادق، أو لا يستطيع ذلك. وغرفة واسعة لتناول الطعام مستقلة، يستعملونها للمناسبات المهمة.

ويقع المسجد في مكان مرتفع لذلك يرى من مسافات بعيدة.

مدرسة الصوفية:

قالوا لنا: إننا سمينا المسجد (مسجد الصوفية) وبتعبيرهم (صوفي مسجد) وقال أحدهم: إن النصارى الأوروبيين يسمون محلاتهم وأماكن عبادتهم وحتى بلدانهم في بعض الأحياء بأسماء القديسين، ورجال الدين عندهم كقولهم (سانت مونيكا) لذلك رأينا أن نسمي مسجدنا والمدرسة التي

سنذهب إليها بالصوفية فالمسجد هو مسجد الصوفية والمدرسة هي (مدرسة الصوفية).

وقد أخبرتهم بأنه لا ينبغي الإقتداء بالنصارى في هذا الأمر، ولكن لو أسميتم المسجد والمدرسة بأسماء من أسماء الصحابة الأجلاء كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، أو بأسماء قادة مسلمين مشهورين فتح الله بهم البلاد مثل طارق بن زياد وصلاح الدين لكان ذلك أنسب.

على أن التسمية ليست في الحقيقة صادقة في تسمية المدرسة بل ليس فيها من الصدق شيء.

فقد ذهبنا معهم بسياراتهم التي هي كلها من صنع مرسيدس الألماني الغالي وتركنا سيارتنا في البلدة فخرجنا جهة الشرق من بلدة (بوتابوتي) لمشاهدة مدرسة الصوفية أو (صوفي مدرسة) كما يعبرون بها فوجدناها مدرسة حديثة مكتملة البناء تقع وسط أرض واسعة خارج البنيان في جو دراسي هادىء.

وقد تبرعت الجمعية الإسلامية في (بوتابوتي) بهذه المدرسة فاشترت أرضها وأقامتها على أحدث طراز مدرسي وقدمتها هدية لشعب بلدة (بوتابوتي) رمزاً لتقدير المسلمين لهذا الشعب الإفريقي الودود، ولموقفه تجاه المسلمين.

وذكروا أنهم سوف يعملون على فتح فصل دراسي فيها تدرس فيه مبادىء الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية لأبناء المسلمين ولكل من يريد من أبناء الشعب من غيرهم، وإلا فإنهم لا يستطيعون أن يفرضوا هذه الدراسة على التلاميذ الذين أهلهم من غير المسلمين.

وهذه الفكرة فكرة جيدة قيمة وهي أن يسهم المسلمون القادرون في أي بلد في إقامة مشروع من المشروعات الثقافية أو الإنسانية فيه وإهدائه لشعب ذلك البلد.

ومن هنا يتضح أن (صوفي مدرسة) أو (مدرسة الصوفية) ليست لها علاقة بالصوفية. بل ولا بغيرها من المذاهب الإسلامية، فليس فيها حتى الآن إلا المنهج الحكومي العام.

والمنطقة التي تقع فيها المدرسة جميلة جداً، إذ هي أرض منبسطة تغطيها الأعشاب الخضر، وتطل عليها التلال الجبلية التي توشح أقدامها الخضرة من أشجار كبيرة وأعشاب قصيرة، وتنتصب أعاليها شامخة خالية من ذلك فكأنها عمالقة القرون، التي ذهبت بشعر رؤوسها السنون.

ثم عدنا إلى المدينة وتفقدنا بعض نواحيها التي لم نرها من قبل. فوجدت أن النظافة فيها غير متوفرة وأن بلديتها مقصرة في ذلك. فالأوراق المتخلفة من التغليف أو نحوه متناثرة فيها لم تجد من يكنسها منها، ويبعدها عنها، والمياه الساربة من البيوت موجودة في أكثر الأماكن وقد أسنت مجاريها لكثرة لبثها دون أن تيبس.

مغادرة بوتابوتي:

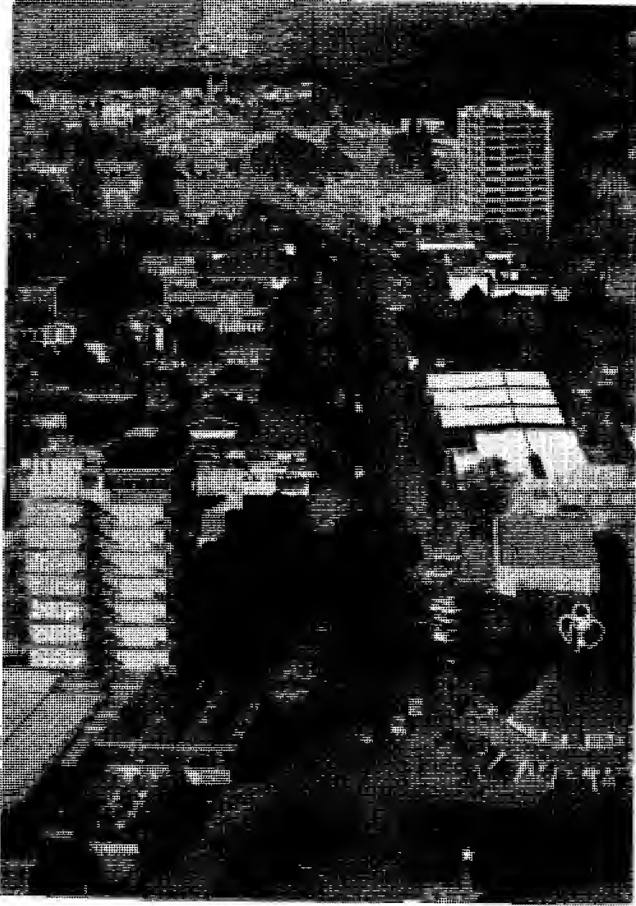
غادرنا بلدة (بوتابوتي) هذه في حوالى الخامسة عصراً، وكان الإخوة المسلمون في وداعنا جزاهم الله خيراً، وأخذ سائق سيارتنا (جوزيف . . .) يضغط على دافع الوقود في سيارته، لأنه يعرف أن كثيراً مما كنا نود أن نعرفه في الطريق قد تكلمنا فيه من قبل.

وكان من الأشياء اللافتة للنظر طيور (القماري) وهو نوع من الحمام البري يأتي إلى بلادنا مهاجراً في فصل الربيع من النصف الجنوبي من الأرض إلى النصف الشمالي منها اغتناماً لطول النهار فيه، ثم يعود في الخريف مهاجراً إلى النصف الجنوبي منها اغتناماً لطول النهار في جنوبها. وكنا ولا نزال نصطاد منه، وكان الناس في وقت المساغب والمجاعات في القديم يرتفقون بصيده وغيره من الطيور المهاجرة.

وكنا نتطلب صيد (القماري) هذا نخرج بالسيارات إلى حيث مناطق وقوعه ونخسر على ذلك جهداً ومالاً وهنا رأيناه اليوم كثيراً واقعاً على الطريق

يفر من أمام سيارتنا إذا قاربته، فيقع غير بعيد من الطريق، وكان الجو الآن صاحياً والشمس مشرقة.

وعدنا إلى العاصمة (مسيرو) في السادسة والنصف والشمس تسقط في المغيب.



مدينة مسيرو من مكان مرتفع

يوم الأحد ٢١/ ١٠/ ١٩٩٠م:

يقع فندقنا الفاخر الذي نسكن فيه وهو (ليسوتو صن) في حي مرتفع يطل على منظر أنيق، وهو مكان ممتاز لمن يريد قضاء إجازة ممتعة ولكن أنى لأمثالي بذلك.

وقد حضر إلى فندقنا في هذا الصباح الإخوان الدكتور صديقي وعثمان موسى فأعطيناهم اثنى عشر ألف دولار أمريكي إسهاماً من رابطة العالم الإسلامي في نفقات إقامة المسجد الجامع في مسيرو الذي يزمعون إقامته وجمعوا لذلك مبلغاً من المال.

وقد أخبرناهم أن هذا المبلغ الضئيل ليس هو كل المساعدة على إقامة هذا المسجد، وإنما هو مبلغ رمزي بمثابة البداءة بذلك، يضمونه إلى ما جمعوه من قبل لهذا الغرض، ثم يبدأون به البناء، وإذا قصرت بهم النفقة كان بإمكانهم الكتابة إلينا، ونحن نجتهد في إرسال مساعدة جديدة تساعد على إكماله إن شاء الله.

اللهم ساعدني:

الفقرة المهمة الباقية لنا الآن قبل مغادرة هذه البلاد الليسوتية هي زيارة منتجع مشهور، يسمى بلغة (سيسوتو) التي هي اللغة الوطنية لشعب ليسوتو

(موليمو انتوسي) ومعناه: اللهم ساعدني أو (ساعدني يا الله) وقد أسموه بذلك لما يلقاه من يأتي إليه من مشقة الصعود فيه.

كان الخروج إليه على سيارة مرسيدس أخرى جديدة قوية لأن المنطقة منطقة جبلية وعرة وقد أحضرها الأخ عثمان موسى وسائقها هو (جوزيف. . .) الذي ذهب بنا إلى (بوتابوتي).

وضعنا أمتعتنا في السيارة لأن الذهاب من الجهة التي سنذهب إليها أقرب إلى المطار من الذهاب إليه من المدينة وودعنا الأخوين الكريمين.

إنحدرنا من الفندق وغادرنا مدينة (مسيرو) مع طريق المطار في أول الأمر ثم تركناه مع طريق يتجه جهة اليسار مزفلت زفلتة لا بأس بها، إلا أنه ضيق لا يتسع لأكثر من سيارتين متقابلتين، ولكنه أحسن في هذا الأمر من طرق الهند التي تكون ضيقة في الأرياف وبين القرى، بحيث إذا تقابلت فيها سيارتان لا بد أن تقف إحداهما لكي تفسح الطريق أمام الأخرى كي تمر بسهولة إضافة إلى عوائق المرور هناك من حيوان وأناسي يمشون على أقدامهم، ولا يعرفون كيف يتفادون الإقتراب من خطر السيارات المارة.

وهبطنا مباشرة إلى واد غير ضيق ما لبثنا أن صعدنا بعده إلى تلة مرتفعة ذات سطح مستو كما هي عليه الحال في طبيعة هذه البلاد كلها.

والطابع العام الذي رأيناه في الطريق إلى (بوتابوتي) وغيرها لا يزال هو المسيطر من منازل متفرقة خالية من الأفنية حولها بل هي مقامة على هيئة غرفة واحدة، ليس بجانبها شيء وقلما ترى بيوتاً متلاصقة في هذه الأرياف. وإنما تتقارب البيوت في القرى فتؤلف قرية واحدة. أما المارة الذين رأيتهم في هذا الطريق فإنهم ذوو ثياب نظيفة كلها على الطراز الإفرنجي المعتاد، ما عدا بعض الحالات التي يرى المرء فيها بعضهم قد ارتدى رداء فوق ثيابه من بطانية أو نحوها.

وأشارت لافتة في الطريق إلى قرية اسمها (روما) فقلت في نفسي: ما لروما الأوروبية ولهذه البلاد الليسوتية الإفريقية؟

ثم بدأ الطريق يصعد تلة مرتفعة من جملة تلال متصلة وقد ساءت حاله.

وقد قلت أعداد السيارات فيه، وظهرت بعض البغال التي تحمل الأثقال معها أهلها القرويون مما يؤكد طبيعة هذه الأرض الجبلية. لأن البغال هي القادرة من بين الدواب كلها على العمل في البلدان الجبلية، كما شاهدت ذلك في عدة بلدان منها جبال كشمير، وذكرت ذلك في كتاب: «سياحة في كشمير».

وكلما ارتفع الطريق في المنطقة زادت خضرة الأعشاب في الأرض، وكثرت الأبقار في الأماكن المطمئنة في ظهور التلال الجبلية وفي الأماكن المنخفضة بينها غير الوعرة.

قرية هانتي:

وتقع على مجرى وادٍ ضيق تحيط به التلال العالية التي تطل عليها قمم جبلية مرتفعة، ورأيت أحد البغال وعليه حمله من القش، وأول جرار زراعي رأيته خلال جولتنا في ليسوتو، وذلك لكون القوم يعتمدون على الرعي أكثر مما يعتمدون على الزراعة رغم توفر الإمكانات الزراعية كما تقدم.

وقبل الوصول إلى قرية أخرى اسمها (نازارت) كثرت مسايل المياه تحت الطريق إلا أنها كلها جافة لقلة الأمطار في هذا الفصل من السنة الذي تنزل فيه الأمطار غزيرة في العادة.

ورأيت صبياناً يقفون على جانب الطريق ويمدون أيديهم بأشياء، فوقفت عند جماعة منهم فرأيتهم يبيعون حجارة ذات لون بلوري يعجبون بذلك، ولو رأوا بلاد البرازيل وما فيها من أنواع الحجارة البلورية العجيبة

المتعددة الألوان لما جرأوا على عرض ما معهم من كسرى الحجارة الساذجة التي ليس لها إلا لون واحد هو الأبيض الطبيعي على هيئة بلورات لامعة.

واستأنفنا السير، وقد ضاق الطريق وكثرت الحمير، مع أن الطريق يمر بمهاوٍ تحته وهو يسير في أكتاف الجبال، فترى وادياً عميقاً على هيئة هاوية بعيدة القعر وإذا رفعت رأسك رأيت الجبال عالية فوقك مع سوء حالة الطريق. ولكن سائقنا كان يأخذ حذره، ويتمهل في الأماكن الوعرة أو الخطرة.

ووقفنا عند بعض الرعاة، فكنت أجد لهم رائحة غير محببة، ولكنها ليست بالرائحة المعهودة التي يحس بها من يزور الأفارقة تحت خط الإستواء، وإنما هي ناشئة عن قلة الإغتسال، لأن القوم رعاة وقرويون لا يجدون الوقت الكافي أو المال الكافي أو حتى العناية الكافية لتنظيف الجسم.

هذا مع أنهم سود الألوان لا تكاد تفرق بينهم وبين سكان خط الإستواء في اللون، ولكن الفرق بينهم في الرائحة التي تفوح من الجسم واضح.

الصعود المخيف:

ومنشأ الخوف أن الصعود كان في جبل عال يشرف على وادٍ سحيق، بل وديان سحيقة، والصعود حاد والطريق ضيق لا يكاد يتسع لسيارة واحدة، وإنما فيه أماكن تتسع لوقوف إحدى سيارتين متقابلتين وليس هناك إحتياطات عن السقوط مثل وجود حواجز حديدية مما يلي الهاوية، بل الطريق ممسوح كله كأنه ظهر حمار، ومن المعروف لنا في القديم عندما كنا نركب الحمير أن السقوط من ظهر الحمار أكثر خطراً من السقوط من ظهر البعير رغم كون البعير أكثر ارتفاعاً وأبعد عن الأرض من الحمار.

والطريق إلى ذلك يلتوي مع التواء صفحة الجبل، فلا يبصر السائق ما

أمامه من السيارات التي يحتمل وجودها، ولكن سائقنا كان ماهراً، فكان يتأنى في مواضع عند التعرجات ويقف عند الملتويات.

وحتى الطريق نفسه مهمل قد ملأت صفحته الحفر والنقر.

واستمر الصعود من الجبل واسمه (لخالو لابارو) ثم انحدرنا منه إلى هوة عميقة كان الطريق وهو ينحدر إليها يساير أكتاف الجبال ثم ينحدر إلى صدرها ثم يخاصرها ثم ينزل إلى أردافها حتى وصل إلى أقدامها أو كاد. وفي الأماكن المتوسطة في ارتفاعها وانحدارها من الجبال كانت توجد بيوت تقليدية متفرقة أكثرها من المبني بالطين المسقف بالقش.

نهر خالنق:

الأنهار هنا كثيرة صغير نزر المياه، وقسم منها لا مياه فيه أصلاً، بسبب قلة الأمطار في هذا العام كما أخبرونا، ومع ذلك فإن الأعشاب لا تزال خضراء في أكثر الأماكن التي رأيناها. وحتى الأماكن التي تكون أعشابها غير خضراء فإنها صالحة لرعي الماشية، وذلك أن المطر قد نزل عليهم بمقادير قليلة. ولكنها كافية لنمو الأعشاب، وليس موسم الجفاف أي عدم نزول المطر في الوقت المعتاد معناه عدم نزول المطر أصلاً كما يكون في بلادنا الصحراوية.

وصلنا في عمق هذا الوادي السحيق إلى نهر يجري بالمياه، ولكن مياه قليلة بالنسبة إلى سعة مجراه رغم وقوعه في أرض جبلية.

ويسمى نهر خالنق وسرنا على ضفته يسايره الطريق لفترة قصيرة حتى وصلنا إلى هدفنا وهو:

موليمو انتوسي:

ومعناها: اللهم ساعدني كما تقدم وهنا تركنا الطريق الضيق تصعده حافلة واقتصرنا على رؤية هذا القدر من الطريق الجبلي الوعر.

فنزلنا عند فندق مبني من الخشب ما عدا قاعدته ويقع على ضفة النهر عند منحدر للمياه حيث تنزل من صخور جبلية محدثة شلالات غير بالغة الإرتفاع ولكن لسقوط المياه فيها وجريانها بعده خرير لطيف.

وعند هذا الفندق وحول هذه الشلالات غرسوا في الأماكن المرتفعة غابات من أشجار الظل الظليل، قد نمت وأظلمت مع أنها ليست على مياه النهر فالنهر عميق المجرى. ولكن الأشجار تنمو بسبب برودة الجو برودة نسبية وكثرة الندى في هذا المكان المنخفض.

وبسبب ـ ذكروه لنا ـ وهو أن الثلج ينزل على هذا المكان في فصل الشتاء كله كما أخبرونا أن الطريق الذي تركناه يصعد في الجبل بعد هذا الوادي يصل في نهايته إلى منطقة فيها ثلوج في الوقت الحاضر.

وهذا المكان منتجع خلوي جميل في هذه البلاد الليسوتية الآمنة التي لا يخشى من يكون فيها من معتدٍ أو منتهب، والفندق جيد. دخلنا مقصفاً فيه منفرداً مرفوعاً عن الأرض بدعائم خشبية قوية ويصعد إليه من درج خشبي قوي وطلبنا شاياً فيه، فجاءنا مديره وهو إفريقي لطيف المعشر، سريع الإبتسام، سهل التفكير مثل أكثرهم واسمه: (بهانو موهابي).

تعجب خلالها حينما رأى الكتابة بالعربية، وقال: كيف يقرأ هذا؟ فقلت له: إنها كانت لغة العلم والثقافة في أوروبا لقرون طويلة ولا تزال آثارها باقية في اللغات الأوروبية من مفردات الكلمات إلى المصطلحات العلمية العريقة.

سألني عن بلادنا السعودية وقال: (البترول) عندكم رخيص. قلت: نعم ولكن الماء قليل، فليس عندنا أنهار مثل بلادكم.

ثم سألني بعفوية عن عمري فقل له: كم تظن؟ فقال: خمسون، فقلت له: شكراً. وقال له الدكتور مومنيات: لقد أهديت الشيخ أربع عشرة سنة

فعمره (٦٤) فتعجب من ذلك أيضاً، وقلت له: شكراً على هذه الهدية والفضل لله تعالى، فقال لي: هل تدخن؟ قلت: لا، وما دخنت طول حياتي، وأزيدك شيئاً آخر وهو أنني لم أذق أي نوع من أنواع الكحول في حياتي حتى الخفيف منها كالبيرة.

وقد جاملنا فأحضر لنا شيئاً من البسكويت مع الشاي بمثابة الضيافة منه.

ويبعد هذا المنتجع الجيد عن العاصمة ٨٢ كيلومتراً، ولكن أكثرها مع طريق وعر، بل خطر.

ثم تركت القوم يستريحون، ونزلت من المقصف فرأيت طائفة من الصبيان والبنيات الصغيرات. فطلبت أن ألتقط لهم صورة فأجابوا إلى ذلك وهم يبتسمون كما هي عادة أكثر الأفارقة في محبتهم للتصوير، وسهولة طبيعتهم.

العودة إلى المطار:

تركنا هذا المنتجع الواقع قرب نهر خالنق، وكنا نود اللبث فيه لوقت أطول لولا خوفنا من أن يضيق بنا الوقت دون اللحاق بالطائرة المسافرة إلى (جوهانسبرج) التي سنسافر عليها.

ووقفنا عند قرية ليسوتية أصيلة غير بعيدة من ذلك المكان والتقطنا صوراً تذكارية فيها، وقد رأيت فيها أنواع البيوت المعتادة في هذه البلاد من الأكواخ الإفريقية التقليدية الهرمية الشكل إلى بيوت الطين المسقف بالقش.

ثم عدنا مع الطريق نفسه، ولم يكن في هذا الطريق جديد إلا كثرة الأطفال الذين على أكتافهم الأردية فوق ثيابهم المهلهلة، وهم يمدون أيديهم إلى الطريق يريدون أن يرى ركاب السيارات ما بها من حجارة صغيرة لامعة،

مع قلة السيارات فيه، وإلا إفريقيات وطنيات يحملن ما معهن على رؤوسهن وهن يسرن على جانب الطريق على أقدامهن. ويصعدن أماكن مرتفعة.

وقابلنا في مضيق من الطريق الذي يطل على هاوية سحيقة من جانب وتطل عليه من الجانب الآخر قمة جبلية عالية قطيعاً من الأغنام البيض، بل الناصعة البياض. وعجبت أولاً لشدة بياض الغنم، وشدة سواد الناس، وعجبت ثانياً من كون السائق أوقف سيارته بهدوء لكي تمر الأغنام من حولها دون أن يتأفف أو يغضب من الرعاة ثم عجبت من الرعاة الذين شكروا للسائق صنيعه فهم يبتسمون. ومضى كل منهم راضياً.

والغريب أن هذه الأغنام البيض الكثيرة كان معها ثلاثة رعاة وهي تشبه الأغنام الإنكليزية، وربما كان أصلها من هناك. وكان معها أيضاً كلب يعرج لا يكاد يلحق بالغنم لعرجه، فكيف يستطيع أن يحميها من الذئاب أو حتى من المنتهبين. إلا إذا كان ذلك بمجرد نباحه وتنبيهه بذلك لأهلها.

كما اعترضنا في الطريق رجل مسن لم يبعد عن طريق السيارة بسرعة، فابتسم السائق وهو يهدئ من سرعة سيارته ويقول: إنه شيخ كبير (أولدمان).

ووصلنا المطار في الوقت المطلوب وهو الواحدة ظهراً لأن طائرتنا ستقوم في الثانية.

وكان أهم ما استرعى انتباهي في المطار صورة لملك ليسوتو الممنوع من ممارسة سلطات الحكم والموجود الآن في لندن واسمه (موشو إيشو الثاني) وبجانبه صورة غريمه (الميجر جنرال) جوستان متسنج ليجانيا رئيس المجلس العسكري، ومجلس الوزراء الذي منع الملك من ممارسة الحكم وإن لم يلغ الملكية فبقي الملك في لندن ينتظر ما تأتي به الأيام. وكان هذا (الجنرال) قد قام بحركته في يناير عام ١٩٨٦م.

وقد علقت الصورتان معاً في المطار إحداهما قرب الأخرى، وبدا

بذلك الفرق واضحاً بين الرجلين في المظهر فالملك أسمر أكثر من كونه أسود، وتقاسيم وجهه تميل إلى القرب من تقاسيم وجوه البيض، ولا أقول: تميل إلى الإعتدال لئلا يفهم من ذلك أنني أقول: إن تقاسيم وجوه الإفريقيين السود غير معتدلة.

وأقرب شبه للملك معروف لنا هو شبهه بالطوارق، وبعض السمر من العرب الجنوبيين. أما رئيس المجلس العسكري ومجلس الوزراء فإنه إفريقي المظهر لوناً وشكلاً.

وقاعة المغادرة في المطار أحسن من قاعة الوصول وفيها على ـ صغرها ـ مقاعد وثيرة جديدة.

العودة إلى جوهانسبرج ثانية:

انتهى كل شيء يتعلق بالترحيل بيسر وسهولة، فالطائرة صغيرة، وركابها نتيجة لذلك عددهم قليل. ولا حاجة بهم إلى مراجعة سمات الدخول وسمات المغادرة لأنها لا تطلب ممن كانوا قد أتوا من جنوب إفريقية.

وقامت الطائرة الليسوتية الصغيرة في موعدها المحدد بالضبط، وهو الثانية ظهراً وهي كالتي قدمنا عليها، إن لم تكن هي نفسها، وأعلنوا أن الطيران سيستغرق ساعة وخمس دقائق، وكانت الضيافة كأساً من عصير البرتقال والكوكا كولا، وحبات من الفول السوداني موضوعة في كيس مختوم من الورق وقرصان من البسكويت. وفيها مضيفان أسودان هما فتى وفتاة. ولم يكن فيها من الركاب إلا ما ملأ أقل من نصف مقاعدها، ولم يكن في طيرانها ما يسترعي الإنتباه.

وعندما كانت الطائرة تحوم فوق ضواحي مدينة جوهانسبرج تجدد إعجابي بتخطيطها وتنظيم شوارعها، لولا ما اتبعوه من السياسة العنصرية التي تحرم أن يساكن أصحاب لون أصحاب لون آخر من الناس. وهبطت في مطار

جوهانسبرج في الثالثة، واستغرق الطيران ساعة واحدة، وليس ساعة وخمس دقائق ووجدنا في استقبال طائرتنا الصغيرة هذه بركابها السبعة عشر امرأتين من البيض وهما تطالعان الناس بعيون فاحصة، وركبنا مع الركاب في حافلة كبيرة حتى الدخول إلى مبنى المطار. وفي المطار تجددت مناظر الجمال السائر على الأرض متمثلاً في ورد الخدود، وغصون القدود، والمناظر الأنيقة التي خلع عليها الربيع غلالات رقيقة.

وكانت شمس إفريقية الأصيلة، قد صبغت تلك الخدود الأسيلة، بصبغة محببة، جعلتها لمن يعيشون في البلدان العربية مقربة، لأنها قربتها من ألوان العربيات، وأبعدتها من سحنات الأوروبيات إلى جانب العيش الناعم، الذي امتزج بالجمال المتناغم.

ومع أن الإنسان في مثل هذه الحال، لا يبحث عن المنطق بأي حال، إلا أنني ساءلت نفسي عن كوني لم أشعر كل هذا الشعور بجمال ربات الجمال أول ما وصلت من بلادي، فقلت: لا شك أن السبب أنني قدمت من وادٍ غير ذلك الوادي، من بلاد السمر، وإن شئت قلت: من أرض القوم السود الغبر، و(الضد يظهر حسنه الضد..) كما يقال، ولذا أنشد لسان الحال: «بضدها تتبين الأشياء».

وحتى عندما ركبنا سيارة أخينا الدكتور محمد مومنيات وصارت تعوم في شوارع جوهانسبرج التي كادت تخلو من السيارات، كان الجمال يطل من خلال الذوق الرفيع، حتى خيِّل إلي أن الجميع يشعرون مثلي بالجمال على كل حال.

حتى التلال الذهبية في جوهانسبرج التي كانت يوماً ما حملاً من الحمل في جوف الأرض ولكنها حمل في بطنه حمل من الأصفر الرنان، ثم انتهى الذهب، وبقي العجب، في هذه التلال الصفر، التي عالجوها فأحالوها إلى

تلال خضر، حيث زرعوها ورعوها بالعناية للغاية. فصارت من معالم جوهانسبرج البارزة وإن كانت في السابق من عيوبها المتمايزة.

في قلب جوهانسبرج:



جوهانسبرج

وهذه المرة لم نذهب إلى أطراف جوهانسبرج الآسيوية، ذات السحنة الصفراء، وإنما ذهبنا إلى قلبها ذي الصبغة السمراء، وإن لم تشأ المجاملة قلت: إنه القلب الأسود، وأنت بذلك لم تبعد عن الحقيقة، فتلك المنطقة

من المدينة هي منطقة سوداء كما لونها الحاكمون البيض، الذين لم يكونوا يتصورون أن الكيل سيفيض، حتى يصبح فيضانه تياراً يلفهم مجتمعين، وقد يذهب بهم أكتعين أبصعين.

فنزلت في فندق كبير اسمه (داون تاون إن) على وزن (هوليداي إن) إلا أن المراد بالداون تاون وهي تعبير أمريكي هو قلب المدينة.

وكان السبب في النزول هنا، أن أخانا الدكتور محمد مومنيات كان قد قال لي: إن غداً الإثنين هو عيد ميلاده، وإن أسرته تجتمع مع أهله بهذه المناسبة، فلم أشأ أن أثقل عليه بالسفر غداً إلى سوازيلاند، وإنما أجلته إلى ما بعد غد، بعد أن طلبت منه أن يرسل من يرشدني غداً إلى قضاء حاجات لي عديدة أهمها الحصول على سمة دخول إلى (سوازيلاند)، والنظر في تغيير تذكرتي إلى البرازيل.

وقد نزلت في فندق (داون تاون إن) وهو فندق كبير جداً، أنزلوني في غرفة جيدة كفنادق الدرجة الأولى واقعة في الطابق الثامن، وتطل على قسم كبير من قلب المدينة كان أوله حديقة خضراء ذات عشب مهذب قد انبطح عليه الإفريقيون السود أو تسلقوا في شمس جوهانسبرج التي تكاد تكون كشمس الشتاء عندنا ومع ذلك تذكرت طوائف الإفريقيين في نيروبي وغيرها من البلدان الباردة الذين كانوا يستلقون أو ينبطحون على وجوههم في الشمس غير مبالين بما حولهم.

الخروج الخطر:

قال لي الدكتور مومنيات: لا تخرج من الفندق، فالخروج منه فيه خطر عليك، ولما رآني غير مقتنع من كلامه لأن الوقت نهار، وأنا أريد أن أتمشى في هذا الجزء المهم من قلب المدينة. سأل رجلاً في الإستقبال أسود اللون

إلا أن تقاسيم وجهه هي تقاسيم وجوه الآسيويين، ويظهر أن أحد أبويه أسود، والثاني آسيوي، فسأله عن الخروج وكلامهم كلهم بالإنكليزية.

فقال الرجل: إن الخروج من الفندق فيه خطر عليك، وربما لا يقتصر على أخذ النقود منك، فقد يكون مع ذلك الإعتداء أيضاً بالضرب أو بالضرب بالسكين.

فقلت له: وفي الغد؟ أي يوم الإثنين، فقال: لا مانع من الخروج، لأن الأسواق تكون فيها الناس. وكانت المتاجر مغلقة إلا أن المارة كثر، وكلهم سود.

فأخلدت إلى الراحة والكتابة فيما تقرأه من هذا الكتاب، إن كنت قرأته.

وأجرة الغرفة فيه ١٧٢ رانداً ويساوي ذلك ٧٠ دولاراً أمريكياً.

وفي المساء تعشيت في الفندق، وكان جميع العاملين في مطعمه ومقهاته هم من السود ما بين رجال ونساء والنساء أكثر، وكانت خدمتهم جيدة، ومعاملتهم للنزلاء ممتازة، وهم على غاية من الذوق والتهذيب، وكان الآكلون في الفندق أكثرهم من البيض، ولكن الذين سألتهم منهم عن بلادهم أخبروني أنهم من الأجانب عن جنوب إفريقية جاء بعضهم للسياحة، وبعضهم جاء للعمل.

يوم الإثنين ٢٢/ ١٠/ ١٤١١هـ.

أسرع سمة دخول:

انتظرت من سيرسلهم الدكتور مومنيات إلي فطال انتظاري ثم جاء الأخوان إسماعيل قاسم، ومحمد نو بهائي الذي أكد - مازحاً - ألا علاقة له بالبهائية، وإن كان اسمه (بهائي) فذهبت معهما في سيارة لأحدهما إلى مقر البعثة التجارية لسوازيلاند المخولة منح سمات الدخول إلى تلك البلاد.

وعندما وصلت وجدت طائفة من الناس كلهم أسود، وهم ينتظرون فخشيت أن يتأخروا إذا استعملوا الدور فقال الأخ (بهائي) إنه يحمل جواز سفر (دبلوماسياً) فأسرعت المرأة وهي إفريقية بدفع الجوازات والإستمارات التي معها وحملت جوازي إلى داخل المكتب وبعد ٣ دقائق جاء القنصل به مختوماً وهو يهلّي ويرحب ويحمل معه مجموعة من الخرائط والأوراق الدعائية السياحية عن (سوازيلاند).

ولم يستغرق دخولي للمكتب والحصول على السمة إلا أقل من خمس دقائق، لأن الأخ بهائي ملأ الإستمارة بالمعلومات الضرورية التي كنت أمليها عليه بسرعة.

وقد أعطوني سمة دخول سياسية، ولم يأخذوا رسماً عليها.

وكانت هذه أسرع سمة دخول حصلت عليها في حياتي.

وقبل يومين حصلت على سمة الدخول إلى ناميبيا بسرعة وسهولة ولكن ليس بهذه السرعة والسهولة.

العزم على السفر إلى البرزايل:

وكنت متردداً في السفر إلى البرازيل بعد الفراغ من الجولة في هذه المنطقة الإفريقية الجنوبية من أجل الوقت وذلك لمعالجة مشكلة في المركز الإسلامي الجديد في العاصمة (برازيليا) الذي بنته المملكة العربية السعودية ويحتاج في إدارته إلى عناية ومال لم يتقدم له من يقوم بهما.

وقد هاتفت الدكتور عبد الله نصيف الأمين العام للرابطة، فرغب إليَّ أن أقوم بزيارة البرازيل إذا رأيت ذلك.

ولم أكن عزمت في نفسي على السفر إلى هناك، ولا كنت أعددت التذكرة وسمة الدخول إلى البرازيل من بلادنا.

فذهبت إلى مكتب شركة الطيران البرازيلية (فارج) ووجدت في مكتبها فتاة إسبانية نشيطة رحبت بي، فطلبت منها أن تنظر فيما بقي من تذكرتي أتكفي للذهاب إلى البرازيل والعودة إلى المملكة إذا حولتها من الدرجة الأولى إلى السياحية فرحبت بذلك وطلبت إمهالها ساعة.

وانتهزنا الفرصة هذه من الوقت فذهبنا إلى مطعم للمسلمين في منطقة في وسط مدينة جوهانسبرج وجدنا فيها عدة مطاعم للمسلمين، وأهم ما يميزها بالنسبة للغريب أنها مكتوب عليها كلمة (حلال) باللغة العربية وبالحروف العربية.

وأخبرني الأخوان اللذان معي أن أكثر سكان هذه الناحية من وسط المدينة هم من المسلمين.

فأكلنا حلالاً بلالاً مكتوباً حتى على صورة الأكلة، وقائمة الطعام أنه حلال مع أن أهله مسلمون معروفون بذلك حتى أخبروني أن صاحب المطعم هو حافظ للقرآن الكريم. ولكن ذلك من باب تطمين الآكلين.

وكان الآكلون أكثرهم ممن عليهم السمات الهندية الآسيوية، وبعضهم ليسوا كذلك، وقال الأخوان بهذه المناسبة: إن غير المسلمين يأكلون أيضاً في مطاعم المسلمين لنظافة الطعام ورخص سعره. ثم عدنا إلى البرازيلية فأخبرتنا الفتاة الإسبانية التي كانت قد أعطتني اسمها لأن تذكرتي عندها وهو: (ياسمين. . .) فذكرت أن التذكرة كافية ولا تحتاج إلى أية مبالغ إضافية لتكون كما طلبتها من جوهانسبرج مروراً بمطار كيب تاون ثم مدينة (ريو دي جانيرو) فبرازيليا (العاصمة) فمدينة ريو دي جانيرو ثانية فمدريد عاصمة اسبانيا. ومنها إلى (ملطة) في جنوب اسبانيا، ثم الدار البيضاء، ثم جدة.

إلا أن المشكلة هي في الحصول على سمة الدخول إلى البرازيل، وقد أخبرتني (ياسمين) أنها هاتفت سفارة البرازيل في (بويتوريا) عاصمة جنوب إفريقية وذكرت أن جوازي دبلوماسي سعودي، وأن السفارة أخبرتها أنه لا بد من كتابة برقية (تلكس) من إحدى السفارات السعودية في إفريقية أو في أقرب بلد من جنوب إفريقية، لأن الجواز (الدبلوماسي) يحتاج إلى ذلك.

فطلبت منها أن تبقي التذكرة عندها والحساب الذي أعددته لتغييرها جاهزاً حتى أعود إليها بعد أن أحصل على السمة وإن لم أحصل عليها لم أغير التذكرة.

وكان الدكتور مومنيات يتابع الإتصال بي رغم تلك المناسبة المهمة له، وقد أخبرني أنه سيكتب كتاباً من عنده إلى سفارة البرازيل، لأنه طبيب معروف هنا، ومكتب الرابطة مسجل رسمياً في البلاد.

يوم الثلاثاء ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٠م.

إلى بريتوريا:

مر علي الأخ (راشد أحمد شوبدات) بسيارته للذهاب معه إلى مدينة بريتوريا عاصمة جنوب إفريقية، وذلك من أجل الحصول على سمة الدخول من السفارة البرازيلية فيها.

فحزمت أمتعتي وكنت أول الداخلين إلى مطعم الفندق في السادسة، ثم نقدت الفندق ما له عندي. وغادرناه في السابعة والنصف قاصدين مدينة (بريتوريا).

وتبلغ المسافة ما بين جوهانسبرج إلى بريتوريا ٧٢كم غير أن ذلك لا يشمل المسافة ولا الوقت اللازم للخروج من قلب جوهانسبرج المزدحم بالسيارات، المليء بإشارات المرور التي تقف حجر عثرة في سبيل السيارة المسرعة.

ولذلك لم نخرج من المدينة إلا في الثامنة حيث ركبنا طريقاً سريعاً سماه الأخ (راشد) بالهاي واي فمررنا بضاحية للبيض غارقة في الجنات لا تكاد تبصر البيوت فيها من التفاف الحدائق حول منازلها، وفي شوارعها.

وكانت أشجار الزهور وهي الأشجار التي تكون أوراقها كالزهور مع

أنها أشجار كبيرة، وتكون تلك الأشجار متنوعة الألوان ما بين أرجوانية إلى وردية إلى صفراء، وأغلبها أرجوانية أو بنفسجية، وقد رأيتها في بلدان كثيرة وأغلب ذلك كان في (نيوزلندا).

ونذكر بهذه المناسبة أن (نيوزلندا) موغلة في الذهاب عن جنوب خط الإستواء إلى أن تكون أقرب إلى القطب الجنوبي منها إلى خط الإستواء، وقد ذكرت أمر الرحلة إلى نيوزلندا في كتاب: «إطلالة على نهاية العالم الجنوبي»، الذي نشره النادي الأدبي في مكة المكرمة في عام ١٤٠٤هـ.

والسيارات هنا كثيرة، والجو والناس يشعرونك كأنما أنت في جنوب أوروبا أو بعض بلدان أمريكا الجنوبية البيضاء كالأرجنتين، لأن معظم الراكبين في هذه السيارات هم من البيض، وإن كانت فيهم نسبة من الآسيويين، أما السود الذين هم أهل الأغلبية في البلاد فإنهم هنا قليل.

ثم وقعنا في ريف خالص، قد اعشبت أرضه، وأزهر عشبه فكان متعة للنظر.

بلدة لتلتون:

وتبعد بلدة لتلتون ٤٠ كم عن جوهانسبرج ذات بيوت حديثة جميلة، ونوه الأخ راشد بأنها للبيض.

وأسرع السائق بسيارته حتى قال وقبل أن أتوقع ذلك:

هذه هي بريتوريا.

وهي التي طالما سمعنا باشمئزاز الكثير عن سياستها العنصرية التعسفية المخالفة أولاً لما قرره ديننا الإسلامي الحنيف في الآية الكريمة: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**. فذكر أن اختلاف الناس وتفرقهم إلى

شعوب وقبائل إنما هو للتعارف لا للأفضلية باللون أو الأصل أو التفاخر بذلك: ولذلك قال: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

وأمر الإسلام بعدم التفريق بين الناس إلاَّ بأعمالهم، فقال الرسول ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وحتى من الناحية العقلية فالإنسان يحاسب ويجازى على خُلُقه بضم الخاء واللام، لأنه من كسب يده، ولا يحاسب على خَلْقه بفتح الخاء وإسكان اللام لأنه ليس من عمله، ولا كسب له، بل لا يد له به.

فالأبيض لم يعمل شيئاً ليكون أبيض اللون، والأسود لم يعمل شيئاً ليكون أسود، ولذلك لا تترتب على اللون حسنات ولا سيئات بحد ذاته وإنما يترتب ذلك على فعل الشخص وعمله.

أول ما مررنا به من مدينة (بريتوريا) عند مدخلها هو بناء السجن العام. وقال الأخ راشد: إنه مليء بالسجناء وفيه (٣٥) سجيناً مسلماً أكثرهم سجنوا لأسباب سياسية أهمها مقاومة التفرقة العنصرية.

وقد اتسع الطريق وزاد حسناً وترتيباً عندما اقتربنا منها مع أنه كان واسعاً جميلاً، فالأشجار صارت تحيط به، وتجميله صار أكثر.

ورأينا وسط المدينة التجاري أو ما يسميه الأمريكيون بالداون تاون ذا أبنية (عمارات) عالية بهيجة المنظر، إلا أنها ليست في كثافة العمارات في المدن الكبيرة مثل جوهانسبرج ودربن التي زرتها في المرة الأولى.

ولكن الشيء غير الجيد في هذا الطريق وفي المدينة نفسها كثرت إشارات المرور الضوئية التي تعيق السير فليس فيها ما في المدن الحديثة من الجسور أو الدورات التي تسير عليها السيارات المتقابلة دون أن تتوقف.

والسيارات كثيرة وهي سيارات ركوب جيدة.

وبدت المدينة في شبه وادٍ منخفض تحيط بها من جهة الشمال تلال جبلية قد غرسوها بأشجار الغابات حتى غدت كالغابة الواحدة الملتفة.

وحتى وسط المدينة وما على شفير الوادي، والمنخفض من الأرض التي تقع فيه مكسو بأشجار خضر من أشجار الظل الكثيفة. ومفروش بالمساحات الخضر في اتساع عظيم لهذه المساحات والبقع الخضر.

وقد مررنا ونحن نسرع ابتغاء السفارة البرازيلية، لأننا سوف نغادر جوهانسبرج في الثالثة ظهراً إلى سوازيلاند هذا اليوم، ولنا موعد مع شركة الطيران البرازيلية قبل ذلك لتغيير التذكرة.

ولذلك لم نقف عند (حديقة الحيوان) التي كان مظهرها وإعلانات حول بوابتها تغري بالدخول، وهذا القسم بل الأقسام التي مررنا بها من المدينة هي خاصة بالبيض، وليس للألوان الأخرى التي هي الملونون والآسيويون والسود فيها نصيب، وإنما أولئك لهم أماكن أخرى خاصة بهم لا يساكنهم فيها لون غير لونهم على حد ما قررته السياسة العنصرية الهوجاء.

وذكر لي الأخ راشد ومن بعده أخوة آخرون أن الآسيويين الموجودين في منطقة بريتوريا أكثرهم من المسلمين وفيهم أسرتان أو ثلاث من الإسماعيليين أتباع آغا خان، وأن الهنادكة فيها قليل. ثم مررنا بقلب المدينة التجاري بشوارعه الواسعة، ومحلاته الكبيرة التي كان معظمها مغلقاً لأنها تفتح في التاسعة أو بعد ذلك بقليل.

حي (الدبلوماسيين):

كان الأخ راشد يحمل معه عنوان السفارة البرازيلية ويقول: إنها في حي السياسيين (الدبلوماسيين) فاتجهنا إلى شرق المدينة ويقع في مرتفع أخضر من الأرض.

ووصلنا قبل ذلك إلى منطقة للوزارات الحكومية وهي كذلك خضراء مزهرة منسقة. وأما أبنية الوزارات فإنها جميلة، ومنسقة ولكنها ليست من الفخامة بالمكانة التي عليها أبنية الوزارات في بلادنا.

ومما يجدر ذكره هنا أن (بريتوريا) هي عاصمة البلاد فالوزارات فيها هي وزارات إتحادية مهمة. وهناك مبنى في المنطقة ضخم ممتاز المظهر هو مبنى الإتحاد أي إتحاد ولايات جنوب إفريقية وهو يطل من مكان مرتفع على المدينة كأنما يهيمن عليها كما يهيمن البيض وهم أقلية على الأكثرية فيها.

ثم وصلنا إلى جنة أرضية حقيقية يتمثل ذلك في دارات (فيلات) جميلة المظهر محاطة بالحدائق المزهرة بأنواع الزهور التي تملأ كل اتجاه.

حتى الشوارع فيه هي مزهرة من أشجار الزهور الرائعة إلى الزهور المختلفة الألوان.

والجمال الماشي على قدميه فيه يكاد يشغلك عن الجمال الذي يحيط بك، إلا أنك لا تستطيع إلا أن تنظر إلى الجمال كله وكأنه وحدة متكاملة.

لم يستطع صاحبي التعرف على مكان السفارة البرازيلية فلم يجد من يسأله إلا فتاة جامعية كانت قد وضعت على ظهرها دفاترها الدراسية. وقربت دراجتها الهوائية ـ إن شئت كتبتها بالمد نسبة إلى الهواء الذي في عجلاتها، وإن شئت كتبتها بالقصر نسبة إلى الهوى الذي يعصف بمن يرى من فوقها.

فسألها، فكان أن ترجلت من الدراجة، ووضعت حقيبة كتبها جانباً، ثم عادت تدخل بيتها، وكنا رأيناها عند بابه لتسأل أهلها، ثم عادت تذكر المكان وتصفه للرجل، وكنت أتهيأ لالتقاط صورة للشارع الجميل فاستأذنتها في أن ألتقط الصورة ولو كانت ظاهرة فيها، فاحمر وجهها خجلاً حتى صار في حمرة الورود التي تحيط بها.

وهنا قال أحدهم لها: يا سيدتي، لا تخشي أن يكتشف أحد مكانك في الصورة فأنت زهرة بين الزهور لن ينظر إليك أحد على غير ذلك.

السفارة البرازيلية:

ولم تكن السفارة البرازيلية في حد ذاتها تستحق أن يفرد لها عنوان، ولكن السبب في ذلك هو ما استرعى انتباهي عندها.

فلم نر أي حارس، لا من الناس ولا من الكلاب مثلاً، ودخلنا للفناء الخارجي كأنما ندخل إلى بيت معتاد، إلا أنه مفتوح للداخلين، ثم دخلنا المبنى الداخلي فلم نجد أحداً إلا عدداً من البيض، ينتظرون دورهم فسألناهم عن وجود المسؤول فأشاروا إلى مكان قالوا: إنه ستخرج منه فتاة مسؤولة. وهنا خرجت امرأة سوداء فأعطيتها جوازي، ومعه كتاب مكتب الرابطة في جوهانسبرج المختوم بالخاتم الرسمي، فسارعت قائلة: هذا لا يكفي، لا يكفي، لقد أخبرت الشركة البرازيلية في جوهانسبرج بالهاتف أمس بأنه لا بد من (تلكس) من إحدى السفارات السعودية في إفريقية، وإلا فإنه لا (فيزا).

ثم أخذت الجواز ودخلت به إلى داخل المبنى، وبعد حوالي دقيقتين جاءت امرأة برازيلية أصيلة ممن نعرف أمثالها في البرازيل، فقالت وهي تحيي وترحب مع ابتسامة برازيلية صادقة، ما هو نوع (الفيزا) التي تريدها هل هي رسمية (أوفيشال) أو سياسية (دبلوماتيك)؟

فقلت لها: ما ترينه فالمهم أن أذهب إلى هناك، فسارعت بالترحيب قائلة: كم تود أن نعطيك من المدة في البرازيل؟

فقتل أيضاً: ما شئت. فانحنت مبتسمة وبعد قليل عادت بالجواز عليه السمة رسمية دون أن تطلب نقوداً، ولكن كان معها هذه المرة سيدة برازيلية أخرى مثلها من البيض اللاتي غيرهن الطقس والجو الإجتماعي في البرازيل فصرن في لون العربيات الشماليات.

واشتركت السيدتان في الترحيب ثم في التوديع والتمنيات الطيبة بإقامة طيبة في البرازيل، ولم تكتفيا بذلك، بل جاملتاني بقولهما: نرجو أن نراك مرة ثانية.

وبدأنا العودة إلى جوهانسبرج قبل أن تتم الساعة العاشرة، وكنا نظن أننا لن ننتهي قبل الثانية عشرة ولكن لم نلبث في السفارة البرازيلية إلا أقل من عشر دقائق.

ومررنا بالشركة البرازيلية (فارج) فأمرتهم بتغيير التذكرة وتسلمتها منهم بسرعة، وحين شكرت الفتاة الإسبانية الأصل التي في الشركة وهي (ياسمين) أعطتني عنوانها للمكاتبة إذا أردت، ولن أريد ذلك بطبيعة الحال، وإن كنت ممتناً من حسن مقابلتها، وكريم معاملتها.

ثم تغدينا في مطعم (حلال) آخر، وخرجنا إلى المطار.

مملكة سوازيلاند

سوازيلاند:

تعتبر مملكة سوازيلاند من الدول الصغيرة في القارة الإفريقية بل هي ثانية الدول فيها من هذه الناحية وهي إحدى الممالك الثلاث المتبقية الآن في إفريقية والمملكتان الأخريان هما: المملكة المغربية و(ليسوتو). تحدها من الشرق موزامبيق ومن الشمال إلى الجنوب تحدها جمهورية جنوب إفريقية تبلغ مساحتها ١٧,٣٦٢ كيلومتر، وتنقسم البلاد إلى ٤ أقسام رئيسية تمتد من الشمال إلى الجنوب وهي:

الهضبة المرتفعة وهي منطقة جبلية بمناظر خلابة، تتخللها أودية نهرية عديدة. وتغطي غابات الصنوبر معظم أجزاء هذه المنطقة وتوفر للدولة معظم دخلها الخارجي أما الأقسام الأخرى فهي الهضبة الوسطى وهي منطقة خصبة، والهضبة الغربية وهي أنموذج للغابة الإفريقية تغطيها حقول سكر واسعة أما منطقة لوبومبو فتفصلها أغوار جداول الأنهار الثلاثة وهي لوسوتو وأنغوافوما وأمبولوزي.

وتتمتع سوازيلاند بمناخ يعد من أجمل أنواع المناخ في العالم، فالصيف حار وممطر بينما الشتاء جميل.

وكان شعب سوازيلاند جزءاً من المهاجرين في الهجرة الواسعة حيث انتقل هذا الشعب من الساحل الشرقي في القارة الإفريقية في حوالى سنة

١٧٥٠م. وكان هؤلاء الناس جزءاً من جماعة أنغوني بقيادة انغواني الثالث الذي استطاع الوصول مع أتباعه إلى سوازيلاند. مات انغواني الثالث بعد ذلك في مكان ما على التلال المطلة على جبل أخضر يسمى امبيلانيني ومنذ ذلك اليوم أصبح هذا المكان هو مقبرة ملوك سوازيلاند.

وعلى أية حال هناك دلائل بأن السوازيلانديين سكنوا في السابق في مكان أوسع من سوازيلاند الحالية، وخلال السنوات من ١٨٤٠ ـ ١٨٦٨ حكم الملك (امسواتي) عشيرته التي أصبحت أمة، ومن ثم صارت شعب هذه المملكة الصغيرة. وهذا الشعب هو شعب سوازيلاند اليوم على اسم امسواتي.

انتهى بوفاة هذا الملك العظيم عصر الفتح والتوسع والتوحيد وتبع ذلك فترة سيطرت فيها المصالح السياسية والتجارية للرجل الأبيض.

وصل المستعمرون البيض إلى المملكة في حوالى الأربعينيات من القرن ١٩ فرحب بهم السوازيلانديون الذين لم يكونوا يعرفون إلا قليلاً عن مصالح هؤلاء في هذه المملكة الصغيرة.

ثم في سنة ١٨٨١ تم تحديد الحدود الشمالية والجنوبية والغربية لسوازيلاند في معاهدة بين بريطانيا وحكومة ترانسفال الإفريقية الجنوبية.

ثم بدأت في سنة ١٩٦٠ المفاوضات الخاصة باستقلال البلاد وفي سنة ١٩٦٨ نالت سوازيلاند استقلالها السياسي من بريطانيا وبذلك أصبحت دولة ذات سيادة.

يعرف السوازيلانديون بأنهم يأخذون من الأجانب فقط ما هو طيب ويحافظون على ثقافتهم الخاصة وهذا باد للعيان في الزي الجميل المسمى ايماميا تلبسه النساء بينما يحمل الرجال الدروع والرماح وفؤوس المعارك بمثابة جزء من ملابسهم التقليدية.

السكان :

ينحدر شعب (سوازي لاند) ممن يسميهم الأوروبيون بالبانتو أو الزنوج الذين كانوا يعيشون قرب خط الإستواء ومنذ قرون عديدة هاجروا نحو الجنوب من البحيرات العظيمة في وسط القارة الإفريقية.

وينتمي هؤلاء البانتو وجماعات (اكسهوزا) و(الزولو) إلى جماعات توجوي الفرعية الذين وصلوا إلى حزام الساحل الشرقي لجنوبي إفريقيا.

ومن المعروف أن أسلاف جماعة السوازي المعروفين باسم اتكوس ولاميتي انفصلوا عن التيار الرئيسي للمهاجرين التيبقونيين ودخلوا أثناء القرن السادس عشر إلى المنطقة التي تعرف اليوم باسم موزامبيق.

ودخلت هذه القبيلة بقيادة شيخها النقوين في فترة لاحقة إقليم نهر بونغولا في جنوبي سوازيلاند. وذابت في هذه القبيلة بطون جماعتي نوقوتي وسوتو اللتين كانتا تعيشان من قبل هناك.

وفي عام ١٨٤٠ أعلن مسواقي الثاني ملكاً، وفي أثناء فترة حكمه كانت تقع تحت سيطرته المنطقة التي تشمل حالياً مجموعة من مدن جنوب إفريقية هي كارولينا وإيرميلو في الغرب وبارسيرتوت في الشمال والحدود الجغرافية لجبال لومبومبو ونهر بونقولا في الشرق والجنوب.

ولقد كانت سمعة مسواتي عظيمة جداً مما جعل الناس يطلقون على الدلامينيين والفخوذ التابعة لهم كلمة «شعب مسواتي» التي تنطق بلغة الزولو «مسوازي» وهو الاسم الذي يسمون به اليوم..

ومنذ حكم مسواتي نستطيع أن نتحدث عن أمة أو شعب سوازي بهذا المعنى.

سكان سوازيلاند:

يتميز سكان سوازيلاند بأنهم متجانسون لدرجة غير عادية بالمقارنة مع أي بلد إفريقي آخر ذلك لأن معظم أهله يشتركون في اللغة العامة والتقاليد والتاريخ، وعندما أُجري الإحصاء الأخير في عام ١٩٨٩م تمَّ حصر ٦٨١٠٥٩ شخصاً وقُدِّر عدد الغائبين بصورة مؤقتة وقتها بعدد يبلغ ٣١٠٧٢ شخصاً وهذا يجعل عدد السكان القانوني ٧١٢١٣١. وشكل الغائبون نسبة ٤,٣٦٪ من جملة السكان، وبلغ عدد الرجال منهم ٢٣٦٨٢ والنساء ٧٣٩٠ ومعظم هؤلاء العمال المهاجرين بصفة مؤقتة وجدوا فرصة للعمل في مزارع ومناجم جمهورية جنوب إفريقية.

ومملكة (سوازيلاند) بها نسبة نمو سكاني من أعلى النسب في العالم. وفي العقد الزماني بين الحصر السكاني لعام ١٩٧٦ و١٩٨٦م قدر معدل النمو السكاني بينها بنسبة ٣,٢٪ في العام وهذا يعني أن عدد السكان سيتضاعف في خلال عشرين سنة وبحلول عام ٢٠٠٠ يكون من المنتظر أن سوازيلاند سيزيد سكانها على المليون. وكان معدل النمو السكاني في ١٩٧٦م ٥٢,٥ في كل ألف. ولكن معدل الوفيات بين الأطفال ما يزال مرتفعاً نسبياً لا سيما بين الأطفال الذين هم دون الخامسة حيث يقدر العدد بـ٢١٨ طفلاً من كل ألف طفل.

ونظراً لتحسين إمكانية الوصول لموارد المياه الصحية وزيادة التسهيلات الصحية في مختلف أرجاء البلاد فإن من المتوقع أن ينخفض معدل حساب الوفيات.

وهذا سيؤدي إلى ضغط متصاعد على معدل النمو السكاني المصحوب بآثار إجتماعية وإقتصادية خطيرة فإن غياب نظام الضمان الإجتماعي الحكومي وإسهام الأطفال في النشاط الزراعي والنسبة العالية للسكان في المناطق الريفية تعتبر كلها عوامل تشجع على زيادة النسل.

ونتيجة لذلك فإن هذه المملكة سيصبح لديها قوة إنتاجية متينة داخل البلاد، ففي عام ١٩٨٦م كان ٢٣٪ من السكان المقيمين يسكنون المدن وهذا يعني معدلاً لنمو المدن والسكن بها في الفترة ما بين ١٩٧٦ـ١٩٨٦م قدره ٥٪ في العام، ويعني أيضاً أن (سوازيلاند) من أقل بلدان العالم من حيث نمو المدن، لكن صغر مساحة المملكة وقصور وسائل المواصلات الأساسية والإرتفاع النسبي في رواتب العاملين تعمل عكس هذا الإفتراض. لكن رغم ذلك يستمر التدفق نحو المدن والقرى وهناك مدينتان فقط في المملكة هما امباباني ومزيني لكل واحدة منهما مجلس مدينة يعين وزير الداخلية جل أعضائه وينتخب كل مجلس من هذين المجلسين رئيساً له.

وهذه وقائع مهمة في تاريخ (سوازيلاند) مأخوذة من دليل أصدره عام ١٩٨٩م مصرف باركليز في سوازيلاند لمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على استقلال مملكة سوازيلاند وهي باختصار:

عام ١٨٤٠ بدأ البيض يدخلون البلاد وحصلوا على امتيازات كثيرة وشتى من الملوك السوازيين.

عام ١٨٧٧ ضم البريطانيون مقاطعة ترانسفال الواقعة الآن في جمهورية جنوب إفريقية.

عام ١٨٧٩ اكتشف الذهب في منطقة قوقونيين في شمال غربي سوازيلاند ووضعت الجمعية الملكية البريطانية الحدود الشرقية لجمهورية جنوب إفريقيا والتي امتدت لمناطق ادعت سوازيلاند ملكيتها.

عام ١٨٨١ إتفاقية بريتوريا التي وقعتها حكومتا بريطانيا وترانسفال، أكدت الخطوط الحدودية هذه.

عام ١٨٨٤ ضمنت إتفاقية لندن استقلال سوازيلاند وصادقت على تعريف وترسيم الحدود بينها وبين (جنوب إفريقية).

عام ١٨٩٩ ولد الملك سويهوزا الثاني.

عام ١٩٠٢ بدأت الإدارة البريطانية لسوازيلاند.

عام ١٩٠٦ أصبحت سوازيلاند أرض مفوضية عليا.

عام ١٩٢١ نُصِّب سويهوزا ملكاً أو «اتقوتياما» وهو لقب الملك الرسمي وتعني «الأسد».

عام ١٩٦٨ نالت سوازيلاند استقلالها وولد الملك مسواتي الثالث.

عام ١٩٧٣ علق العمل بالدستور الذي صيغ على شاكلة دستور وسمنستر.

عام ١٩٧٨ أسس برلمان سوازيلاند.

عام ١٩٨١ اليوبيل الماسي للملك سويهوزا الثاني.

عام ١٩٨٢ وفاة الملك سويهوزا الثاني، وتعيين الملكة ذرلوي وصية على العرش.

عام ١٩٨٣ عينت الملكة نوتومي، والدة الملك مسواتي الثالث، وصية على العرش.

عام ١٩٨٤ دمَّر إعصار ديمونيا أجزاء هامة من المملكة.

عام ١٩٨٦ تتويج الملك مسواتي الثالث.

وكان من حق (سوازيلاند) أن تكتب (سوازي لاند) لأن اسمها معناه هكذا بلاد الأسوازي، ولكننا كتبناها (سوازيلاند) لأنها صارت هكذا تكتب في الكتب والمصورات العربية وهي مملكة لا يزال ملكها قائماً بالحكم. تقع في الشرق الشمالي من جمهورية جنوب إفريقية وليست مثل ليسوتو تحيط بها جمهورية جنوب إفريقية من جميع جهاتها، بل تحدها جمهورية موزامبيق من جهة الشرق كما هو معروف.



ملك سوازيلاند الملك مسواتي الثالث

من جوهانسبرج إلى مزيني:

وصلنا مطار جوهانسبرج في الموعد المحدد وهو الواحدة ظهراً، وهنا حضر الدكتور محمد مومنيات من حي لينيشيا، ويمكن القول إنه جاء من بلدة (لينيشيا) لأنه بلدة منفردة محاطة بفراغ كبير، يفصلها عن بقية أحياء مدينة جوهانسبرج.

فأسرعنا بالذهاب إلى مكاتب الترحيل لشركة (كوم اير) وهي شركة جنوبية إفريقية صغيرة تسير رحلات إلى البلدان القريبة.

وكانت الإجراءات سهلة وميسرة، وطلبوا منا أن نتعرف على حقائبنا وهي أول مرة يطلب فيها منا أن نفعل ذلك. وربما كان ذلك لكون الشركة للبيض، وحتى الركاب فإن أكثرهم من البيض وليس في الطائرة من السود إلا قليل جداً مع أنها مسافرة إلى بلاد من بلادهم، ومغادرة بلاداً أغلبية سكانها من السود.

وجدنا الطائرة صغيرة ذات محركين اثنين مروحيين شبيهة بالتي ركبنا بها إلى (مسيرو) قبل أربعة أيام إلا أن تنجيدها نظيف، وأثاثها متميز، وفيها مضيفتان من البيض المجاملات.

وهي من طراز فوكر ٢٧ فيها ١٠ صفوف من المقاعد كل صف ٤ مقاعد، والممر بين كل اثنين منهما.

ومع أن الركاب كلهم من البيض من سكان جنوب إفريقية الذين لغتهم الوطنية الأولى هي الأفريكانية، ويقدمونها عادة على الإنكليزية في طائراتهم فإنهم بدأوا الإعلان بالإنكليزية ثم ثنوه بالأفريكانية هكذا يسمونها (الأفريكانية) ولذلك لم نترجمها إلى الإفريقية.

وقامت في الثانية والدقيقة السابعة متأخرة ٧ دقائق من موعدها المحدد في الأصل.

والمسافة من جوهانسبرج إلى (مزيني) في (سوازيلاند) مساوية للمسافة بين جوهانسبرج و(مسيرو) عاصمة ليسوتو، وإن كان اتجاه الطيران مختلفاً فالآن سنتجه إلى الشمال الشرقي، وعند السفر إلى (ليسوتو) كنا سافرنا جهة الجنوب الشرقي.

والإختلاف أيضاً بين السفرتين أن الطيار الآن صار يذيع معلومات كثيرة عن الرحلة. وأكثر من ذلك.

عندما أمعنت الطائرة في طيرانها ظهر على يسارنا سد أقاموه ليمنع مياه الأمطار من التسرب والتبدد، ويستعملونه لأغراض الزراعة ثم رأينا محطة كبيرة لتوليد الكهرباء تدار بالفحم المتوفر في جمهورية جنوب إفريقية.

ثم مررنا بمحطة أخرى لتوليد الكهرباء أيضاً، فهم قد توسعوا في استعمال الطاقة الكهربائية في الريف أيضاً للزراعة كما توسعوا فيها في الصناعة.

وظهرت آثار تعدين للذهب قليلة وليست بالكثرة التي هي عليه عند الذهاب إلى (ليسوتو).

واستمر الطيران هادئاً قدمت المضيفتان البيضاوان ضيافة الرحلة وهي عصير الفاكهة، وشطيرة صغيرة (ساندويتش) لم نهتم بها لأننا لسنا بحاجة إليها.

قبل الوصول:

قبل الوصول إلى (مزيني) ظهرت غابات كثيرة غير شاملة، ذكروا لنا أنها تستغل لإنتاج الورق، ثم شاهدناهم يحرقون الأعشاب والأشجار الطفيلية من الأرض في عدة حرائق وذلك أسهل عليهم من إزالتها بالقطع أو القلع، وفيما تخلفه من الرماد إخصاب للأرض أيضاً.

وفي هذا الريف المعمور بالزراعة والغابات بيوت قليلة للمزارعين سقوفها من الصفيح، ولم نتبين غير ذلك منها في الطائرة.

وقد تكررت رؤية بيوت المزارعين متباعدة مما يدل على أن المنطقة ذات مزارع كبيرة واسعة المساحة وليست على ما هو عليه الحال في (ليسوتو) حيث تنصب البيوت للسكن فقط، ويكون أربابها من الرعاة، أو من السكان الذين لا يعملون في الزراعة.

كما أنها ليست كبيوت المزارعين في الصين والهند حيث تكون منازل الفلاحين متقاربة حتى تبدو من الطائرة وكأنما هي متلاصقة، وذلك لضيق مساحات المزارع وازدحام الناس والمساكن حتى في الريف هناك.

وإذا كان القارىء الكريم يرغب في الإطلاع على ما كتبته عن الهند والصين فإنني أخبره بأنني كتبت ثمانية كتب عن الهند تحت عنوان جامع هو (الرحلات الهندية) وكتبت عن الصين عدة كتب منها كتاب: «داخل أسوار الصين» و«العودة إلى الصين» و«في مهد الترك» و«مهد المغول».

ثم وصلنا إلى منطقة غابات واسعة مزروعة فوق التلال غير الصالحة لزراعة الغلال، وأما الوديان والأماكن المطمئنة بين التلال فإنها مزروعة بحقول نضرة. وهي على وجه العموم أكثر خضرة من ليسوتو. وبدت الطريق الريفية ترابية حمراء جميلة المنظر.

وقبل المطار شاهدنا قناة مشقوقة في سهل قبل المطار بقليل، وعلى ضفافها وما حولها أشجار من الزهور وسط أرض خضراء ندية.

في مطار مزيني:

الذي أعرفه أن عاصمة سوازيلاند هي (أمباباني) غير أن تذكرة رفيقي الدكتور مومنيات كتبوا عليها أنها إلى (مزيني)، وقد سألت مضيفة الطائرة عن

العاصمة فقالت: هي مزيني غير أنه تبين لي أنها كانت مخطئة من جهتين، فالعاصمة ليست (مزيني) والمطار ليس مطار مزيني، وإن كانت بلدة (مزيني) هي أقرب المدن إليه.

هبطت الطائرة في المطار في الثالثة والدقيقة الثانية بعد طيران استمر ٥٥ دقيقة. والمطار صغير، قصير المدرج، وبنايته دون ذلك.

والإجراءات في المطار كما رأيناها بالنسبة إلى غيْرنا سهلة ميسرة أما بالنسبة لنا فهي أسهل لأنني أريتهم جوازي فقالوا: (دبلوماتك) وأفسحوا لنا الطريق.

وجدنا في المطار أخوين من إخواننا المسلمين في سوازيلاند هما إبراهيم منصور وإقبال محمد، وكلاهما يحمل جنسية جنوب إفريقية، ويعمل في هذه البلاد، والأول عضو عامل رئيسي في الجمعية الإسلامية في هذه البلاد.

في بلدة (مزيني):

وهي على لفظ النسبة إلى مزينة، ولكن بكسر الميم. وتبعد عن المطار عشرة كيلومترات. أما العاظمة (أمباباني) فتبعد عنه (٤٧) كيلومتراً.

ركبنا مع الأخوين الكريمين في سيارة لهما فسرنا في جو يشبه أجواء البلدان الإستوائية من حيث الخضرة والتربة، وإن كان لا يشبهها من حيث الهواء فهو أبرد منها، إلا أنه أقل برداً من ليسوتو.

وأما البيوت فإنها تشبه البيوت الإستوائية، إذ فيها بيوت من الطين سقوفها من الصفيح، وحشائش وأعشاب كثيفة نامية على الطريق دون أن يتعرض لها أحد بالقطع أو التهذيب، والتربة حمراء كالإستوائية أيضاً.

والأرض شبيهة بأرض (ليسوتو) من حيث كونها تلالاً بينها أماكن منخفضة، وإن اختلفت عنها في كثير من الأشياء.

وعلا الطريق تلة ما لبث أن انخفض بعدها فوصلنا (مزيني) وهي أيضاً في تلة مرتفعة بجانبها وادٍ غير واسع، وتطل عليها أماكن أعلى منها، إلا أنها خضراء ملتفة بأنواع الأشجار، ومنها أشجار الزهور الجميلة.. وشوارعها وأماكن منها كثيرة مزدانة بالزهور وأشجار الزينة.

والبيوت في وسط المدينة وأكثر ضواحيها اسمنتية جميلة من طابق أو طابقين على طراز حديث، حسنة الطلاء، أنيقة المنظر.

وفي قلبها التجاري توجد أبنية (عمارات) متواضعة الإرتفاع، ولكنها حسنة المنظر وذلك لصغر المدينة وقلة سكانها الذين يقدرون الآن بخمسة وثلاثين ألفاً من سكان (سوازيلاند) التي يبلغ عدد سكانها كلهم مليوناً فقط لا يزيدون على ذلك.

وكنا نسير مع طريق ذكروا أنه يمتد إلى (موزامبيق) المجاورة، وذكروا أن حدود موزامبيق تبعد من هذه المدينة مائة كيلومتر، ومن الحدود إلى (مابوتو) عاصمة موزامبيق ١٩٢ كيلومتراً.

وعلى ذكر (مابوتو) هذه أقول: إنني زرتها من قبل وكتبت عنها شيئاً في كتاب «صلة الحديث عن إفريقية» الذي طبع قبل عشر سنوات.

وفي بلدة مزيني رأينا الشوارع مزفلتة وإشارات المرور منظمة.

المركز الإسلامي في مزيني:

قصدنا المركز الإسلامي في (مزيني) فدخلنا بالسيارة حديقة له جميلة مزدانة بالزهور الفواحة، ومنسقة تنسيقاً بديعاً، وكان المطر يهطل رذاذاً ما

لبث أن كف وانقشع السحاب، فأفعمت الشمس بالنور هذا المكان المنير، وإن لم تنره الشمس.

ووقفنا أول الأمر عند مدرسة كتبوا عليها (إسلامك انسنتيوت) أي المعهد الإسلامي فوقفنا عند فصل فيه حوالي ٢٧ تلميذاً وتلميذة، ومعلمهم الشيخ (حافظ عبد الشكور) من باكستان يدرسهم، وقد سألته عن اسمه الكامل أكثر من مرة، فكان يقتصر في ذلك على قوله (عبد الشكور) ولم يزدني عليه، مع العلم بأن كلمة (حافظ) وصف لمن يتخرج من مدرسة إسلامية في الهند ويحفظ القرآن الكريم، أو الجزء الأكبر منه، وفي مكان آخر يكاد يكون ملاصقاً لهذا الفصل فصل مختلط للصغار يدرسهم شيخ من موزامبيق اسمه محمد إبراهيم بن آدم.

ولاحظت نضارة ظاهرة في وجوه أولاد المسلمين، وبياضاً لا شك وأن جزءاً منه كان سببه العيش في هذا الجو البعيد عن خط الإستواء وما ترسله الشمس فوقه من أشعة تسبب السواد.

وانتهت الدراسة اليومية في هذا المعهد الذي هو مدرسة صغيرة، وجاء أهالي التلاميذ يعيدونهم بالسيارات إلى بيوتهم.

ثم دخلنا المسجد وهو مسجد كامل إلا أنه ليست له مئذنة لأن النفقة قصرت بهم كما يقولون مع أنها مهمة في هذه البلاد، من أجل إظهار الشعار الإسلامي، إذ المسجد لا يشعر به أحد من المارة الذين لم يقصدوه، لأنه لا يميزه على البعد مميز عن المساكن الحديثة المعتادة لا سيما أنه تقع أمامه على الشارع كنيسة ذات بناء مرتفع. فرغبتهم في بناء مئذنة المسجد ووعدتهم بإعطائهم مبلغاً من المال للمركز بإمكانهم أن يصرفوه أو بعضه في بناء المنارة.

وقد وجدنا المسجد مفروشاً بفراش نظيف، وقد بنوه في عام ١٩٨٦م.

ثم تجولنا في عدة مرافق تابعة للمسجد ومنها دارة (فيلا) للضيافة ذكروا أنهم يؤجرونها للمسلمين إيجاراً يدفع لجمعية المسجد، تصرفه على المسجد، ويمكن المسلم الذي ينزله مع أسرته أن يكون قريباً من المسجد ويسكن في مسكن أرخص بكثير من الفندق إذ الإيجار للمسكن هذا وفيه أربعة أسرّة قد حددوه بخمسين رانداً ويساوي ذلك عشرين دولاراً أمريكياً.

هذا إلى جانب بيت إمام المسجد.

إلى أمباباني:

لم نلبث كثيراً في (مزيني) وإنما ذهبنا إلى أمباباني العاصمة، وتبعد عن (مزيني) ٤٥ كيلو متراً. وذلك مع طريق جيد السفلتة إلا أنه واحد للإتجاهين مفصولاً بينهما بخط أبيض. وذكروا أنه أنشىء قبل الإستقلال.

سار الطريق في لحف جبل يركب التلال على يساره منخفض خصب، مع أن الخضرة شاملة في كل الإتجاهات والشعب هنا شعب زنجي المظهر، وكأن أكثر من رأيناه منهم لم يغادر مناطق خط الإستواء مع أنه منها الآن بعيد، إلا أن السواد الحالك جداً ليس هو باللون الغالب.

فكان أول ما وصلناه من القرى قرية (مسافا) وكدت أكتبها (مسافة) لتوافق الاسم العربي لولا أني سمعتهم يمدون الفاء.

ولا تبعد (مسافا) كثيراً عن المطار لذلك يسمونه (مطار مسافا) وقد رأيت لافتة كتب عليها ذلك مع أن العاصمة هي (أمباباني) والمدينة القريبة منه هي (مزيني).

وفي (مسافا) هذه منطقة صناعية صغيرة، مبانيها غير عالية، ويمر بها نهر صغير نزر المياه اسمه (يوسواني).

ثم وقفنا في ريف خالٍ من العمارة أكثر ما فيه المراعي الكثيفة التي ترعى فيها بعض الأبقار، فبلادهم كبلاد (ليسوتو) تعتمد على تربية الحيوان أكثر ما

تعتمد على الزراعة، وإن كانت أكثر خصباً من (ليسوتو) فيما رأيناه، بل هي أكثر خضرة كذلك من منطقة جوهانسبرج وكذلك الزراعة فيها هي أوسع منها في ليسوتو، والذي رأيناه من هذا الطريق مزرعة للذرة ولفاكهة الأناناس.

ومر الطريق بنهير ذي ماء قليل، ولكن المنطقة كلها ملتفة الأعشاب، مطبقة الخضرة في جو جميل بل أخاذ، لأنك لا تسير على وتيرة واحدة في جو مستو متشابه، بل يعلو بك الطريق ويهبط وتعلو ببصرك الجبال، وتهبط به الربى فترى من تحتها الوديان الخضر تحتك أو تسايرك.

قرية لوبامبا:

رأينا من الطريق قرية صغيرة ليست بذات بال، غير أن القوم نوهوا ببناء فيها باهتمام، وقالوا: إنه مبنى (البرلمان) فهذه المملكة الإفريقية الصغيرة فيها مجلس تمثيلي، وحكم دستوري.

ويقف مبنى البرلمان منفرداً مجملاً ما حوله كالغانية التي تتزين وحدها دون أن يكون بقربها أحد.

وبعد قرية (لوبامبا) ارتفع الطريق إلى منطقة ذات غابات ملتفة توشحها الأعشاب الخضر الكثيفة. وكثرت السيارات في الطريق كثرة لافتة للنظر، ولكن بعضها وهي تصعد هذا المكان المرتفع تنفث دخاناً مؤذياً يلوث هذا الجو الأخضر الجميل.

وبعده وقفنا في قرية (لوكايا) وهي صغيرة أيضاً.

فندق شمس سوازي:

أخذنا من الطريق يساراً داخل غابة كثيفة ملتفة إلا أنها منسقة مجملة فدخلنا فيه ولافتة كبيرة تقول إلى فندق سوازي صن أي شمس سوازي وهذا الولع بالشمس في هذا الجو الإفريقي أمر ليس متوقعاً.



من نافذة غرفتي في فندق سوازي صن

أما الفندق فإنه بديع حقاً وقلما رأيت مثله على كثرة ما رأيته من فنادق في العالم فهو من الدرجة الفاخرة وإن كان مصنفاً من فنادق الدرجة الأولى ذات النجوم الخمس، وذلك سواء من حيث الموقع أو من حيث الأثاث والرياش، وتجهيز الغرف بكل ما يكون في فنادق الدرجة الممتازة، ومن ذلك أن صندوق الأمان الذي تودع فيه الأشياء الثمينة موجود في كل غرفة منه واحد.

وكان الدكتور محمد مومنيات قد حجز لنا فيه غرفتين بالهاتف من جوهانسبرج، وإلا لم نكن وجدنا فيه مكاناً على اتساعه.

صلينا فيه الظهر والعصر جمعاً، ثم خرجنا قبيل غروب الشمس لزيارة مسجد (أمباباني) الذي يقع قرب الفندق ويفصله نحو عشرة كيلومترات عن مدينة (أمباباني) العاصمة.



المؤلف في جانب من المنطقة التجارية في أمباباني

فوقفنا عند حانوت كبير يملكه أحد الإخوة المسلمين وهو والد صاحبنا الذي يرافقنا إبراهيم منصور ولم نجده فيه، ورأيت عشرات المواطنين الأفارقة يشترون من محل الأخ المسلم هذا ثم ذهبنا لمشاهدة جامع (أمباباني) فوجدناه بهي البناء، ظاهر الرواء، يتربع وسط جنة أرضية خضراء، يحتاج

تصويرها وتصويره إلى ضياء وكانت الشمس تسقط خلف التلال السوازية وإن شئت قلت: (السوازيلاندية) على غرار قولهم في النسبة إلى تايلند (تايلندي) وحقه أن تكون النسبة إليه (تايي) أو تاوي - بالواو إن ثقلت عليه الياءان مجتمعتين كما ينسب الناس إلى أفغانستان (أفغاني).

فعدنا منه آسفين راجين أن يكون لنا عدول إليه في ساعة قريبة وقصدنا (أمباباني) فمررنا بمنطقة مرتفعة رائعة الجمال من خضرة مطبقة وأشجار مزهرة، وجمال طبيعي يحيط بك من كل الجهات لا يكدره إلا الإجهاد الذي يلحق بالسيارات التي تتعلق به، فتنفث سعالها دخاناً يؤذي الأنف والعين.

وجعل الطريق يرتفع وينخفض في هذه المسافة القصيرة، ولكنه لا يعدم الجمال الطبيعي أينما توجه بصرك منه، حتى إذا رفعت رأسك عالياً إلى قمم عالية من جبال تحيط بالتلال لم تعدم من جمال تلك الجبال ما يجعلك ترنو إليها ببصرك، وإن كانت التلال المتطامنة تحتها تشدك إليها، أو تشدها إليك.

هذه (أمباباني):

طالعتنا بيوت بيض نظيفة، و(عماير) منازل متعددة الطوابق، ومنها عدة مبانٍ لدوائر حكومية وسفارات أجنبية، على قلة السفارات الأجنبية في هذه البلاد.

ثم قلب المدينة التجاري المسمى عند الأمريكيين بالداون تاون فيه أبنية متعددة الطوابق، إلا أنها قليلة العدد، تتناسب قلتها مع قلة عدد السكان في (سوازيلاند).

قصدنا محلاً تجارياً واسعاً يملكه أخونا غلام حسين بن نور محمد مدير الجمعية الإسلامي في سوازيلاند، وأصله من غرب الهند، وإن كان لم

يزر تلك المنطقة فهو مولود في جنوب إفريقية، ولا يزال في جنسيته إفريقياً جنوبياً.

وعلى خارج محله التجاري الكبير لافتة كتب عليها (سوبر ماركت) ولكن في داخله لافتة تقول: المحل يبيع كل شيء.

وهي لافتة صادقة على حالته فهو يبيع الأحذية والأجهزة الكهربائية، واللوازم المنزلية والملابس الشعبية، ويعمل فيه مع الأخ غلام وزوجته المسلمة عدد عديد من العمال الأفارقة من رجال ونساء والمشترون منه أفواج بعضها داخلة فيه وبعضها خارجة منه، والمعاملة هادئة فالجميع يشترون بالسعر المكتوب على السلعة أو يدعونه. وجميع المشترين منه هم من السود لم أشاهد معهم غيرهم.

ومما يسترعي الانتباه في محله مقادير كبيرة من الدجاج المثلج مكتوب عليها كلها كلمة (حلال) التي تعني أنها قد ذبحها مسلمون وهي قادمة إليه من ولاية (ناتال) التي عاصمتها مدينة (دربن) في جنوب إفريقية.

وغير المسلمين يشترون من هذا اللحم الحلال، وإن لم يكونوا يبالون بأن يكون حلالاً أو غير حلال.

مسجد السلام:

ركبنا مع الأخ غلام حسين في سيارته من صنع مرسيدس التي يركبها المسلمون هنا في العادة، فتركنا القلب التجاري للمدينة إلى مكان غير بعيد منه. حيث أوقف سيارته عند (مسجد السلام) وهو منزل معتاد كما تكون المنازل المعتادة، اشتراه كله أحد الإخوة المسلمين وحوله إلى مسجد تقام فيه الصلوات الخمس، أما صلاة الجمعة فإنها تقتصر على جامع (أمباباني) الذي مررنا به خارج المدينة.

وهو في لحف تلة جبلية من جهة ومرتفع عما حوله من جهة أخرى.

صلينا في غرفة فيه متوسطة السعة ليس لها محراب، وإنما فيها ساعات ست معلقة تبين كل واحدة منها وقتاً من أوقات الصلوات الخمس والجمعة كما في مسجد المركز الإسلامي في مسيرو. وقد أوقفوا عقاربها على ذلك الوقت، فإذا اختلف الوقت قدموها أو أخروها حسب الحاجة. ولوحات أخرى إسلامية بالعربية أكثرها آيات قرآنية.

وقد أمّ المصلين فيه الشيخ أحمد بن محمد عيسى من كجرات من الهند استقدمه المسلمون من هناك ليؤم الناس في هذا المسجد، وليعلم صغارهم ويرشد كبارهم، فقرأ في صلاة المغرب التي صلوها في وسط وقتها قراءة متقنة، وكانت صلاته كذلك وهو متخرج من إحدى المدارس الإسلامية في الهند التي يسمونها هناك جامعات، وإن يكن مستواها لا يتعدى مرحلة المدارس المتوسطات أو الثانويات.

وقد صلى معنا سبعة من المسلمين.

وعقدنا معهم جلسة بعد الصلاة في المسجد فحدثونا أن المسلمين بدأوا الصلاة فيه عام ١٩٨٦م بعد أن اشتراه كله الأخ المسلم (محمد باتيل) وقد مات (رحمه الله) وأنه هو ثالث مسجد في سوازيلاند وأن حوله سبعة بيوت من بيوت المسلمين، غير أن الإمام قال: إن المسلمين لا يحضرون كلهم معنا صلاة الجماعة.

وفيه مجموعة من المصاحف المطبوعة في جنوب إفريقية، تذكرت أننا كنا قدمنا من الرابطة مساعدة على طبعها وأن القائم على ذلك هو الأخ الشيخ إبراهيم ميا من جوهانسبرج، فذكروا أن ذلك مكتوب عليها أنها طبعت بمساعدة من رابطة العالم الإسلامي وأرونا ذلك.

ويتبع المسجد فصل دراسي فيه ٢٠ طالباً وبيت يسكن فيه الإمام.

وذكر المسلمون هنا أن الشعب شعب طيب، وأنه لا يضايق المسلمين بل يحترمهم، وأيدوا ما ذكروه ذلك بقولهم: إنهم سود ولكنهم ليسوا كسود جنوب إفريقية.

وأعتقد أن سود جنوب إفريقية قد انعكست عليهم السياسة العنصرية حقداً وضغينة على من هم ليسوا مثلهم في اللون، كما أن التربية الوطنية السوداء ليس لها وجود عندهم، وكان العشاء في مطعم لأحد المسلمين بدعوة من الأخ غلام حسين فأكلنا فيه شواء يسمونه (شيش كباب) أي كباب الشيش والشيش هنا هو القضيب من الحديد، وهي الكلمة التي صارت عند العامة في بلادنا (صيخ) بصاد وياء ثم خاء، وأما الكباب للشواء فهو معروف.

يوم الأربعاء ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٠م.

صباح سوازي:

عندما أزحت ستارة النافذة التي كانت بحجم الحائط كله انزاحت عن منظر أنيق، بل عن جنة أرضية من بسط سندسية تفترشها الفندق بينها زهور متفتحة وردية وبيض، نقل عليها على البعد جبال خضر يانعة الإخضرار تجللها أردية حريرية فضية من سحب خفيفة الظل على الأرض. وفي وسط الجنة الأرضية التي يصح أن يقال: إنها جنة (شمسية سوازية) وذلك نسبة إلى فندقنا الذي اسمه (سوازي صن) أي شمس سوازي التي يراد بها (سوازيلاند) وهي هذه البلاد. بحيرة طبيعية كأنها الماسة الكبيرة على صدر غانية خضراء من غواني (سوازيلاند).

فقد خصصوا مساحات واسعة شاسعة، بمثابة الحدائق والمنتزهات للفندق وسوروها بحيث لا ترى سورها من شدة اتساعها، في هدوء لا تسمع فيه إلا من يطربك من زقزقة عصفور أو قهقهة جدول صغير، وجو غائم غيماً مطبقاً قد حجب الشمس ولكنه لم يحجب النور فغدا كجو الجنة الذي لا شمس فيه ولا قمر، ولكنه نور غامر يبهج النظر ولا يبهره.



في حديقة فندق سوازي صن

سويسرا إفريقية :

وحقاً شبهت هذه البلاد حينما رأيتها أمس واليوم، بأنها سويسرا إفريقية فهي بلاد مرتفعة خضراء ذات نجاد، في ربى خضر جميلة ووهاد في وديان أشد اخضراراً، وأجمل ازدهاراً والفرق بينها وبين (سويسرا أوروبا) هو في شيء مصطنع محبوب من تجميل أو تزيين وفي شيء طبيعي صعب وهو الجو الشاتي بل الثالج في الشتاء.

هذا إلى الطبيعة السمحة عند شعب (سوازي) الإفريقي السمح، وعدم التكلف في المعاملة، أو المجاملة.

وكان فاتح الشهية للنفس الخالية من الهموم هنا: الدخول إلى مطعم الفندق لطعام الفطور وفيه ما لذ وطاب من الطعام والشراب موضوعاً بين يديك تختار منه ما راق لذوقك وتوقك، دون حد أو تحديد، فمثلاً هناك شرائح سمك السلمون المدخن اللذيذة وهي ما هي في الغلاء والنفاسة قد بسطت صحونها لك، ومعها أنواع أخرى من السمك الذي يحتاج إلى طبخ أو قلي فيطبخه طباخون مهرة، كلهم حاضر لما تريده أن يطبخه لك.

هذا إلى جانب البقول المنوعة، وصحون البيض المتعددة، والفواكه التي استوردوا منها ما استوردوا من فواكه الشتاء والصيف، حتى السكر أحضروه نوعين أبيض مكرر، وسكراً طبيعياً أحمر.

وبعد الإفطار ذهبت مع رفيقي الدكتور مومنيات في جولة على الأقدام وسط هذه الجنة الأرضية لا لشيء إلا لكون المكان يغري بالمشي، فسرنا حتى أبعدنا عن مباني الفندق وإن كنا لا نزال في حماه الأخضر الواسع.

وقد قشروا أرض الفناء الأخضر الواسع في مواضع معينة، من أجل أن تكون ملاعب لهواة رياضة (الجولف).

نبع المياه المعدنية:

سرنا في حديقة الفندق حتى أعيينا أو كدنا فوصلنا إلى نبع مياه معدنية حارة حرارة طبيعية قد كتبوا عليها اسمها: «سوازي سبا هيلث» أي نبع الإسوازي الصحي وهي تابعة للفندق وملحقة به، وقد أعطتنا إدارة الفندق ورقتين عند الدخول إحداهما تتضمن إفطاراً مجانياً لمدة يومين والأخرى تتضمن دخول هذه المياه الحارة والإستشفاء بها مجاناً أيضاً.

ولم أدخله لضيق الوقت وإنما رأيتها وقد أقاموها على هيئة صوامع

صغيرة متدرجة تجري فيها المياه ويتجمع الزائد منها الذي لم يستعمل في بركة للسباحة خارج تلك المباني يسبح بها من لا يريد اللبث في الأمكنة الحارة (السونا).

وهي تقع وسط غابة ملتفة سامقة الأشجار، ومن بين أشجارها أشجار الزهور البنفسجية وهي التي يسمونها في منطقة جنوب إفريقية هذه (جاكرندا).



قرب منابع المياه الحارّة في جانب حديقة فندق سوازي لاند

مع الدكتور محمد مومنيات

ومما زاد في بهجة هذه الجولة على الأقدام التي قطعنا فيها في جولات وتردد ما يقرب من ٨ كيلات أننا كنا نشاهد منها على البعد مأذنة جامع (أمباباني) ببياضها الناصع وهي ترتفع إلى السماء كأنها الإصبع السبابة التي يشير بها المتشهد إلى السماء وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وعندما عدنا إلى الفندق قبل العاشرة بقليل استرعى انتباهنا ما فطنا إليه من قبل من كون الحراسة في الفندق موكولة إلى نساء ذوات أعين فاحصة، وقامات مشدودة فترى الواحدة منهن وقد انتصبت في أسافل الدرج وعند المداخل المفضية إلى صفوف الغرف وهي أعظم صبراً من الرجل، وربما تكون أشد بطشاً منه بمن يحاول أن يخالف النظام.

وهذا له نظائر في أمور رأيناها في هذه البلاد وهو أن ضباط الجوازات في المطار كلهن من النساء، وحتى عمال محطات الوقود من النساء.

السفر إلى (بيق بيك):

كنا قد اتفقنا ليلة البارحة مع الأخ الكريم غلام حسين رئيس الجمعية الإسلامية في (سوازيلاند) على زيارة بلدة (بيق بيك) التي لا تبعد كثيراً عن العاصمة.

تركنا فندق (سوازي صن) الجميل قبل الحادية عشرة بقليل وقصدنا قلب (أمباباني) التجاري، حيث أخذنا معنا الأخ غلام حسين بسيارته للسفر إلى (بيق بيك) لرؤية مسجد هناك وللإطلاع على طبيعة الأرض الريفية في هذه البلاد. وليس هذا هو المقصود بالذات ولكنه جاء تبعاً لزيارة المسجد. فسرنا مع طريق ريفي أخضر مزدحم بالسيارات.

وتجلت المنطقة بجمالها الطبيعي الأخاذ أجمل من (ليسوتو) بكثير.

وأما الشعب فإنه الإستوائي الأصيل المعروف عند الأوروبيين بالزنوج

أو البانتو وهو في هذا الأصل الإستوائي ـ نسبة إلى خط الإستواء ـ أكثر أصالة من جاره الليسوتي ففي أهل (ليسوتو) مختلطون كثر، وأما هؤلاء فإنهم السود الأصلاء وإن يكن السواد في ألوان بعضهم مخففاً والمختلطون أو الخلاسيون فيهم قليل.

وما شبهت جبال هذه البلاد ورباها التي تتناثر بين الجبال، والوديان التي تتناثر بين الربى إلا بلبنان عندما كان لبنان واحة أمن وسلام، وكانت الخضرة فيه هي أهم ما كنا نذكره عنه، لأننا كنا نأتي إليه من الصحراء الغبراء، فنجده جنة خضراء.

إلا فيما يتعلق بالأناسي، فأين هذه البلاد الإفريقية من الربوع اللبنانية؟

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

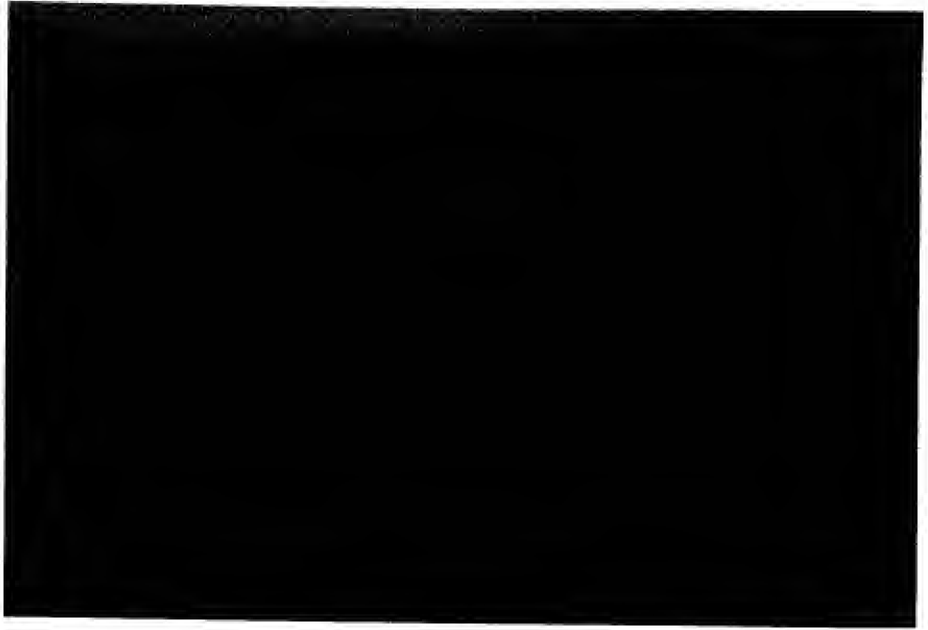
أول حاج من سوازيلاند:

كنا ونحن نسير في هذا الطريق الجبلي نتذاكر أحوال المسلمين فكان مما ذكروه عنهم أن أول حاج في التاريخ من (سوازيلاند) كان هذا العام وهو الأخ (موسى ديوري) وأضافوا إلى ذلك عجيبة أخرى هي أنه كان أيضاً الحاج الوحيد منها هذا العام.

فقلت: ما أوسع أرض الله، وما أعظم ملك الله، وهذا الدين الذي يفتح كل عام بلاداً غير بلاده، ويدخل في حظيرته عباداً من عباد الله غير عباده.

وفي هذا الريف الذي لم نر مزارع مزدهرة أو حقولاً ممتدة واسعة، وإنما هو أعشاب ملتفة مهملة ترعى فيها أبقار غير كثيرة.

والبيوت فيه قليلة متناثرة أغلبها ذات سقوف من الصفيح الأبيض، وشاهدنا بحيرة صغيرة وسط الأرض الخضراء.



في الطريق بين أمباباني وبيق بيك في سوازيلاند التقطتها والسيارة مسرعة

ثم رأينا قرويات يمشين على الطريق وهن الإستوائيات إن لم نقل الزنجيات اللاتي نعرفهن تحت خط الاستواء، إلا أن ملابسهن هنا لا بأس بها نظافة وأناقة وأكثرها ألبسة إفرنجية ليس لها طابع محلي كما كنا رأينا ذلك في (ليسوتو).

وقفة في الريف:

قائد سيارتنا هو الأخ الكريم غلام حسين صاحب السيارة وهو يسرع السير لأن هذا الطريق معتاد عنده ليس فيه ما يستحق التأمل أو الملاحظة.

وقد أدركنا سيارة (مرسيدس) مثل سيارته فوقف عندها باهتمام، وقال: هذا والدي راكب في سيارته. فسلمنا عليه واسمه (نور محمد) وهو في الثامنة والستين من عمره أما ابنه غلام محمد فإنه في الخامسة والأربعين، ولكنه يبدو في سن أعلى منها ربما للإرهاق الذي يعانيه في عمله التجاري الواسع.

ووالده (نور محمد) هو تاجر أيضاً له محل تجاري في بلدة (بيق بيك) التي نقصدها الآن، هنئته على جهود ابنه في الدعوة الإسلامية. ويكفي أنه رئيس الجمعية الإسلامية في هذه البلاد، فحمد الله وشكره على ذلك.

وقد صادف وقوفنا عند حانوت من القش قد عرضوا حوله على قارعة الطريق تماثيل من الخشب مما صنعه أهل هذه البلاد مستوحى من خرافاتهم وتراثهم الشعبي فصورت ذلك وصورت المنطقة، التي وقفنا فيها لأنها مثل غيرها تقع على رابية خضراء، وتطل على مناطق خضر من جهة، وتطل عليها جبال خضر من جهة أخرى.

ثم واصلنا السير فرأينا قليلاً من الماعز ترعى في هذا المرعى الكثير الخضرة الذي يصلح للضأن أكثر من المعزى، لوفرته وسهولة رعيه، فمررنا بنهر صغير اسمه (كماتي).

وأمعنا في الريف الخالي من السكان فوقفنا عند غابة من غابات الأخشاب في مرتفع جبلي، والتقطنا فيها صوراً تذكارية.

وهنا وجدنا أخاً مسلماً من بلاد (ملاوي) التي كانت تسمى قبل الإستقلال (نياسالاند) وعلى رأسه القلنسوة (الطاقية) شعار المسلمين هناك وهو يعرف السواحلية دون العربية، مع أن نصف السواحلية أو أكثر من نصفها مأخوذ من العربية.

وذكروا أن أخشاب هذه الغابات بالذات تستعمل في صناعة القوارب.

وجمع هذه الغابات الملتفة بل المظلمة هي في موضع جبلي مرتفع لا تسقى، وإنما تعيش على ماء السماء.

ومع طبيعتها الهادئة وما حولها فإننا رأينا في أقصاها دخان آلة تقطع الأخشاب من ركن من أركان الغابة وهي تلوث هواءها النقي، وتزعج طيورها الوادعة.

هذه بيق بيك:

في الساعة الواحدة إلا ربعاً كنا نقف في السوق التجاري الصغير في بلدة (بيق بيك) عند محل تجاري كبير للأخ (نور محمد) والد مرافقنا وقائد سيارتنا التي هي سيارة الأخ (غلام حسين) وهو محل كبير أكثر ما فيه الأغذية والمشروبات.

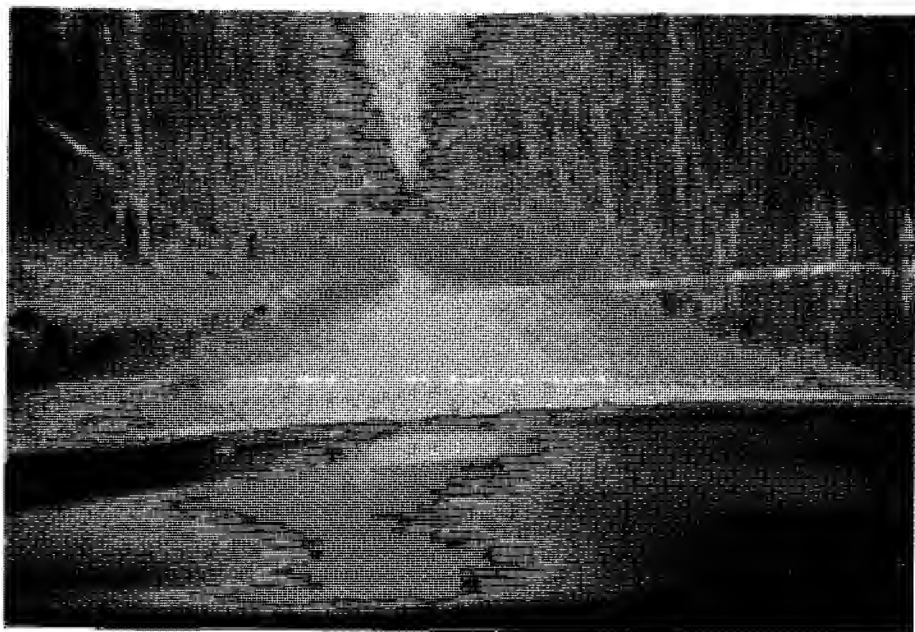


المؤلف في شارع بيق بيك الرئيسي

فأكلنا فيه بسكويتاً وحلوى وشربنا لبناً قالوا: إنه نقي من مزارع المنطقة، وذلك لعدم رغبتنا في الغداء في بلدة (بيق بيك) هذه أو فيما بعدها من القرى.

والبلدة صغيرة قدروا عدد سكانها بثمانية آلاف نسمة، ولكن أهميتها للمسلمين تأتي من وجود عدد من الإخوة المسلمين من الإفريقيين خارجها على مسافات متفاوتة، ولكنها كلها غير بعيدة منها. وأغلبهم يعملون في مقاطع للرخام وفيهم أناس جاؤوا من ملاوي وموزامبيق.

قرية سانقوتين:



على طريق ترابي في الغابة بين بيق بيك وسانقوتين في سوازيلاند

غادرنا بلدة (بيق بيك) على عجل قاصدين قرية (سانقوتين) لمشاهدة مسجد في القرية المذكورة وسرنا مع طريق اسفلتي لمسافة تقرب من عشرة كيلات ثم تركناه لنسير مع خط ترابي أحمر اللون لأن لون التربة حمراء فاخترقنا غابة مظلمة ثم نزلنا إلى وادٍ تسير فيه بقايا نهر ذكروا أنه يكون مفعماً بالمياه في العادة غير أن شح الأمطار هذا العام جعل مياهه قليلة ثم ارتفعنا من الوادي مع طريق ترابي حتى وصلنا في سفح تلة كبيرة عالية إلى قرية (سانقوتين).

وجدنا في الإستقبال الأخ (عمر عتيق بن خالد) من جمهورية ملاوي ويعمل في هذه البلاد والأخ محمد ماكراتي. وكلهم لا يعرف الإنكليزية فضلاً عن العربية وإنما كان الكلام يتم باللغة الوطنية وهي السسواتية ثم يترجمه المرافقون لي بالإنكليزية إذ ليس فيهم - أي المرافقين لي - من يعرف العربية. حدثونا مع الإخوة المسلمين الحاضرين عن تاريخ هذا المسجد بأنه بني في عام ١٩٨٠م، وأنه لا توجد في المنطقة كهرباء ولا ماء وإنما يتكلفون إحضار الماء من النهر الذي يقع في الوادي أسفل منهم، مع أن مياه النهر باتت شحيحة غير نظيفة.

وأخبرونا أنه توجد جماعة مسلمة أخرى في قرية أخرى غير بعيدة عنهم في قرية (سانقويني) تبعد عنهم ١٤ كيلومتراً وعدد المسلمين فيها ١٣ مسلماً، وهذا العدد على قلته لا يعتبر قليلاً بالنظر إلى صغر القرية وقلة سكانها. ولهم مسجد في تلك القرية، وأنه يوجد مسلمون متفرقون في قرى الغابات غير (سانقويني) وغير قريتهم (سانقوتين) ولكن ليس لهم مساجد لضعفهم وقلة عددهم.

أما في قريتهم (سانقوتين) هذه فإن عدد المسلمين هو ١٨ رجلاً تتبعهم أسرهم. ومن ذلك: ٩ أطفال يتعلمون في غرفة صغيرة جداً ملحقة

بالمسجد، مع أن إمام المسجد الأخ (عمر عتيق) قليل المعرفة بأمور الدين وليس ذلك لعدم رغبة منه في التعلم، ولكن لم تتح له هذه الفرصة فهو مثل غيره من المسلمين الأفارقة هنا جاء إلى هذه البلاد من أجل العمل، ويعمل عملاً شاقاً لا يتيح له أن يجد الفرصة للتعلم لو وجد من يتعلم فيه، ولكنه في الحقيقة لا يوجد.

مسجد سانقوتين:

أما مسجد سانقوتين هذا، فإن يبدو على البعد في لون أحمر جميل يخيل لمن يراه كذلك أنه مبني من الإسمنت المسلح ومطلي بطلاء أحمر جميل، مع أن الحقيقة أنه مبني من الطين الأحمر المأخوذ من الأرض تحته فالتربة حمراء جميلة حتى يبدو المسجد وكأنه مصبوغ، ومسقف بالخشب والصفيح وهو صغير المساحة ومفروش بفراش لا بأس به بالنسبة إلى قلة الإمكانات المالية للقائمين عليه، وليس فيه حمام أو مكان للوضوء.

ومع ذلك وضعوا فيه منبر خشب من درجتين أشبه بالصندوق الخشبي وبجانبه عصا عوجاء لخطيب الجمعة.

وعدة ثياب معلقة ليرتديها من يأتي وليس عليه إلا ثياب العمل غير النظيفة، أو لا يريد الصلاة في الثياب الإفرنجية الضيقة.

ومع ذلك فإن فيه ساعة مضبوطة، ولوحة من الخشب محفور عليها الشهادتان وعدد من المصاحف الكريمة بالنص القرآني مع أنه من الصعب عليهم قراءة العربية، وخلفه غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها على ٦ أمتار مربعة لصلاة النساء بينها وبين مصلى الرجال نافذة زجاجية شفافة.

وقد أدينا صلاة الظهر معهم، وكان المرافقون الذين معي هم الدكتور

مومنيات والأخ غلام حسين وهو يعرف اللغة الوطنية المعروفة بالسسواتية، لأنه موجود في هذه البلاد ومعنا أيضاً الإمام أحمد إمام مسجد في (أمباباني).



داخل مسجد سانقوتين في سوازيلاند مع إمامه واثنين من المسلمين

وقد حدثت شقوق بالمسجد ذكروا أن ذلك بسبب المطر، لأنه إذا جاءت ريح شديدة من المطر دفعت بالبلل إلى داخله فأثر ذلك على الطين فيه.

أما القرية فإنها صغيرة ذات بيوت متفرقة معظم بيوتها من القش المسنمة السقوف على هيئة الأكواخ الإفريقية التقليدية، وفيها قليل من بيوت الطين ذكروا أنها للوجهاء والقادرين.

ومعظم أهل القرية يعيشون على رعي الأبقار، ولا شك أن ذلك يتم بطريقة بدائية وإلا لأصبحوا أغنياء أو على الأقل مكتفين إقتصادياً، وذلك لوفرة المرعى وسهولة الحصول على الماء والعشب على مدار السنة.

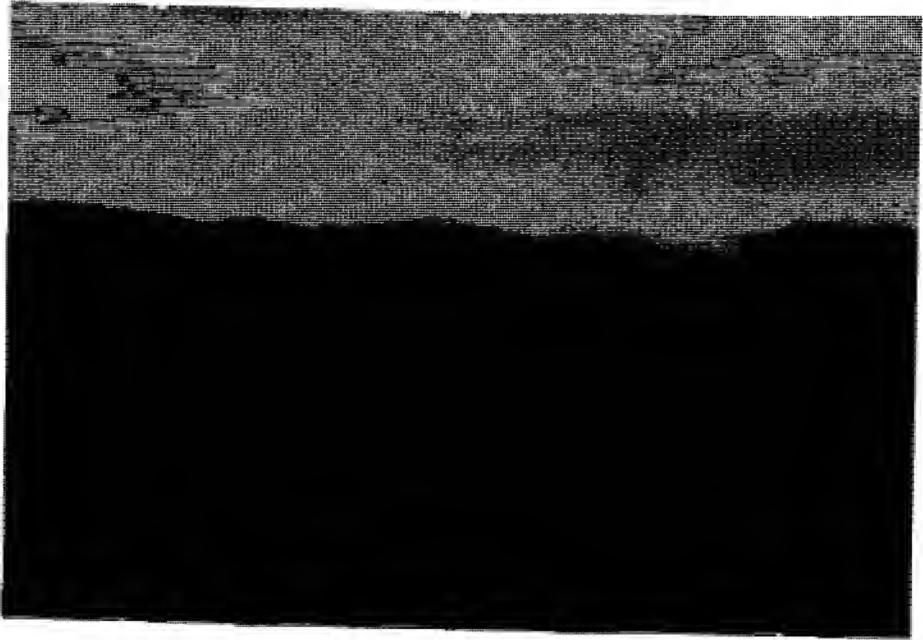


أطفال المسلمين عند باب المسجد

وقد سألتهم عن المشروع الذي تمس حاجتهم إليه وعن مقدار تكلفته؟ وكان ذلك بوساطة الترجمة من (السسواتية) إلى الإنكليزية فذكروا أنهم في أمس الحاجة إلى الماء وأن القرى القادرة تحفر بئراً إرتوازية صغيرة وتضع فيها مروحة هوائية فتخرج ماء نقياً يشرب منه أهل القرية.

فقلت لهم: إن كون ماء الشرب للقرية يأتي من المسجد أمر مهم فالإسلام خير للجميع من مسلمين وغير مسلمين، وأعطيتهم المبلغ الذي ذكروه لازماً للنفقة على ذلك وهي (٣٩٠٠) دولار أمريكي وسلمتها للأخ غلام حسين من أجل أن ينفذ لهم المشروع، وأخبرتهم أن الماء المستخرج هو للمسجد ومن أجل المتوضئين والشاربين منه، ولكن بالدرجة الثانية من أجل أن يستقي أهل القرية الماء من المسجد وينتفعوا كلهم به. وهذا المبلغ هو من رابطة العالم الإسلامي وليس مني شخصياً.

العودة إلى أمباباني:



المنطقة التي يقع فيها جامع أمباباني (قبيل غروب الشمس)

عدنا إلى (أمباباني) وذلك لأجل رؤية مسجد (أمباباني) في النهار ويسمى مسجد (ازول ونبي) على اسم المنطقة التي يقع فيها. فكانت اللافتة التي كتبت عليه بالإنكليزية (ازول ونبي اسلامك انستتيوت مسك، اسلاميك سنتر) أي معهد ازول ونبي الإسلامي والمسجد والمركز الإسلامي بني قبل ١٤ عاماً أي في عام ١٩٧٦م.

وهو جميل المظهر يقع في أرض خضراء واسعة مسورة تابعة للمسجد وطلاؤه أبيض ناصع مع أفاريز في بعض الأماكن باللون الأخضر ومفروش بفراش جيد غاية في النظافة، وله منبر خشبي مكسو بالمخمل. ومنارته عالية ظاهرة ترى على البعد.

وقد علقوا فيه لافتة نحاسية مكتوباً عليها خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع باللغة الإنكليزية وحدها أي دون العربية، وذلك لقلة الذين يعرفون العربية.

وجدنا إمامه الأخ الشيخ (صالح بن يوسف) من موزامبيق يتكلم السواحلية بطلاقة، ويتكلم قدراً لا بأس به من العربية وهو يدرس طفلة صغيرة في المسجد.

ففرح بقدومنا وحدثنا عن المسجد بأن عدد المصلين فيه يوم الجمعة يتجاوز المئة قليلاً، وفي الأوقات المعتادة غير الجمعة يكون العدد قليل لبعد المسجد عن المدينة، ولوجود مسجد آخر فيها وهو الذي تكلمنا عليه من قبل.

على أننا عرفنا أنه يوجد مسلمون ساكنون بجانب المسجد هذا.

ومن المرافق التي تتبع المسجد حديقة جيدة واسعة فيها أشجار قليلة مثمرة أكلنا من ثمرها مثل التوت الأحمر الجيد، وشجرة خوخ مثقلة بالحمل لكنه لم ينضج بعد.

ووجود التين والخوخ مزدهراً هنا يؤكد موقع البلاد البعيد من خط الإستواء لأن مثل هذه الأشجار لا تزدهر في المناطق الإستوائية.

والعجيب أنها جيدة ونامية من دون سقي أو تعب، ومع ذلك لا أراهم أكثروا منها، ولو فعلوا لكان منهما خير كثير.



بجانب شجرة توت في حديقة جامع أمباباني

كما يتبع المسجد قسم منفرد للنساء مغلق ما بينهن وما بين الرجال. فلا يرين الإمام ولا من خلفه من المصلين، إذا كن فيه وليس فيه محراب.

وبجانبه بيت الإمام وهو يسكن فيه الآن ومكتبة مبنية ولم تزود بالكتب اللازمة حتى الآن.

والدة الأيتام:

ذكر الإخوة أن زيارة هذا المسجد لا تتم إلا إذا زرنا الأخت السيدة سكينة وهي مشهورة بأنها تلتقط الأولاد الأيتام فتربيهم تربية إسلامية وتجمع لهم ما يحتاجون من أهل الخير حتى يتعلموا ويصبحوا رجالاً وهي لا تتخير الأيتام من أبناء المسلمين مثلاً، بل تأخذ أي يتيم، وتحرص أكثر على أبناء الكفار الذين انقطعت صلتهم بأهلهم أو الذين لا أهل لهم. فتربيهم تربية إسلامية وينشأوا مسلمين.

وجدناها في بيت موقوف عليها حسبما أخبرونا واسمها (سكينة يما) وهي مسنة متحمسة لإسلامها، ذكرت أنها ربت أعداداً لا بأس بها من الأيتام حتى تعلموا وتوظفوا. قالت: وأما الآن فقد كبر سني وليس عندي إلا ستة منهم رأينا بعضهم شباناً ذوي مظهر حسن وكلهم إفريقي أسود.

وهذا الميتم ليس ميتماً رسمياً، وإنما تفعل ذلك بصفة غير رسمية.

وحين سألتها عن هذا البيت الذي تسكن فيه مع الأيتام: لمن هو؟ قالت: لله.

ولاحظت أنه عامر باللوحات الإسلامية المعلقة، أكثر من بيوت بعض الأثرياء المسلمين. ثم عدنا إلى الفندق الجميل فندق شمس سوازي أو (سوازي صن).

مأدبة رئيس الجمعية الإسلامية:

في الثامنة من هذا المساء كان موعد مأدبة العشاء التي أقامها الأخ غلام

حسين لنا في بيته قد أزف فذهبنا بسيارته التي يقودها أحد الموظفين الأفارقة الذين يعملون في متجره. وحضرها خمسة من كبار المسلمين.

وكانت مأدبة هندية خالصة رغم كون الأخ غلام حسين مولوداً في هذه المنطقة الإفريقية ولم ير الهند وربما كانت زوجته التي أعدت المائدة لم تر الهند مثله أيضاً.

وفي الساعة العاشرة كنا نعود معهم إلى الفندق وكان المطر يسقط رذاذاً والمرتفعات تسبح في الضباب وكأنما نحن في أوروبا.



المؤلف في أمباباني في سوازيلاند

فدفعت إليهم تبرعاً مالياً لا بأس به من الرابطة للمشروعات الإسلامية هنا، وأخبرتهم بأن هذا التبرع الناجز ما هو إلا مقدمة للتعاون الإسلامي معهم في المستقبل، لأنني الآن اطلعت على أحوالهم وشاهدت مشروعاتهم، وسوف تتعامل معهم الرابطة على هذا الأساس، كما دعوت بعضهم إلى زيارة الرابطة وأداء العمرة والزيارة في غير وقت الحج وحتى في الحج أخبرتهم أن بإمكاننا أن نستضيف خلال موسم الحج رجلين أو ثلاثة منهم وفق شروط الإستضافة التي وضعتها الرابطة لهذا الغرض.

يوم الخميس ٧/ ٤/ ١٤١١هـ ـ ٢٥/ ١٠/ ١٩٩٠.

مغادرة سوازيلاند:

في الحادية عشرة دفعنا للفندق أجرته رخيصة بالنسبة إلى مستواه الممتاز، وذلك أن الدكتور مومنيات كان قد حصل على تخفيض من إدارة الفندق ثم ذهبنا إلى العاصمة (أمباباني) حيث قصدنا محلاً تجارياً ضخماً لأحد الإخوة المسلمين هنا وهو الأخ (حسن منصور) فوجدته مليئاً بالبضائع والمتسوقين. ويعمل معه فيه طائفة من أهل البلاد الإفريقيين من رجال ونساء.

ويبيع أكثر ما يلزم للمنازل من أدوات كما يبيع الأطعمة والآلات الكهربائية التي منها عدد منوع من المسجلات وأجهزة الإستقبال وهي معروضة في المحل ولكنها مسلسلة بسلاسل حديدية لا يمكن إخراجها منها إلا بمفاتيحها، وذلك من أجل المحافظة عليها ممن قد يختلس شيئاً منها في الزحام.

ثم انتقلنا مع الأخ حسن منصور إلى الطابق الثاني من البناء وذلك حيث يسكن وأسرته، وكان أعد طعام الغداء في بيته الذين ينطق بالذوق الرفيع وبالسخاء في كل شيء.

وجلسنا في غرفة جلوس لها شرفة تنظر منها وأنت في الغرفة إلى الجبال التي يجللها السحاب، وكان المطر لا يزال يهطل ومع ذلك فإن الجو كان منعشاً ولم يكن فيه برد مؤذٍ.

أما الطعام فإنه كان هندياً إلا أنهم قد أبعدوا عنه الفلفل الحار، وجاؤوا به منفرداً لمن أراد.

وبعد الطعام المعتاد وهو من الأرز البرياني وغيره جاؤوا بالفاكهة وذكروا أنها كلها تأتيهم من جارتهم جنوب إفريقية مع أن بلادهم يمكن أن تنتج منها ما يكفيهم ويفيض عن حاجتهم، ولكنها الخبرة والأدوات الجيدة والصبر على ذلك. إلا الأناناس الذي جاؤوا به طازجاً على المائدة فذكروا أنه من إنتاج هذه البلاد السوازية وأنها تنتج مقادير لا بأس بها منه.

وبعد الغداء توجهنا إلى المطار مع الأخ حسن منصور بسيارته التي يقودها بنفسه بعد أن ودعنا الإخوة الكرام أهل سوازيلاند.

وكان المطر لا يزال يهطل ومررنا بالجبل الذي يسبح في السحاب ما بين مزيني و(أمباباني) وقد أظلم الطريق وتمهلت السيارات بل وقفت لأنها كانت تسير واحدة واحدة فكانت تسير ثم تقف ثم تسير حتى انحدرنا منه فأسفر الجو، وخف المطر، ولكن كان المنظر الأخضر لا يزال هو الذي يكحل العيون.

ومررنا بحقل من فاكهة الأناناس التي يزرعونها هنا فتجود، وبأبقار كثيرة ترعى قرب الطريق.

وفي المطار كانت قاعة المغادرة صغيرة مثل قاعة الوصول وقد امتلأت بالمسافرين الذين كان بعضهم مسافراً إلى (مابوتو) عاصمة موزامبيق وبعضهم كان مسافراً إلى (مسيرو) عاصمة ليسوتو.



شارع في قلب أمباباني

وفي الثالثة والربع ظهراً كنا نغادر مطار (مسافا) الذي هو في الحقيقة مطار (سوازيلاند) كلها على طائرة نفاثة صغيرة ذات محركين تحمل ٦٥ راكباً.

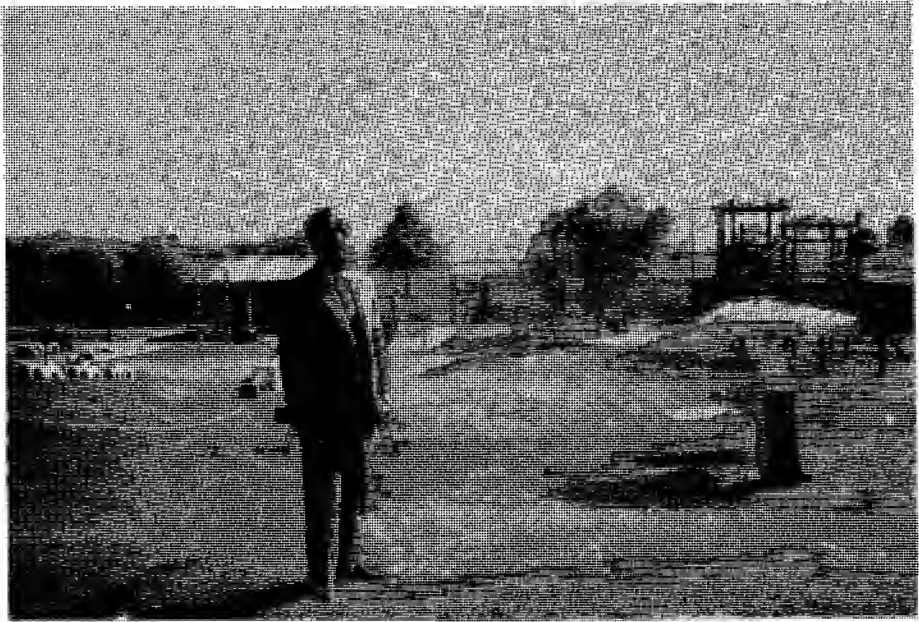
وهي مليئة بالركاب وتابعة لشركة سوازيلاند، ومكتوب عليها (سوازي اير).

كانت الإعلانات فيها كما في المطار باللغة (السسواتية) التي هي لغة سوازيلاند بعدها الإنكليزية وفيها مضيفتان سوداوتان. أما الركاب فإنهم مختلطون ما بين البيض والسود والبيض هم من جنوب إفريقية من الأوروبيين أو الأمريكيين.

وقبل الوصول إلى جوهانسبرج قابلنا سحاب كثيف اهتزت له هذه الطائرة الصغيرة فاهتزت واضطربت بل صارت كالريشة في مهب الريح مما جعلنا مع سائر الركاب نشفق من ذلك، ولكن الله سلم.

العودة إلى جوهانسبرج:

وعدنا إلى مطار جوهانسبرج وقد أوقف الدكتور محمد مومنيات سيارته في موقف سيارات هناك مدة يومين ودفع لذلك رسماً قدره ثلاثون رانداً ويساوي ذلك خمسة وسبعين ريالاً سعودياً أو عشرين دولاراً أمريكياً.



في حديقة جامع نور الإسلام في جوهانسبرج

وقد قصدنا فوراً (جامع نور الإسلام) في حي (لينيشيا) حيث لبثنا قليلاً فصلينا المغرب، وقد أعجبني كثرة المصلين حتى إنه صلى المغرب صفوف خمسة كل صف فيه ما لا يقل عن ٤٠ شخصاً وكان معهم أبناؤهم الذين جاؤوا وهم مع المصلين على غاية من نظافة الثياب والأبدان.

يوم الجمعة ٨/ ٤/ ١٤١١هـ - ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٠م.

نور الإسلام:

هذا اليوم هو آخر أيامنا في أقصى الجنوب الإفريقي، ولذلك طلب مني الأخ الدكتور محمد مومنيات مدير مكتب الرابطة في جنوب إفريقية أن أخصص صباح هذا اليوم لزيارة مكتب الرابطة وجامع نور الإسلام الذي يقع فيه المكتب وأن أطلع على المؤسسات التي تتبع الجامع.

فكانت أولى الزيارات لدار إسلامية لحضانة الأطفال توفر التنشئة الإسلامية للأطفال مع الألعاب والدراسة التي تتناسب مع مداركهم.

وأول ملاحظة عن هؤلاء الأطفال الصغار من ناشئة المسلمين أنهم يبدون في صحة جيدة وقد تغيرت ألوانهم إلى مزيد من الصفاء والإشراق فقد صاروا وهم من أبناء الهنود يشبهون أبناء العرب.

وهم من الجنسين الذكور والإناث لأنهم دون سن التمييز.

من أهم مظاهر الإهتمام هنا بالتعليم الإسلامي أنهم جعلوا الحروف العربية مجسمة كبيرة على هيئة مكعبات يمكن نقلها وتغيير أماكنها حتى تدخل في جمل مفيدة أو حتى يكون لها معنى على الأقل.

والفصل الدراسي - إن صح أنه فصل دراسي - هو أشبه ما يكون بغرفة ألعاب ملونة بألوان صارخة. هذه هي الطريقة الحديثة في رياض الأطفال.

ولكل واحد منهم خزانة صغيرة يغلقها بنفسه على ما يريد من أشيائه.

وقد كتبوا على الحائط لافتة بأسماء الأشياء عليها رسومات.



معلمة مع أطفال صغار في روضة الأطفال في جوهانسبرج

وجميع الأطفال يجلسون على الأرض مع مدرساتهم، وكأنهم في البيوت مع أمهاتهم.

وحتى في الحديقة الواسعة المحيطة بالمكان التي هي تابعة للجامع قد أعدوا للأطفال حديقة ألعاب واسعة في الهواء الطلق.

وكانت معنا مديرة المدرسة الأخت (نجم النساء محمد) وهي متفرغة للعمل في المدرسة وقد وجدنا أختاً مسلمة أيضاً زوجها طبيب درس الطب في سكوتلندا قد جاءت لتدريس الأطفال متبرعة بذلك، محبة للتعليم الإسلامي.

سويتو غير بعيد:

أثناء الجولة في حديقة جامع نور الإسلام ومرافقه أشار الدكتور مومنيات إلى جهة الشمال، وقال: هناك حي (سويتو) الحي الرئيسي للسود في جوهانسبرج وأكبر حي لهم في جنوب إفريقية كلها إذ يبلغ عدد سكانه مليوناً ونصفاً. وذكر أنه يبعد ٥ كيلات فقط.

فقلت: إن الفرصة سانحة الآن للقيام بنشاط إسلامي مكثف في الدعوة إلى الله بين السود حيث أباح القانون العنصري ذلك حديثاً وكان ممنوعاً بحكم القانون.

فوافق على ذلك. ولكنه قال: إن المشكلة هي في كيفية إيجاد الدعاة الصالحين. فقلت له: إنه من الصحيح أنه لا بد من تخطيط للدعوة ورسم منهج لها، غير أنه إذا وجد داعية مخلص في عمله صبور عليه، عارف بكيفية الدعوة إلى الله، وما ينبغي أن يخاطب به قوماً نشأوا على غير الإسلام. وبعضهم لم يسمع عن الإسلام شيئاً في حياته كلها فإن النتيجة بلا شك ستكون باهرة. مثلما كان عليه السلف الصالح من المسلمين الذين كانت وسائلهم المادية في الدعوة قاصرة، ولكن إخلاصهم في العمل وتفانيهم في الدعوة حققا نتائج لا تخطر ببال من يقيس الأمور كلها بمقياس مادي.



لافتة مكتبة رابطة العالم الإسلامي في جوهانسبرج

مدرسة نور الإسلام:

دخلنا بعد ذلك إلى مدرسة (نور الإسلام للبنات) وهي مدرسة إسلامية مدنية بمعنى أنها تدرس المنهج الحكومي الذي تعترف به الدولة وتقبل شهادة من تخرج منه إلى جانب منهج إسلامي مختصر. والغرض منها توفير الدراسة المدنية لبنات المسلمين في جو إسلامي وغير مختلط ببنات غير المسلمين في المدارس التي لا تقيم وزناً لما يهم المسلمين من المحافظة على أخلاق البنات والبعد عما يخالف الدين.

وتتقاضى المدرسة رسماً شهرياً من البنات القادرات، وتقبل الفقيرات مجاناً بعد إثبات فقر ذويهن.

ومع ذلك فإن نفقات المدرسة هي أكبر بكثير من دخلها، ولذلك طلبت المساعدة من رابطة العالم الإسلامي على ذلك.

وقد رأينا فصول الدراسة على غاية من النظام والنظافة، والمدرسات جلهن من المسلمات المتسترات، وحتى المعلمة غير المسلمة رأيناها وهي تدرس مادة العلوم قد لبست لباساً سابغاً شبيهاً بملابس المعلمات المسلمات في المدرسة.

ثم تفقدت مكتب رابطة العالم الإسلامي الواقع في بناء ملحق بجامع (نور الإسلام) هذا فوجدته مكتمل الآلات والأدوات منظماً بشكل جيد، إلا أن مكانه ضيق، إذ يشغل ثلاث غرف ضيقة وقد عرض علي مدير المكتب أن تشتري الرابطة بيتاً كبيراً مجاوراً للمسجد تجعله كله مكتباً للرابطة تجعل فيه المكتبة الكبيرة الموجودة الآن في مكان ضيق ملحق بالمسجد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن رابطة العالم الإسلامي قد ساعدت على بناء جامع نور الإسلام هذا وأسهمت بمبالغ جيدة لبنائه، وقد نفع الله به، بل صار مركزاً للإسلام والمسلمين في هذه المنطقة.

مغادرة الجنوب الإفريقي:

خرجنا للمطار حيث سافرت إلى البرازيل مع شركة (فارج) البرازيلية، التي غادرت مطار جوهانسبرج في الثانية عشرة والنصف إلى مدينة (ريو دي جانيرو) في البرازيل مروراً بمطار كيب تاون.

ومن ريو دي جانيرو ذهبت إلى مدينة (برازيليا) عاصمة البرازيل لبحث الأمور المتعلقة بتشغيل المركز الإسلامي الجديد الذي بنته المملكة العربية

السعودية هناك، وتقوم رابطة العالم الإسلامي بإدارته واستمرار العمل لاستفادة المسلمين منه.

وبعد ذلك انتقلت إلى مدينة سان باولو كبرى مدن البرازيل حيث اشتركت في مؤتمر إسلامي عالمي أقيم هناك، والحديث عن هذا الجزء من الرحلة في كتاب: «مؤتمرات إسلامية حضرتها» ولله الحمد والمنة.

الفهرس


مطبعة النرجس التجارية
NARJIS PRINTING PRESS
تلفون : ٢٣١٦٦٥٣ / ٢٣١٦٦٥٤
فاكس : ٢٣١٦٨٦٦ الرياض